مع عبد الناصر والسادات

سنوات الانتصار وأيام المحن



مذكرات
مراد غالب





مذكرات

مراد غالب

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام ـ شارع الجلاء ـ القاهرة
تليفون : ٥٧٨٦٠٨٣ ـ فاكس: ٥٧٨٦٨٣٣

إلى ابنتي منى وهبة

فلولاهما لما كنت على قيد الحياة

المحتويات

الصفحة

تقديم

هذه المذكرات كيف خرجت إلى النور؟

الدكتور مراد غالب من الشخصيات التى توصف بأن لها تاريخا. فهو شاهد وعايش وشارك فى أحداث مهمة صنعت فترة دقيقة فى تاريخ مصر المعاصر، بكل تفاعلاته وتقلباته المهمة والخطيرة، منذ نشاطات العمل الوطنى السرى قبل ١٩٥٢، ثم بعد قيام ثورة يوليو وعبر فترة من العمل السياسى امتدت لخمسين عاما تقريبا.

كان العضو المدنى الوحيد فى مجموعة من أربعة أفراد ، ضمت كمال رفعت وحسن التهامى وصلاح دسوقى، تزاول العمل السرى، كواحدة من المجموعات التى تتبع الفريق عزيز المصرى.

وظل إلى جانب نشاطه فى إطار مجموعات عزيز المصرى، واحدا من عدد لا يزيد على أصابع اليد من المدنيين أبرزهم أحمد فؤاد ، لهم علاقة بتنظيم الضباط الأحرار.

وقامت ثورة ٥٢، وتوثقت علاقته بقادتها وبجمال عبد الناصر، بعد انتدابه من جامعة الإسكندرية التى كان قد عين بها مدرسا بكلية الطب، إلى وزارة الخارجية فى القاهرة، إلى أن قررت الثورة تعيين عزيز المصرى - والذى كانت تعتبره أبا روحيا لها - سفيرا فى موسكو فى عام ١٩٥٣، وأن يكون معه مراد غالب.

وفى رحلته التى مشى فيها فى قلب الأحداث وليس على هامشها ، كان فى بداية خطاه شاهدا على قيام الثورة، وما تعرضت له فى سنواتها الأولى من متاعب ومواجهات، واقترابه من عصب المسئولية السياسية فى المواقع التى شغلها، واحدا من المستشارين فى رئاسة الجمهورية، أو مستشارا للرئيس للشئون السياسية، بعد عودته من موسكو فى عام ١٩٥٧ ، عاصر عن قرب أحداثا بعضها حط رحاله فى هوادة ، وبعضها اهتزت على وقع خطاه الأرض ، كالهزات والزلازل ، فهو قد عاصر أيام الوحدة مع سوريا، وثورة العراق عام ١٩٥٨ واشتعال المعركة بين القوميين والشيوعيين، ووقوف عبد الناصر ضد قاسم الذى تحالف معه الشيوعيون وأيدهم السوفيت.

وانتقل إلى بؤرة صراع أخرى حادة وعنيفة حين اختاره عبد الناصر سفيرا فى

الكونغو عام ١٩٦٠، ليباشر مهام منصبه بينما البلد فى حالة فوضى كاملة ، وصراعاتٍ لإحكام سيطرة القوى الكبرى على البلد الذى لم ينعم بعد باستقلاله الذى لم تطل أيامه على يد بطل حركة تحريره باتريس لومومبا، ولينتهى المسار بقتل لومومبا، وقطع الكونغو علاقاته الدبلوماسية مع مصر. ويعود إلى القاهرة ويبعث به عبد الناصر سفيرا فى موسكو ، ويبقى هناك أكثر من عشر سنوات، وهناك يتاح له أن يتابع عن بعد أحداثا خطيرة فى مصر ، لكنه بعد الحسابات الجغرافية ، وليس رؤية العين. وهناك فى العاصمة السوفيتية ، استطاع أن يكون فى قلب دوامات علاقاتنا مع السوفيت التى لم تهدأ تقلباتها ما بين الدفء والحرارة، وبين الصراعات الظاهرة والخفية، واتيحت له وهو هناك فرصة نادرة لرصد الصراع بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، خاصة لقاءاته مع المشير منفردا أو مع مجموعته ، فى زياراته المتكررة للاتحاد السوفيتى، وسمح له طول المقام بأن تتوطد علاقته العائلية مع خروشوف، وتتبادل العائلتان الزيارات وتتواصل بينهما الأحاديث، عن مصر، والعالم، وعن الاتحاد السوفيتى، ومصادر قوته وضعفه.

كما هيأت له فرصة إقامته الطويلة فى موسكو علاقة عائلية أخرى مثيرة مع سيفتلانا ابنة ستالين، صاحبة دراما الحب والكراهية لأبيها، الذى أحبته والدا حنونا، وكرهته طاغية قاسى القلب وحاكما متجمد المشاعر، قبل هروبها المفاجئ من بلادها وطلبها اللجوء السياسى فى الولايات المتحدة.

ووصلت به أحداث موسكو التى عاشها شاهد عيان، إلى ذراها بحرب ٦٧، وما سبقها وما تلاها، منذ رواية الحشود الإسرائيلية على سوريا، وزيارة شمس بدران الشهيرة، وتراجيديا الهزيمة، ولقائه بعبد الناصر بعدها بأيام، فى جلسة مكاشفة، استكملت فصولها فى زياراته للاتحاد السوفيتى للعلاج.

ويرحل عبد الناصر، ليعود مراد غالب إلى مصر فى عام ١٩٧٠، بقرار من الرئيس أنور السادات، بتعيينه وزيرا للدولة للشئون الخارجية، ويكون شاهدا على مرحلة تاريخية أخرى، تعددت فيها مواقعه كوزير للخارجية، ووزير للإعلام، ووزير للوحدة مع ليبيا، ومبعوث للرئيس السادات للتوسط فى الخلاف بين العراق (تحت رئاسة أحمد حسن البكر) والكويت، ثم آخر مناصبه سفيرا فى يوجوسلافيا.

عبر هذا التاريخ الخصب والغزير بالأحداث والمعارك والأحلام والهموم، تشكلت

مذكرات د. مراد غالب، وكان هذا كله فى مخيلتى حين بادرت بالاتصال به، متصورا أن لديه مذكرات مكتوبة.

اتصلت به تليفونيا، ورحب بى بكلمات اعتز بها، واقترحت أن أزوره لدردشة على فنجان قهوة. وذهبت إليه فى مكتبه. وحدثته عن مذكراته، وفاجأنى بأنه لم يكتب أى مذكرات. وأنه عازف عن كتابتها، وشرح لى أسبابه العديدة، منها ما هو إنسانى، ومنها أنه لا يريد خدش علاقات إنسانية تجمعه بأبناء أو أحفاد من سيتعرض لهم فى هذه المذكرات. ومنها ما هو موضوعى يتصل بإعراض عن الجرى فى سباق ينسب فيه من يكتبون مذكراتهم، أدوار بطولة لأنفسهم.

لكن الجلسة على فنجان القهوة، يتلوه فنجان آخر، فرضت علينا جوهر الحديث، فلقد جرنا الحوار إلى المذكرات، ووجدنا أننا أمضينا أكثر من ساعتين نجذب خيوط الذكريات من الماضى البعيد والقريب.. ويبدو أن ما جرى قد بعث أمام عينيه وقائع من الماضى، كان من الصعب - ولو نفسيا وذهنيا - أن يعيدها إلى صندوق الماضى، ويحكم إغلاقه عليها، لتستقر فيما كانت عليه. وحتى أحرك خطاه نحو ما جئت من أجله، ولا أعود خالى الوفاض، فقد اقترحت عليه أن نمشى المشوار من أوله. أن نعقد جلسات متصلة نتحدث، ونتناقش، ونفتح خزائن التاريخ، ونستخرج الألغاز وعلامات الاستفهام، جنبا إلى جنب مع الوقائع الصريحة ، لا نكتفى برصد ما جرى، بل أن نكمله بما نكون قد وصلنا إليه بعد هذا العمر من مفاتيح ، تجعلنا نفهم أو نستوعب ما استعصى علينا أن نلم به فى حينه.

استمرت لقاءاتنا لأكثر من شهرين، هو يحكى، وأنا أستمع وأكتب.

ولما كانت رؤيتنا للأمور لا يمكن أن تتطابق، وهذا من طبائع الأشياء ، بل هو المتوقع والمنتظر، فلقد استدعت رؤيته لبعض الأحداث، أن استوقفه متسائلا مستفسرا ، أو معترضا، أطرح وجهة نظرى، وأسمع رأيه وتفسيره، ونتناقش، سواء اتفقنا أو اختلفنا. وكثير من مواضيع هذه الوقفة، لم تأت فى سياق مذكراته، لأنها صدرت منى مثل جمل اعتراضية، وهو يروى الأحداث.

كانت لى وقفة أمام روايته للعلاقة بين الرئيس عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر، وقلت: فى هذا الصراع المأساوى بين الرجلين ، فإن الضرر قد تجاوز حدود العلاقة الشخصية بين صديقين وزميلين ، إلى الإضرار بمستقبل بلد وشعب. وإنى أسألك، وأنت شاهد على هذا الصراع عن قرب: ألم تكن حسابات المسئولية التى

وضعتها الأمة أمانة فى يد القائد، تلزمه أن يرجع إلى شعبه، يضع بين يديه هذا الخلاف، لا أن يقدم تنازلات لم يكن مقتنعا بها ، لحساب توسيع سلطات القائد العسكرى ـ المشير عامر ـ بما يجور على مساحة سلطات ومسئوليات القيادة السياسية ، خشية الصدام مع رفيقه المسنود بالقوة العسكرية؟

وكان رد د. مراد غالب: لقد شعر الرئيس عبد الناصر أن الخلاف بينه وبين المشير عامر ، قد تسبب من قبل فى مواجهة مع القوات المسلحة ، فأراد الرئيس أن يجنب البلد مواجهة لها خطورتها، وكانت حساباته ترى أن هذه المواجهة قد تؤدى إلى انقسام حاد ، ربما يدفع بالنظام كله إلى الانهيار ، فآثر تفادى المواجهة التى قد تدفع القوات المسلحة إلى اتخاذ موقف عدائى من الرئيس، بل وقد تتسبب فى انقسامات داخل القوات المسلحة ذاتها.

واستوقفته وهو يروى لى ما دار فى أول لقاء له بالرئيس عبد الناصر بعد هزيمة ٦٧، حين استدعاه لمقابلته، وتحدث إليه عما يشغل فكره فى هذه الظروف من إعادة بناء القوات المسلحة وفق رؤية جديدة ومبادئ جديدة للتخلص تماما من آثار الهزيمة، واستعادة الكرامة القومية ، وسألته: ألم يحدثك فى هذا اللقاء المهم عن الديمقراطية، التى اعتقد أنها لو لم تكن غائبة عن نظامنا السياسى، لتجنبنا الكثير من الانهيار الذى حدث فى ٦٧؟ على الأقل كان سيستمع إما إلى أصوات ناقدة لهذا الهرج فى حشد القوات المسلحة، ودخول حرب دون خطة واضحة، أو هدف قتالى معلوم، ولربما وصل إلى سمعه أيضا ما كان يقرؤه البعض فى كتابات منشورة فى الغرب من أن إسرائيل ـ وبمساعدة أمريكا ـ تجهز لجر مصر إلى المواجهة، وتوريطها فى عمليات تخلق مبررا لإسرائيل للعدوان وفق خطة محددة وأهداف مجهزة؟

وكان رد د. مراد غالب: لم يذكر الرئيس عبد الناصر فى ذلك اللقاء شيئا من هذا، لكن همه كان يدور حول كيفية وقوف القوات المسلحة مرة ثانية على قدميها ، وكيف تقضى تماما على آثار العدوان.

عدت بسؤال اعتراضى : كيف لم يفكر فى هذا، والشارع كله كان مشغولا بالتفكير فيه، وهو يبحث عن الأسباب التى أدت إلى الهزيمة ، ليس على المستوى العسكرى فقط، بل أيضا على مستوى وتركيبة النظام السياسى؟

وأجابنى د. مراد غالب: الحقيقة أن رد فعل الشارع بعد الهزيمة، وإن تمثل فى تأييده الكاسح لعبد الناصر وبقائه، إلا أن التساؤلات أخذت تتردد بكثرة عن: ما هى

الأسباب التى قادت إلى النكسة؟ وأين تكمن هذه الأسباب؟ ومن الذى يتحمل المسئولية الحقيقية؟ هل هو عبد الناصر ؟ هل هو النظام بأكمله؟ هل غياب الديمقراطية؟ هل غياب الشفافية؟

وظلت هذه الأسئلة عالقة فى أذهان الناس ، إلى أن قامت مظاهرات الطلبة الشهيرة فى عام ١٩٦٨ ، وتفجرت نفس الأسئلة كلها فى الشارع. وبعد هذه المظاهرات شعر الرئيس عبد الناصر، أنه لابد من التغيير. ولك أن تسأل لماذا لم يتحرك عبد الناصر قبل هذه المظاهرات ويبادر هو بالتغيير ؟ وأجيب بأن أهم قضية شغلت تفكيره هى إنشاء قوات مسلحة قوية وجديدة تماما بعد ما جرى فى ٦٧.

وأعود بسؤال اعتراضى عن قرار عبد الناصر إيفاد وزير الدفاع شمس بدران إلى موسكو قبل أيام من حرب ٦٧ ، فى مهمة دقيقة وحساسة ، بينما عبد الناصر يعرف - حسب رواية صاحب المذكرات - مدى تدنى كفاءة شمس بدران ، وأهليته للمنصب الذى يشغله ، فضلا عن قبوله أن يكون هذا هو وزير دفاعه ، فى ظروف تلوح فيها أمام بلاده أشباح حرب؟

ويقول د. غالب : لا أحد يستطيع أن يبرر للرئيس عبد الناصر كل هذا. ولا توجد إجابة مقنعة على التساؤلات التى نتجت عن ظروف العلاقة المعقدة بين الرئيس والمشير. ولماذا ترك المشير فى نفس المواقع التى يشغلها؟ لماذا تحمل الصراعات بينه وبين المشير؟ وكلها من التساؤلات التى تلقى بالمسئولية فى كل هذا على الرئيس عبد الناصر. ولقد كان شمس بدران هو الرجل الثانى بعد المشير فى القوات المسلحة، وكان الكثير من الضباط يتملقونه ويعاملونه باعتباره الذى فى يده الحل والربط ، واتجه عملهم إلى تأمين سلطات القيادات العسكرية وعلى رأسها المشير ، والتى كان هاجس الأمن هو شاغلها الأول، وبالتالى بعدت القوات المسلحة تماما عن التدريب العسكرى الواجب ، وعن الروح العسكرية.

عدت إلى محاورة د. مراد غالب لأقول : مهما كانت المبررات فإن إدراك القيادة السياسية لتدنى كفاءة وزير يشغل واحدة من أهم وأخطر وزارات الدولة، يجرنى إلى وضع عام كان مسئولا عن انهيارات ليست فى القوات المسلحة وحدها، لكن فى الحياة المدنية كذلك ، وهو انتهاك قدسية مبدأ مهم هو اختيار الرجل المناسب للمكان المناسب.

ويجيبنى د. مراد غالب : بدون شك كان هاجس الأمن على رأس القضايا المهمة فى هذا الوقت لكن الرأى العام كانت تدور فيه مناقشات كثيرة حول المبدأ الذى ساد وعرف

باسم مبدأ أهل الثقة وليس أهل الخبرة. ولقد انتصر هذا المبدأ لأن هاجس الأمن - كما ذكرت - كان أهم بكثير من أى شئ آخر ، وجاء على حساب الأداء الذى كان هزيلا فى كثير من الأحوال خاليا من الإبداع الخلاق والتجربة والخبرة العميقة.

وتتوالى محطات التوقف. وأعرض قولى: هل كانت علاقتنا بالاتحاد السوفيتى متوازنة؟ وهل كانت قضية العدوان الإسرائيلى فى ٦٧ واحتلال إسرائيل للأرض العربية، تعالج من جانب السوفيت كقضية لها أولوية فى حسابات سياستهم الخارجية، أم أنها كانت بالنسبة لهم جزءا من حسابات أكبر تتشابك مع دائرة علاقاتهم بالولايات المتحدة ، وصراعاتهم معها؟ بحيث تصبح قضيتنا جزءا من عملية أخذ وعطاء بين القوتين الكبيرتين. ويأتينى رده قائلا: كان للسوفيت فى تسليحهم لنا، حساباتهم العلوية ، بمعنى أنهم لا يريدون مواجهة مع الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط بسبب إسرائيل. ولو قلنا فرضا إننى كقوة عظمى أتعامل فى قضايا ، وأنك جزء من هذه القضايا ، وقضيتك بالنسبة إليك هى مسألة حياة أو موت ، فهى ليست كذلك بالنسبة لى ، لوجود احتمالات وقوع صدام بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بسبب إسرائيل.

وعلى طول الرحلة ، كنت أبحر مع د. مراد غالب فى مياه بعضها هادئ وبعضها تتلاطم فيه الأمواج، فهو قد أثار قضايا تحتمل الاتفاق والاختلاف ، لكن الأهم أنه وهو يستخرج لنا من صندوق ذكرياته الذى كان مغلقا قبل أن يسلمنى مفتاحه، مشاهد من أحداث كان شاهدا عليها، قد استفز ذاكرة الذين اختلفوا أو اتفقوا معه على حد سواء، فراحوا ينبشون هم أيضا فى ذاكرتهم يعيدون فرز الأفكار، أو النظرة إلى أشياء كانت لهم منها فى حينها مواقف بعينها، ليروا ما إذا كان ما سلموا به فى ذلك الحين صوابا أم خطأ ، وإن كان هذا لا ينفى أن هناك كثيرين غير هؤلاء وهؤلاء ، تستعصى أفكارهم على أى تبدل أو تحول، لا بفعل الزمن ولا بفعل الصدمات والتجارب، ويبقى هذا الكتاب عملا ، ليس القصد منه أن يكون رواية للتاريخ ، مادام أنه لم يلاحق الأحداث بالتسجيل والتدوين فى حينها، لكنه ينظر إليها بعد سنوات طويلة من وقوعها، نظرة متعمقة تعرض وجهة نظر صاحبها فيما جرى تساعدنا على أن نستخلص الدروس وأن نستوعب، ونتعلم، ونعرف فيم أصبنا، ولم كان الخطأ، خاصة وأن الخطأ فى صناعة القرار بالنسبة لأى أمة، قد لا يكون مجرد إصابات وخسائر ، بل قد يكون الكارثة بعينها.

عاطف الغمرى

مقدمة

لم أكن متحمسا لكتابة أية مذكرات عن عملى فى الوظائف المختلفة التى شغلتها. فكنت أشعر بأنه من غير اللائق أن أكتب عن أصدقاء أو زملاء عرفتهم أو تعاونت معهم، وعشنا معا فترة إن طالت أو قصرت فهى فترة مملوءة بالمحبة والزمالة والاحترام.

ولكن كثيرين من هؤلاء الأصدقاء والزملاء كانوا يلحون علىَّ فى كتابة هذه المذكرات، والبعض اقترح ألاَّ تنشر إلاَّ بعد أن أكون قد غادرت هذه الحياة واستقبلتنى الآخرة، والبعض الآخر أقترح أن أكتبها الآن قبل أن أنساها. والكل أجمعوا على أن أكتب على أساس أن أكون موضوعيا وأمينا فى سرد الوقائع والأحداث، وهناك من قالوا فلتكتب من أجل التاريخ!!

ولقد آليت على نفسى أن أكون موضوعيا وأمينا ولكن ما هى الموضوعية قبل كل شىء؟ وهل هناك موضوعية مطلقة؟! فالإنسان هو الذى يكتب عن الموضوعية ولكن من وجهة نظره الذاتية أى أن الموضوعية تُولد فى واقع الأمر ذاتية!! وأعتقد أنه إذا ما حاسب الكاتب نفسه وكان أمينا معها، فإنه بذلك يكون قد خطا خطوات لا بأس بها نحو الموضوعية ولكن الموضوعية بالنسبة لى غيرها بالنسبة لإنسان آخر فهو قد يرى فى موضوعيتى تحيزا واضحا فى وصف حدث ما أو إنسان ما. وليس كل قارئ لديه الوقت أو القدرة على أن يضع نفسه فى الظروف ذاتها التى مرَّ بها الكاتب. وعموما فقضية الموضوعية قضية معقدة ومركبة.

وهناك تساؤل آخر طرحته على نفسى وهو: هل يمكن للإنسان أن يكون محايدا؟! وهل هناك حيادٌ مطلق؟ إن الإنسان مهما اعتقد فى نفسه الحياد فهو إنسان قبل كل شئ!! إنه يُحَب ويكره، ويتأثر بمن عاملوه معاملة طيبة أو من أساءوا إليه. ولكنى أعتقد أن عليه أن يكون موضوعيا وأن يبذل جهدا مخلصا فى أن يكون كذلك. ومع ذلك فإنى أعترف بأن الإنسان دون قصد يُملِى عليه عقلُه الباطن أشياء لا يمكن أن يشعر بها أو يوقفها. كذلك فإنى أعترف بذاتية موضوعيتى.

أما عن الأمانة فى الكتابة فهى مرتبطة بالموضوعية ولكن لها كيانها الخاص

أيضا. فالأمانة تقتضى أن تقول أو تكتب ما أنت متأكد منه أو ما عايشته فعلا، أو أن تترجم عن الأحداث بشعورك وإحساسك الداخلى الذى تثق به وتثق بصدقيته الدفينة داخل نفسك. كذلك فإن من الأمانة والموضوعية أيضا أن تكتب عن الشئ ونقيضه وعن حسناته ومساوئه، عن أخطائه ونجاحاته.

والكتابة يجب ألا تكون لتصفية حسابات قديمة أو التزلف لحسابات مقبلة وأن يكون فيها القدر المستطاع من التجرد.

أما الكتابة من أجل التاريخ فهى الأخرى قضية شائكة. فالحدث الواحد لا يكتب اثنان عنه كتابات متطابقة، فما بالك بالكثيرين ممن شاهدوا هذا الحدث. إن رد فعل أى إنسان للحدث لا يتطابق تمام الانطباق مع رد فعل إنسان آخر. فإذا قامت حرب مثلا، فستجد إنسانا يقتحمها بكل شجاعة وإقدام وستجد آخرين يتعاملون معها كواجب مقدس وستجد البعض فى موقف دفاعى بمعنى أنهم يحاربون دفاعا عن أنفسهم وأن الظروف تجبرهم على أن يحاربوا. وهناك من يهرب أو يختبئ أو يتمارض.

أما الكتابة من أجل التاريخ فتواجه مشكلة أخرى: فليس هناك تاريخ واحد ولكن هناك «تواريخ» بقدر ما هناك من رواة ولكن ليس معنى هذا أنه لا توجد كتابة للتاريخ يُجْمع أغلبية الناس على أنها أمينة وموضوعية. وأحمد الله أننى لا أدعى التأريخ للمرحلة التى كتبت عنها ولكن ما كتبته هو مجرد سرد لأحداث عايشتها وسمعتها من مصادر محل ثقة ولكنى لا أعتبر ما كتبته كتاب تاريخ.

كذلك أود أن أؤكد أن ما أقصده بالموضوعية هو موضوعيتى أنا الذاتية وكل ما أرجوه أن أُصنف ضمن من حاولوا أن يكتبوا بصدق : الصدق الذى ينبع من أعماق نفوسهم.

وأخيرا أرجو ألا أكون قد لجأت لتصفية حسابات لمجرد تصفية الحسابات، وأعتذر مقدما لكل من تألم من كلمة كتبتها عنه أو لم أعطه حقه الذى يعتقد هو أننى بَخسْتُ هذا الحق ولا شك أن الكثيرين يستحقون أحسن وأوفى مما كتبت ولكنى أعتذر لضيق الصفحات وكثرة الأحداث.

كذلك أود أن أؤكد أننى لم أكتب عن تفاصيل الأحداث أو كل ما حدث فى هذه المرحلة الزمنية الممتدة المتسعة فهذا يحتاج لصفحات أكثر عددا وحجما وخشيت أن يمل القارئ من كثرة التفاصيل.

وختاما أرجو أن تحوز هذه المذكرات رضاء القارئ.

مراد غالب

الفصل الأول

البداية مع خلايا عزيز المصرى

كنا مجموعة من الأصدقاء جمعت بيننا المحبة منذ الصغر فالتقينا فى المدارس الابتدائية والثانوية، وكنا متجاورين فى السكن، نسكن جميعا فى حى مصر الجديدة. ولم تقتصر علاقاتنا على كونها مجرد صداقات، لكن أصبحت معيشة ممتدة خلقت فيما بيننا ثقة متبادلة. وكانت هذه المجموعة تتكون من صلاح دسوقى وكمال رفعت وحسن التهامى ومراد غالب.

كان معنا أيضا آخرون لكن البعض ابتعد وبقينا نحن الأربعة، يجمع بيننا اتصال وثيق. وهؤلاء الثلاثة الآخرون كانوا ضمن خلية سرية تحت رعاية الفريق عزيز باشا المصرى وهم الذين عرفونى عليه وضمونى إلى هذه الخلية وأصبحنا نحن الأربعة من حوارييه.

كانت بداية نشأتى فى حى مصر الجديدة منذ ١٩٢٤، ولم أع شيئا قبل هذا التاريخ. فأنا من مواليد ١٩٢٢ وكان أبى يسكن فى حى الصليبة قبل الانتقال إلى مصر الجديدة.

كان من الطبيعى أن أتعلم فى مدرسة مصر الجديدة الابتدائية. وكان من زملائى فى هذه المدرسة حسن التهامى شقيق محمود التهامى وصلاح دسوقى. وجمعتنا صداقة الطفولة إلى أن التحقنا بمدرسة القبة الثانوية، وهناك توطدت علاقتى أكثر بصلاح دسوقى.

كان ناظر مدرسة مصر الجديدة الابتدائية مربيا، فاضلا، هو اسماعيل توفيق. كان يمر على الفصول أثناء الدرس ويسأل الطلبة بنفسه، ثم يتكلم عن الوطنية وحب مصر والتضحية من أجلها. كان معجبا أشد الإعجاب بالألمان وتقديسهم لوطنهم، وكان يحكى كيف أن الألمان إذا أشرفت غواصة لهم على الغرق فأنهم يصعدون إلى ظهرها ومعهم موسيقاهم، ويقفون فى صفوف غاية فى التنظيم والانضباط. وتظل الموسيقى مستمرة فى العزف إلى أن يغوصوا جميعا تحت الماء دون أن يتحرك أى منهم أو يرمى بنفسه فى الماء طلبا للنجاة هاتفين ألمانيا فوق الجميع.

كانت هذه الصورة تداعب خيالنا وتعمق فى نفوسنا مدى التضحية التى ينبغى علينا بذلها من أجل الذود عن الوطن، وقد زرعت فينا شيئا مهما وهو التطرف الوطنى.

كان شعورى ميالا للوفد، فقد سمعنا الكثير عن ثورة ١٩١٩ وقيادة سعد زغلول

لهذه الثورة والتأييد الشعبى العارم له. وبعد وفاته خلفه النحاس باشا وكان شخصية وطنية شعبية وقادت الكفاح الشعبى ضد الملك فؤاد وحزب الأحرار وصدقى باشا (حزب الشعب)، لكننا ظللنا نحلم بالتضحيات الألمانية أثناء الحرب والتطرف الوطنى وشعار ألمانيا فوق الجميع.

روافد مصر الفتاة والماركسية

وحين ظهر أحمد حسين وألف حزب مصر الفتاة ورفع شعار مصر فوق الجميع استهوانى الشعار كما استهوانى التنظيم الذى كونه أحمد حسين، وانضممت إليه وعلقت شعار الأهرامات الثلاثة - شعار حزب مصر الفتاة. لكننا لم ندرك الصراع بين النازية والفاشستية من جهة، وبين الدول الغربية، من جهة ثانية، لأنها كانت فى نظرنا دولا استعمارية. وكنا ننظر إلى مصر فقط واحتلال الانجليز لها الذين كانوا يتفننون فى إذلالنا. وكانت هذه نظرة ضيقة. فقد كانت الدول العربية الأخرى مستعمرات بريطانية أو فرنسية أو إيطالية فى ليبيا.

وجاءت حرب الحبشة ١٩٣٦ وغزو إيطاليا لها، وكان نجاح هذا الغزو دلالة على تفوق الفاشست على الدول الاستعمارية الأخرى.

عموما كانت أفكارنا سطحية، تغلب عليها عواطف الشباب وحماسهم والكراهية التى نحملها للاستعمار البريطانى. ولم نكن ننظر إلى أبعد من هذا كما لم نسع إلى تحليل الفاشستية والنازية وأخطارهما المدمرة على الإنسان والإنسانية.

وظلت أفكارنا مع الألمان، فكنا نود هزيمة الإنجليز الذين سامونا الذل، حتى لاحت هزيمة النازية والفاشستية، وهزنا انتصار الاتحاد السوفيتى بقيادة ستالين وأخذنا نراقب هذا الانتصار ونبحث عن الفكر الذى قاد إليه، وحصلنا على مرجعيات ومواد لا بأس بها حول الماركسية واللينينية والستالينية. وكان أول من أطلعنى على هذا الفكر صديق لنا كان من أكثرنا شجاعة وإقداما، إن لم يكن أشجعنا جميعا، وهو كمال الدين حسنين الذى تطوع للحرب فى فلسطين فى الأيام الأولى لها وقبل دخول الجيوش النظامية، واستشهد فى هذه الحرب، وكان مثلا رائعا للوطنية وإنكار الذات، وله شارع باسمه فى مصر الجديدة حيث كان يسكن.

واظبت على دراسة الماركسية إلى أن تعرفت على المهندس عز الدين رفعت شقيق كمال رفعت وكان من المتحمسين للماركسية. وكنا نتلاقى سويا لمزيد من الحوار

والتحليل، ثم عرفنى بالدكتور عبد الفتاح القاضى، وذهبت إليه فى عيادته فى شارع ٢٦ يوليو «فؤاد سابقا» واستشعرت من كلامه وجود حزب شيوعى هو أحد قادته وأنه يرحب بانضمامى إليه.

لم أتحمس إلى الانضمام إلى حزب، لأن طبيعتى لا تتفق مع التنظيم الحزبى المنضبط والانصياع لقرارات تفرض علىّ، وأريد ألا يكون تفكيرى محددا أو منصبا فى قوالب. ولكنى اعترف بأن كثيرا من أدبيات الماركسية شدتنى إليها خصوصا أنها تعتمد على العلم والاقتصاد ونظريات التطور، وكلها عناصر يلمسها الإنسان وليست غيبيات تؤمن بها أو لا تؤمن!!

ولكن كانت هناك فرضية مهمة لا يستطيع عقلى أن يسلم بها وهى أصل الكون المادى. فالمادية تفترض وجود المادة ثم تطورها.

ولكنى كنت أسأل نفسى دائما هذا السؤال : ومن أوجد هذه الكمية الهائلة من المادة التى تكّون منها هذا الكون الذى ليس له حدود؟ إن المادية تفترض وجودها وتبنى نظريتها عليها ولا تبحث فى منشأ وجودها أصلا!!

فهى إذن بالنسبة لى لم تحل قضية الخلق؟

وحتى الآن فالعلماء فى عصر الثورة العلمية التى نعيشها يقدمون نظرية الخلق ويجزمون بصحتها على أنها الانفجار الكبير «Big Bang» الذى حدث لكتلة هائلة من المادة تختزن فى داخلها مخزونا لا نهاية له من الطاقة. وأن هذا الانفجار أوجد الكواكب والنجوم والسدوم والمجرات، واعتقدوا أنهم وصلوا إلى أصل الكون، ولكنهم لم يفصحوا لنا عن كيف وجدت هذه الكتلة الهائلة من المادة؟ ومن الذى أوجدها؟ وأين كانت موجودة؟

وهذه هى نفس المشكلة التى قابلتنى فى الحديث عن الماركسية المادية الجدلية والتاريخية.

كذلك لم أتصور إمكان قيام ديكتاتورية «البروليتاريا» أو الطبقة العاملة. ونظرت إلى الطبقة العاملة فى مصر وتساءلت: هل يمكنها أن تحكم مصر وتقودها إلى نقلة حضارية جديدة.

لاشك أن الحكم يجب أن يكون فى أيدى الصفوة من المثقفين والعلماء ورجال الإدارة والمتخصصين. ولاحظت أن أى عامل يجتهد ويواصل تعليمه وثقافته، وينال

تعليما جامعيا ينقل نفسه طبقيا، وهذا شئ طبيعى وأهلا به لو أنه استمر فى النجاح وأصبح وزيرا أو محافظا.

ولكن الماركسية كان لها الفضل فى الاهتمام الكبير بالعدالة الاجتماعية، وأهمية تكافؤ الفرص، والتركيز على العلم فى فهم طبيعة الأشياء. وهى فوق كل ذلك أسلوب نقدى وتحليلى لظواهر تطور المجتمعات وإيضاح للنواحى الاستغلالية فى الرأسمالية، بل كان لها فضل كبير فى تطور الرأسمالية نفسها وما حدث بالنسبة لدخول العمال والتأمين الاجتماعى والصحى ومعاشاتهم وتكوين نقابة لهم... الخ مما نراه الآن فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة. وعندما كنت سفيرا فى موسكو، وقبل ذلك سكرتيرا للسفارة، اعتبرنى السوفيت ليبراليا غير معاد للشيوعية، وأننى مقتنع بأهمية وجود الاتحاد السوفيتى واحترم الفكر الماركسى واللينينية، ولكنى أؤمن بقوة الشعور الوطنى والانتماء إلى الوطن. وكانوا يقولون إن الإنسان الوطنى من العالم الثالث لابد أن يكون صديقا للاتحاد السوفيتى لأنه سيجد تناقضا أعمق بينه وبين الاستعمار عما بينه وبين الاتحاد السوفيتى والاشتراكية.

وقد شدتنى كلمات قالها « محمد خاتمى» الرئيس الإيرانى الحالى ذكر منها أن الماركسية تراث من تراث الإنسانية، وأنها لابد أن تقرأ ويتعمق الإنسان فى مفاهيمها، وهذا يأتى من أحد أساطين رجال الدين الشيعى المسلمين.

أردت بذلك أن أكتب بصدق عن مشاعرى الداخلية واتجاهاتى السياسية. فمازلت أؤمن بالعدالة الاجتماعية، وأن الاشتراكية لم تمت، ولكن الذى انهار هو النظام الشمولى الذى شوه الاشتراكية. والفكر الاشتراكى سيظل حيا ولست أقصد التطبيق السوفيتى أو أى تطبيق آخر ولكن أعنى العدالة الاجتماعية بمعناها الواسع. وجدير بالذكر أن كلينتون وبلير وشرويدر رؤساء أمريكا وانجلترا وألمانيا أحسوا بالنواحى السلبية للعولمة الرأسمالية الكوكبية ونادوا بالطريق الثالث الذى يعنى الرأسمالية والعولمة ذات البعد الاجتماعى.

هذه خواطر سريعة استرجعتها من الذاكرة، فهى محفورة ومحفوظة فى عقل الإنسان. وتعجبت عندما كتبت هذه المذكرات كيف يختزن العقل البشرى كل هذه الصفحات ويجعلها فى بيات سنين طويلة وكيف يسترجعها وأين يقع كل هذا وفى أى منطقة من مناطق المخ. يقول العلماء إنها فى الذاكرة، ولكنهم يقولون الآن إن الذاكرة تشمل ذاكرة بصرية وسمعية ومقروءة وذاكرة اللمس والشم والتذوق... الخ.

لقد أصبح للذاكرة أكثر من مكان ومركز وأصبح استرجاعها يتطلب الكثير من الجهد والطاقة.

وأعود بالذاكرة إلى بداية مشوارنا، نحن الأربعة من الأصدقاء الذين عملنا سرا تحت رعاية الفريق عزيز المصرى.

كان عزيز المصرى بالنسبة لنا بمثابة أسطورة. فقد كان فى الأصل ضابطا فى الجيش التركى ورجلا عسكريا مشهودا له بالكفاءة والشجاعة. وكان قد تخرج فى الكليات العسكرية التركية، وشملت حروبه مع الجيش التركى البلقان واليمن وليبيا، حتى أنه سمى بطل «برقة» بعد أن حارب دفاعا عن هذه المدينة الليبية أمام الجيش الإيطالى. وأنشأ جمعيات سرية منها جمعية العهد التى اشتركت فى انقلابات عسكرية ضد السلطان العثمانى، إذ شارك أنور باشا، ولكن أنور باشا أوقف مغامراته للاستيلاء على العرش، وتزوج من ابنة السلطان العثمانى. ثم اتصل عزيز المصرى بأحمد جمال باشا الملقب بالسفاح، وكان حاكما على سوريا. ولكنه مثله مثل أنور باشا كان يطمع فى أن يستقل بسوريا عن الباب العالى. وأخيرا وصل عزيز المصرى إلى اليمن حيث أصيب بالكوليرا وأسس الجمعية القحطانية التى كانت تستهدف انفصال دول المنطقة عن تركيا. وأخيرا، حاول مع الشريف حسين والى الحجاز، ولكن البريطانيين كانوا أسرع منه فى استقطاب الشريف حسين لتفتيت الامبراطورية العثمانية.

وكما هو واضح من تاريخه فقد كان رجلا ثوريا لديه ثقافة واسعة وتصميم على تغيير الأوضاع السائدة فى العالم العربى. وكان ينزع إلى الاغتيالات السياسية ويرى أنها يمكن أن تؤدى إلى إرهاب الحكام و زعزعة مكانتهم ثم القضاء عليهم بعد ذلك.

تولى الفريق عزيز المصرى فى مصر مناصب مفتش عام الجيش المصرى ورئيس الأركان. لم يكن عدوا واضحا للعائلة المالكة، وإن كان يكرهها عندما يتكلم معنا عن أفرادها ويكشف لنا عن خباياهم. وفى فترة حكم الملك فؤاد كلفه بأن يكون راعيا لابنه فاروق مع أحمد حسنين باشا، وقد أشرف الاثنان على رعايته. وكما روى لنا عزيز المصرى، فقد كان حسنين باشا يساعد فاروق على الهرب ليلا من مبنى السفارة المصرية فى بريطانيا ليسهر فى الملاهى الليلية، بعكس ما كان عزيز المصرى يريده لفاروق بأن يكون جادا منضبطا ملتزما بالثقافة العسكرية. لكن حسنين كسب المعركة، وأبعد عزيز المصرى وأصبح لحسنين حظوة كبيرة عند الملك بعد توليه العرش، إلى أن

تزوج حسنين باشا سرا من الملكة نازلى وبدون علم فاروق فتأثرت العلاقة بينهما.

كانت خليتنا هى واحدة من خلايا عزيز المصرى التى تسعى لتغيير الأوضاع. وكانت هناك خلايا أخرى كثيرة تتصل به من مجموعة الضباط الأحرار وكلها كانت رافضة لفساد الملك وللأوضاع السياسية المتردية فى البلاد، وتنادى بنفس المبادئ التى نادت بها ثورة ٢٣ يوليو فيما بعد. وقد استطاع جمال عبد الناصر ومجموعة الضباط الأحرار أن تجمع كل هذه الجماعات فى إطار واحد. وكان زملاء عبد الناصر يعتبرونه الشخصية البارزة فيهم وكان قد عمل مدرسا فى كلية أركان الحرب وتخرج على يديه ضباط كثيرون.

كانت مجموعتى إحدى خلايا جمال عبد الناصر. و كنا متصلين أيضا بعزيز المصرى الذى استفدنا منه كثيرا فى التعرف على حقيقة الأوضاع السياسية فى مصر، خاصة بالنسبة لمن كانوا حول الملك فاروق، وتأثرنا كثيرا بأفكاره. وكانت لديه مكتبة كبيرة جدا يعيرنا منها بعض كتبه لنقرأها ثم نجلس معه بعد ذلك لنتناقش فيها.

كان عزيز المصرى ينمى فينا التوجه لاغتيال الجنود الإنجليز والحلفاء، بحيث نجعل القوات الإنجليزية تشعر بقوة وخطورة المقاومة الشديدة لاحتلالها من جانبنا. ولقد آمنت بهذه النظرية وبأن الاغتيالات السياسية، بما فى ذلك اغتيال الحكام من رؤساء الوزراء المرتبطين بالملك، يمكن أن تكون لها نتيجة. وقد تأثر عبد الناصر نفسه بهذه النظرية لفترة قبل الثورة، ولكنه عدل عنها بسرعة قبل ١٩٥٢ واتجه إلى التنظيم العسكرى الواسع الأكثر فاعلية فى تغيير كل علاقات القوى السياسية فى مصر.

قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ وكنت على اتصال وثيق بقيادة الثورة قبل قيامها من خلال صلاح دسوقى وكمال رفعت وحسن التهامى. وكنت قد عينت مدرسا بكلية الطب بجامعة الإسكندرية بعد تخرجى فى كلية طب قصر العينى، وكان بجامعة الإسكندرية مجموعة من الأساتذة الكبار الذين ساندوا الثورة وأرسلوا أول برقية تأييد من جامعة مصرية، وأذكر منهم الدكتور رشوان فهمى والدكتور محمد غراب والدكتور أحمد السيد درويش.

كان عزيز المصرى بمثابة الأب الروحى للثورة، وبسبب هذا الوضع كان أصدقاؤه يتقدمون إليه بطلبات معظمها يخص بعض أفراد العائلة المالكة والطبقة التى كانت الثورة تقوم بتصفيتها لكى ينقل هذه الطلبات إلى قيادة الثورة، فقد كانت علاقاته وثيقة بالعائلة المالكة. وكان مجلس قيادة الثورة يخجل أن يرفض له طلبا، لكن المجلس بدأ

يشعر بأن هذه الطلبات لا تتماشى مع مبادئ الثورة. وفكر المجلس فى طريقة تبعده عن الذين راحوا يلتفون حوله لأغراض شخصية، وفى الوقت نفسه تكريمه بعد حياته الوطنية الحافلة. فتقرر تعيينه سفيرا فى بون فى ألمانيا الغربية. وعند إبلاغه بهذا القرار قال إننى لا أستطيع السفر للخارج إلا إذا كان معى هولاء الأربعة صلاح دسوقى وكمال رفعت وحسن التهامى ومراد غالب. وكان الرد عليه أننا لا نستطيع أن نستغنى عن العسكريين ولا مانع من الموافقة على أن يسافر معك المدنى الوحيد فيهم وهو مراد غالب. وقد أيدت هذه المجموعة نفسها سفرى معه على أساس أنه قد تقدم فى العمر ويحتاج إلى جواره أحد الذين يرتاح إليهم ويثق بهم.

ثلاث مهام فى موسكو

قبل موعد السفر فى ١٩٥٣ قطعنا علاقتنا الدبلوماسية مع ألمانيا ردا على تقديمها تعويضات لإسرائيل شملت معدات عسكرية كبيرة بضغط من الولايات المتحدة، فتغير القرار من تعيين عزيز المصرى سفيرا فى بون إلى موسكو. كنت فى ذلك الوقت قد انتدبت من الجامعة إلى وزارة الخارجية. ولم يحبذ الزملاء فى الخارجية هذا الوجود، ولهم الحق فى هذا؛ لأننى دكتور وطبيب، وقادم من الجامعة، وأُدرجت على درجة سكرتير ثانٍ. كان عمرى وقتها ٣١ سنة، ولم أكن راضيا عن تقييم مركزى فى السفارة كسكرتير ثانٍ حيث كنت مدرسا فى الجامعة. ولكن جمال عبد الناصر لم يوافقنى على ذلك وقال حتى لو عينوك ملحقا عليك أن تقبل. ثم قال لابد من ذهابك إلى موسكو مع الفريق عزيز المصرى. وحدد لى المعالم الرئيسية لمهمتنا هناك، وكلف حسن التهامى بالتجهيز لسفر عزيز المصرى ومهمته. حين كان جمال عبد الناصر يتكلم كان كلامه يقوم على أساس أنه هو زعيم هذه الثورة، أى أنه هو الذى يعطى التعليمات لنشاطات الدولة المختلفة. وشرح لى أن الهدف الأساسى لنا فى موسكو يتمثل فى المهام التالية:

- **أولا : استكشاف الاتحاد السوفيتى والنظام السوفيتى** فقد كنا مبهورين بالانتصارات السوفيتية الكبرى ضد النازية وظهور القوى الهائلة للاتحاد السوفيتى، وظهور عسكريين على مستوى عالمى مثل المرشالات جوكوف وكونييف وماليونوفسكى وجريتشكو وروكوسوفسكى وباجراميان.. الخ. وكنا نعتبر أن القوة العسكرية السوفيتية هى التى دحرت النازية وأنها لعبت الدور الأساسى فى تحقيق ذلك، ولم نكن ننكر بالطبع دور الغرب المهم والخطير، وكنا مهتمين باستكشاف كيفية تحقيقهم هذه الانتصارات والأيديولوجية القائمة وراءها.

● **ثانيا: استكشاف كيفية استفادتنا من الاتحاد السوفيتى فى** ظل صراع حيوى وخطير مع الغرب خصوصا مع بريطانيا العظمى، ومع وجود قواعد عسكرية فى منطقة قناة السويس، وأن نستكشف ما يمكن أن يساعدنا به الاتحاد السوفيتى، فى مواجهة سيطرة بريطانية عسكرية سياسية كاملة تتخللها مقاومة وطنية حتى من جانب الملك فاروق نفسه الذى لم يكن يحب الإنجليز ولا هم يحبونه.

كانت فى مصر أيضا أحزاب تلعب دورها ضد الاحتلال منها حزب الوفد الذى كان له دورا وطنيا هاما وإن لجأ إلى المهادنة مع القصر ومع الإنجليز. ولم يكن الوفد يهادن من أجل أن يكون أداة، لكنه كان يرمى إلى تنفيذ برنامجه. ومما لا شك فيه أن الوفد كان أقرب إلى القاعدة الشعبية من الأحزاب الكبيرة الأخرى ولديه تنظيم شعبى واسع النطاق، ويضم فى داخله جناحا يساريا وثوريا، كان من أبرز عناصره عزيز فهمى ومحمد مندور. ثم إنه كان يضم فى داخله كل التيارات المختلفة، منهم إقطاعيون ومنهم من له مبادئ تقارب إلى حد كبير مبادئ ثورة يوليو، لكن هذه المهادنة فى النهاية لم تكن فى صالح الوفد شعبيا.

● **ثالثا: حدد جمال عبد الناصر ثلاثة مجالات علينا أن نستكشفها فى الاتحاد السوفيتى** الأول: البترول، باعتبار أن الانجليز قد يقطعون عنا البترول من السويس والثانى: القطن، لاحتمال أن تفرض الشركات الأجنبية حظرا على شراء القطن المصرى فى أسواقه المختلفة، فهل يستطيع السوفيت شراء القطن وما هى الكمية التى يستطيعون استيرادها منه. والمجال الثالث : السلاح الذى كان أحد المطالب المهمة للثورة لعبد الناصر منذ عام ١٩٥٣. ويجب أن أذكر أن الرئيس عبد الناصر كان متشككا فى قبول الاتحاد السوفيتى إمدادنا بالسلاح، ومع ذلك كان من رأيه أن نجرب. والحقيقة أن تصوره لهذه النقطة كان صحيحا ولم يكن الموقف السوفيتى فى عام ١٩٥٣ متجاوبا معنا فى الحصول على السلاح .

وذهبنا إلى موسكو وقدمنا هذه الطلبات ورحبوا بها باستثناء موضوع السلاح الذى وجدنا منهم تسويفا فلم يقولوا نعم أو لا.

كان للفريق عزيز المصرى أفكاره الثورية التى لا تنسجم كلها مع دبلوماسية المنصب. وأذكر يوم ذهابه لتقديم أوراق اعتماده إلى اندريه جروميكو الذى كان قائما بأعمال وزير الخارجية وكان مازال شابا فى أوائل الأربعينيات. وأثناء اللقاء سأله جروميكو من هو كاتبك المفضل من الأدباء السوفيت. فرد عزيز المصرى قائلا: إن

الكاتب الذى أحترمه وأقدره هو دستويفسكي. ولم يكن يعرف أن كتبه محرمة فى الاتحاد السوفيتى، فسأله جروميكو: ألا ترى أنه لم يكن يكتب من أجل الشعب، فرد عليه قائلا: لا إنه كان يصور المتناقضات النفسية فى الشخصية الروسية أبلغ تصوير.

وامتعض جروميكو من هذا التشبيه ولم يواصل المناقشة، وقال على كل حال إذا كانت لكم أى طلبات تستطيعون أن تتكلموا فيها مع السفير السوفيتى فى القاهرة.

وفى اليوم التالى قابلت الفريق عزيز المصرى ووجدته متهيجا تماما بعد رد جروميكو عليه الذى اعتبره إهانة كبيرة له، وقال ما هى ضرورة وجودى إذا كانت طلباتنا تبحث مع السفير السوفيتى فى مصر.

والحقيقة إن عزيز المصرى كان قد تقدم فى السن ووصل إلى أواخر السبعينيات وبدأ يتأثر صحيا، لكن الواقع أيضا أن فكره العسكرى لم يكن يخلو من إبداعات، ومن ومضات الذكاء الحادة، ومن إطلاق خياله العسكرى فى قضايا ومشاكل بحيث يتناولها برؤية غير مألوفة.

ولقد وجدت نفسى بين عاملين متناقضين، إحداهما أننا كنا حوارييه المتأثرين بتاريخه الحافل والمتعاطفين قلبيا مع هذا الرجل الأسطورة، ومن ناحية أخرى كانت شخصيته العسكرية تغلب على دبلوماسية المنصب، وتغلب شخصيته الثورية فى التمسك بآرائه القاطعة التى لا تحتمل أى رؤى أخرى. وأذكر من ضمن مظاهر عبقريته العسكرية أنه هو الذى اختار منطقة العلمين كنقطة تقف فيها قوات الحلفاء لصد قوات روميل المتقدمة نحو مصر.

أما عن الناحية الأخرى المهمة بالنسبة لى شخصيا، فأننى كنت أتطلع للذهاب إلى الاتحاد السوفيتى لكى أكتشف بعينى ما كنت قرأت عنه فى مراجع عديدة، ومنها كتب الدكتور راشد البراوى عن الماركسية، ومشروع السنوات الخمس السوفيتية، وكتب أخرى كثيرة عن الاشتراكية مثل رأس المال لماركس وكتاباته المختلفة هو وإنجلز. وكان من أمتعها بالنسبة لى كتابه عن المسألة اليهودية، واعتبرت نفسى مسلحا بأسلحة لا بأس بها مع تقبلى الطيب للاتحاد السوفيتى. لكن أولى الصدمات التى صادفتنى حتى من قبل أن تطأ قدماى أرض الاتحاد السوفيتى كانت فى مطار هلسنكى فى فنلندا، فقد سافرنا إلى فنلندا، زوجتى وأنا، وكانت زوجتى لا تزال فتاة صغيرة اعتادت على السفر بالطائرات الضخمة الفخمة الأمريكية والتى تقدم خدمة عالية بذوق جميل من مضيفاتها داخل الطائرة، وكن يخترن من أجمل فتيات ذلك الوقت. وبينما نحن ننتظر

فى مطار هلسنكى، عاصمة فنلندا، نادوا علينا لكى نركب الطائرة السوفيتية، واتجهنا إليها لنجد طائرة صغيرة بمحركين فقط من نوع «بتش كرافت»، وأُخذت زوجتى من منظر الطائرة وسألتنى: هل هذه هى الطائرة التى سنركبها إلى موسكو؟ صعدنا إلى الطائرة التى كانت فى حالة من التقشف الشديد من الداخل ومضيفها رجل عسكرى من سلاح الطيران السوفيتى لا علاقة له بأمور الضيافة، ولم أُول هذه الأمور المظهرية بالنسبة لى أى اهتمام، فإننى كنت أتطلع لما وراء هذا. وصلت بنا الطائرة إلى لننجراد وجلسنا، زوجتى وأنا، فى صالة كبيرة أغلقت علينا وليس معنا أحد سوانا إلى أن استدعونا لركوب نفس الطائرة التى حملتنا إلى موسكو. والحقيقة أن جلوسنا فى صالة واسعة وليس معنا أحد قد جعل خواطرنا تتجه إلى عملية مقارنة بين المتناقضات، أى بين ما هو موجود فى الغرب وما صادفناه فى الاتحاد السوفيتى من خدمات ووسائل مواصلات ومظاهر اهتمام بالمسافر القادم إلى بلادهم. المهم أننا وصلنا إلى موسكو سالمين على متن الطائرة المتقشفة ذات المحركين.

بدأت مهمتنا فى موسكو على أساس توصيات الرئيس عبد الناصر ورعاية الفريق عزيز المصرى. ومن البداية صُدمت لما رأيته لأول وهلة، فقد أقمت فى فندق ممتاز لمدة عامين، لكننى شعرت بمراقبة لصيقة وشديدة جدا تكاد تكون ليل نهار لأى حركة من تحركاتى أنا أو زوجتى. لكننى أستطعت أن أتفهم ما يدور وأن أقول لنفسى إن هذا بلد يدافع عن كيانه ضد قوى عاتية من الغرب، ومن المعقول أن تكون فيه هذه الإجراءات. ثم بدأت أتأمل منظر الجموع السائرة فى الشوارع وهم قادمون عند الغروب من العمل تراهم أعدادا هائلة من البشر يرتدون معاطف بلون محدد أسود أو بنى داكن أو رمادى داكن أو كحلى، ويبدون مكدودين متعبين. والشارع كله يعكس قتامة شديدة وتساءلت بينى وبين نفسى هل هذه هى الاشتراكية وهل هذا هو المجتمع الاشتراكى ؟

كان السؤال محصلة ما رأيته منذ أن غادرت مطار هلسنكى، كذلك تأملاتى من مشاهداتى فى الفترة القصيرة الأولى من وجودى فى الاتحاد السوفيتى. وبعد بضعة أيام من وصولى ذهبت إلى البولشوى، وكان يعرض باليه جيزيل، وهى قصة حب جميلة بموسيقى رائعة وأداء راقص عالى المستوى يصل إلى حد الإعجاز الفنى وملابس غاية فى الكمال والروعة ألوانها جميلة. وتساءلت: هل هؤلاء الذين صنعوا كل هذا الإبداع هم أنفسهم السائرون فى الشارع بوجوه قاتمة مكدودة.

كل هذا جعلنى ألمس التناقضات العميقة جدا فى المجتمع السوفيتى، وأستخلص

من كل هذا صورة توضح لى كيف يسير النظام السوفيتى، وما هو الاتجاه الغالب فيه ومن الذى يحرك هذه الدولة بقوتها الجبارة وإلى أى ناحية تسير وما هو المجتمع التى تريد إقامته ؟

ولقد سبب لى هذا صدمة فكرية. فأنا ذاهب إلى الاتحاد السوفيتى ولدى قبول كبير لهذا البلد وللفكر الاشتراكى، وكنت متصلا بجماعات شيوعية فى مصر وقرأت الكثير عن أفكارهم وإنجازاتهم. وكنا نتناقش فى انتصارات الاتحاد السوفيتى ونجاحاته والاكتشافات العلمية الكبيرة التى حققها وها أنا الآن أقابل المجتمع وجها لوجه.

لقد وجدت إن الذى كان يحكم الاتحاد السوفيتى هو قرارات مؤتمر الحزب الشيوعى التاسع عشر فى عام ١٩٥٢ وأن ستالين لا يزال يسيطر تماما على كل شئ. كان ستالين قد مات فى مارس ١٩٥٣ أى قبل وصولى بأربعة أشهر، ولم تتح لى فرصة أن أشهد عصره ولكننى شاهدت الستالينية التى كانت مستمرة.

فما الذى تقوله قرارات هذا المؤتمر ؟

١- من الناحية العملية أصبح هناك انقسام فى السوق العالمية : سوق اشتراكية وسوق أخرى رأسمالية، والسوق الرأسمالية حدث فيها انكماش كبير لظهور السوق الاشتراكية، فلابد أن يحدث تنافس شرس بين الدول الرأسمالية على سوق عالمية شهدت مثل هذا الانكماش.

٢- أن الولايات المتحدة خرجت من الحرب العالمية الثانية كأعظم قوة رأسمالية تتزعم المعسكر الرأسمالى وهدفها الأساسى واستراتيجيتها هى إحلال السيطرة الأمريكية محل النظام الاستعمارى القديم، وعلى رأسه بريطانيا العظمى وفرنسا، أى أن الولايات المتحدة تريد أن ترث الامبراطوريتين الإنجليزية والفرنسية.

هذا هو الأساس الذى أصبح السوفيت يفسرون به كل شئ فى العلاقات الدولية. وفى إطار فكرهم السياسى هذا، صنفوا الثورة المصرية وعبد الناصر أيضا على أنها ثورة أمريكية، وأن الولايات المتحدة تريد الآن تغيير الأنظمة كلها فى هذا العالم الخاضع للاستعمار القديم وتجعله خاضعا لها. وعلى هذا الأساس أيضا رأوا أن الولايات المتحدة لم تساعد الملك فاروق والنظام الملكى ضد ثورة ١٩٥٢ وأنها كانت على صلة بثورة يوليو وقيادتها. وعندما اشتعل الخلاف بين الرئيس محمد نجيب وبين الرئيس عبد الناصر ومجموعته، فقد فسر السوفيت هذا الخلاف على أنه خلاف بريطانى أمريكى، وأن عبد الناصر يمثل الأمريكان ضد محمد نجيب والأحزاب التى كانت قائمة قبل الثورة والمطالبة بعودة الجيش إلى ثكناته على أنها بريطانية.

وفى ظروف هذا الخلاف، كنت قد حضرت إلى القاهرة عام ١٩٥٤ مرافقا لعزيز المصرى، وذهبنا إلى مجلس قيادة الثورة. ودخل عزيز المصرى إلى مكتب محمد نجيب لمقابلته، وانتظرته خارج المكتب. وعندما انتهت المقابلة وخرج عزيز المصرى قال لى: نجيب لم يتكلم معى بصراحة والتزم التحفظ بالنسبة لخلافه مع عبد الناصر، وأحسست بأنه كان متخوفا من أن نكون نحن عملاء لعبد الناصر.

فى هذه الفترة ظهرت مقالات عديدة فى الصحف السوفيتية كلها تلتقط مظاهر الحياة فى مصر والإعلانات عن المنتجات الأمريكية مثل كوكاكولا، وتفسرها كأنها مظهر للانضمام إلى الولايات المتحدة، وكان هذا هو نفس موقف الشيوعيين المصريين. وفى الحقيقة فإننى لم أتصور مطلقا أن عبد الناصر الرجل الوطنى - وتاريخه معروف لنا جميعا - يمكن أن يكون عميلا للولايات المتحدة، وأبلغت هذا الرأى للأصدقاء السوفيت قائلا: لا أتصور عبد الناصر إلا أن يكون رجلا وطنيا وأن علاقتنا بالولايات المتحدة كانت طيبة فى مراحل معينة لوجود قواعد بريطانية فى بلادنا وهو يناور للتخلص منها ويستخدم الأمريكيين للضغط على البريطانيين.

ولم يكن عبد الناصر من ناحيته يؤمن بوجود هذا الخلاف الأساسى بين الولايات المتحدة وبريطانيا، كان يردد باستمرار أننى لا أشعر بهذا الخلاف وأن الأمريكيين مطلعون بالتفصيل على ما يقوله لنا الانجليز. وكانت المحادثات دائرة بين مصر وبريطانيا للوصول إلى اتفاقية الجلاء، وكان من المعقول أن يلجأ عبد الناصر إلى الولايات المتحدة وسفيرها «كافرى» لكى يذلل بعض العقبات والمواقف المتعنتة للمفاوض البريطانى «أنتونى نانج» وزير الدولة للشئون الخارجية الذى يعتبر من أكثر البريطانيين اعتدالا ومن المعجبين بجمال عبد الناصر، وقد عرفته بعد ذلك عن قرب ولمست فيه حنينه لمصر. ووقعت اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤ وتفاصيلها معروفة، وهاجمها الاتحاد السوفيتى كما هاجمها الشيوعيون المصريون ومعهم الكثير من المثقفين والوطنيين. ولمست بنفسى تغيير موقف السوفيت بعد ذلك عندما بدأ عبد الناصر معركة الأحلاف العسكرية .

فقد كانت تأكيدا عمليا من الرئيس عبد الناصر على استقلالية الثورة واستقلالية مصر. وهنا أنوه إلى أن جميع طبقات الشعب وقفت مع عبد الناصر ضد محاولات إدخال مصر فى أحلاف مرة ثانية بحماس بالغ.

ووقعت أحداث مهمة داخلية فى الاتحاد السوفيتى، لكنها كانت بعيدة عن التأثير على إطار العلاقات السوفيتية مع مصر، ويهمنى هنا أن أشير إليها من هذه الزاوية. فقد دارت معركة الصراع على السلطة بعد وفاة ستالين عام ١٩٥٣، وقد حضرت بعض فصول هذه المعركة بعد ذهابى إلى موسكو عند تعيين عزيز باشا المصرى سفيرا فى الاتحاد السوفيتى. وتولى «مالينكوف» الذى كان مدير مكتب ستالين منصب السكرتير الأول للحزب الشيوعى ورئيس الوزراء، وفى سبتمبر ١٩٥٣ أجبر مالينكوف على أن يترك منصب السكرتير الأول للحزب، واتفق على أن يتولى خروشوف هذا المنصب. وفى هذه الأثناء ألقى القبض على «بيريا» وزير الداخلية. وحدث شئ مهم جدا فى فبراير ١٩٥٤ أثناء اجتماع لمجلس السوفيت الأعلى، وكان مالينكوف لا يزال رئيسا للوزراء، فقد وجهت الدعوة لأعضاء السلك الدبلوماسى، وتحدث مالينكوف فى الاجتماع وأعلن خبرا مهما بالنسبة للشعب السوفيتى وللعلاقات الدولية، وهو أن الولايات المتحدة لم تعد محتكرة للقنبلة الهيدروجينية، وأن الاتحاد السوفيتى أصبح يملكها الآن. وصفق النواب وقوفا. وكان للإعلان وقع كالصاعقة على الولايات المتحدة حيث إنه يعنى أنها لم تعد تشكل تهديدا نوويا للاتحاد السوفيتى.

واستمر الصراع داخل القيادة السوفيتية إلى أن عقد فى فبراير عام ١٩٥٦ اجتماع خطير للمؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى. وترجع أهميته إلى أنه شهد عملية تصفية الستالينية. وقد سبق المؤتمر تغيير فى الشخصيات التى كانت حول ستالين، إذ تم إعفاء مالينكوف من رئاسة الوزراء، وعين «بولجانين» بدلا منه، كما عين مالينكوف نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للطاقة.

المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى فى فبراير ١٩٥٦

يعتبر المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى، نقطة تحول بارزة فى تاريخ الاتحاد السوفيتى، واشتهر فى التاريخ بأنه المؤتمر الذى فضح أعمال ستالين وأدى إلى إزالة الستالينية كفكر وممارسة، وفضح الجرائم الذى ارتكبها ستالين وكيف أن «بيريا» استطاع أن يسيطر عليه وأنه أصيب فى آخر أيامه «بالبارانويا» وبدأ يتشكك فى أقرب الناس إليه حتى أنه اتهم مجموعة من أطباء الكرملين بالخيانة والتآمر.

كان خروشوف قد وطد سلطاته قبل المؤتمر وأزاح كل من كان يعمل مع ستالين، وعارض الخط السياسى لخروشوف فى المؤتمر العشرين وعلى رأسهم مالينكوف حيث

أنزله إلى درجة نائب رئيس الوزراء ووزير الطاقة بعد أن كان يجمع بين رئاسة الحكومة والسكرتارية العامة للحزب.

كان فضح الستالينية والقضاء عليها يعتبر اتجاها مهما بالنسبة لإقامة مجتمع جديد أكثر انفتاحا وأقل قهرا ووحشية وخطوة متقدمة لإضفاء جو من الانفتاح والديمقراطية على نظام عرف فى العالم بأنه نظام لا يمت بصلة للإنسانية.

وفعلا استقبل الشعب السوفيتى المؤتمر بحماس شديد وخصوصا عندما اتجه إلى إعطاء هامش من الحريات واهتم برفع مستوى معيشة الشعب ووعد بمزيد من السلع الاستهلاكية، إلى درجة أنه قدم عرضا لملابس السيدات والرجال كان فيه بعض العروض على نحو لم يكن مألوفا من قبل.

ولكن المهم بالنسبة لنا نحن شعوب العالم الثالث، أن الاتحاد السوفيتى أعلن أنه يقف فى صف هذه الشعوب وأنه سيقدم كافة المساعدات لها، وأنه مع حركات تحرير الشعوب وسيقف أمام الاستعمار والامبريالية حتى القضاء عليهما.

كانت هذه السياسة خطوة بارعة للقفز فوق طوق القواعد العسكرية الذى أقامته الولايات المتحدة، بما يعرف بسياسة الاحتواء، الذى يعتبر «جورج كينان» السفير الأمريكى السابق فى موسكو مهندسها. وقد صرح «كينان» وهو فى برلين بأن السياسة الوحيدة التى يفهمها ستالين هى سياسة الاحتواء. وأمر ستالين إثر هذا التصريح بأن يظل «كينان» فى برلين الغربية ولا يعود سفيرا فى موسكو.

وقد مهد خروشوف لهذه السياسة قبل المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى وذلك بزيارته هو و«بولجانين» للهند عام ١٩٥٥ وكذلك ليوجوسلافيا فى نفس العام. وأعيد الاعتبار «لتيتو» ولكن «تيتو» تمسك باستقلاليته، وإن عمل على تحسين علاقته بالاتحاد السوفيتى بشكل سريع وملحوظ خصوصا بالنسبة للتبادل التجارى.

ولكن لم تكن نتيجة المؤتمر العشرين إيجابية على طول الخط، فقد طرحت على الملأ كيف كان يعيش الشعب السوفيتى الآلام البشعة والقهر والتنكيل والنفى والسجن والتعرض للدخول لمستشفيات الأمراض العقلية ...الخ.

كما طُرحت قضية الديمقراطية داخل الحزب والممارسة غير الإنسانية وأسبابها ودوافعها ومسئولية الحزب فى كل ما حدث، وكيف أفرز الحزب هذه الديكتاتورية البشعة وهو الحزب القائد لجميع الأحزاب الشيوعية فى العالم.

كان «تولياتي» زعيم الحزب الشيوعي الإيطالي أكثر المنتقدين للحزب الشيوعي السوفيتي، وأوضح أن القضية هي قضية الديمقراطية في داخل الحزب وفي الحركة الشيوعية نفسها، وأن الديكتاتورية وليدة لنظام حزبي مريض.

ومن ناحية أخرى تعرض خروشوف لهجوم من أقصى اليسار، فوصفته الصين «بالتحريفية» ومناهضة الماركسية، ودافعت عن ستالين خصوصا بعد أن نقل خروشوف جثمان ستالين الذي كان يرقد محنطا بجوار «لينين» من الضريح الخاص بهما في الميدان الأحمر. وكان ذلك بعد المؤتمر الثاني والعشرين في أكتوبر ١٩٦١.

وبدأت معركة خفية بين الصين والاتحاد السوفيتي تحولت إلى العلن في ديسمبر ١٩٥٦، ثم إلى حرب مسلحة على نهر « سوري» بين سيبيريا والصين. وتخلل ذلك معارك ايديولوجية مثل وصف ماوتسي تونج الولايات المتحدة بأنها نمر من ورق فيرد عليه خروشوف لكنه له أنياب ذرية.

وقد حضر خروشوف وبولجانين مؤتمر جنيف في يوليو ١٩٥٥ ممثلين عن الاتحاد السوفيتي الذي بحث مشكلة فيتنام ومشاكل أخرى تمس العلاقات الدولية. وحضرت من جانبي هذا المؤتمر كمراقب.

وشهد عام ١٩٥٦ انفتاح الاتحاد السوفيتي على دول العالم الثالث واستكمال تصفية الستالينية، وزيارة تيتو للاتحاد السوفيتي، وزيارة بولجانين وخروشوف للهند، وزيارة «نهرو» للاتحاد السوفيتي ودخل الاتحاد السوفيتي مرحلة جديدة من الصراع بينه وبين المعسكر الرأسمالي. وعندما وقع العدوان الثلاثي على مصر في أواخر أكتوبر ١٩٥٦ كان موقف السوفيت واضحا في تأييد مصر.

وأثناء هذا العدوان قابل خروشوف سفير الهند في موسكو ك.ب.س مينون، وقال له نحن نستطيع أن نغرق الأسطولين الفرنسي والبريطاني في البحر الأبيض دون أن نخسر جنديا واحدا. وجاء السفير الهندي لمقابلة السفير المصري محمد عوض القوني وأبلغه بما سمعه، وقوبل هذا الكلام بالشك حتى في مصر.

وعندما زار الرئيس عبد الناصر موسكو بعد العدوان الثلاثي لحضور احتفالات مايو ١٩٥٨، وكان معه أكرم الحوراني، وصلاح البيطار، ممثلين للإقليم الشمالي في دولة الوحدة حرص السوفيت على دعوتنا إلى مشاهدة فيلم تسجيلي يصور استخدام طائرة تي يو ١٦، وهي قاذفة قنابل ثقيلة بمحركين نفاثين، وهي تقذف قنابل شديدة

الانفجار من علي بعد يتراوح بين ٣٠ ـ ٥٠ كيلو مترا. وكان الهدف سفينة حربية في البحر هاجمتها هذه الطائرات بالقنابل.

ثم ظهرت نفس الطائرة وهي مسلحة بالقذائف النووية فمسحت السفينة من الوجود. لم يعلقوا بشيء سوى أن يتركونا نستوعب ما يعرضه الفيلم، وأرادوا بهذا أن يبرهنوا على أن السوفيت قادرون على تنفيذ ما قالوه للسفير الهندي، وتشككنا نحن في ذلك.

وعلى أية حال فإن الاتحاد السوفيتي وجه في الخامس من نوفمبر ١٩٥٦ أثناء العدوان على مصر، الانذار السوفيتي الشهير بوقف هذا العدوان فورا. وقد كثر الكلام حول الانذار السوفيتي، وكنت وقتئذ موجودا في موسكو وجاءني السفير زايتسيف، مدير إدارة الشرق الأوسط، وذلك أثناء حفل أقيم للملك محمد ظافر شاه ملك أفغانستان في ذلك الوقت، وقال لي : غالب سوف نتدخل. وكان هذا الكلام قبل الإنذار السوفيتي بساعات وكانت هناك تساؤلات كثيرة حول لماذا انتظر الاتحاد السوفيتي ولم يوجه إنذاره من البداية؟ وهل تصرف عندما وجد الولايات المتحدة تعارض العدوان الثلاثي وأنها مصممة على وقف العدوان؟ وأنهم تدخلوا عندما ضمنوا أنه لن تكون هناك مواجهة مع الولايات المتحدة ؟ وهل كانوا يريدون وقف العدوان والمحافظة على الثورة المصرية؟ أو تأكيد مصداقية الاتحاد السوفيتي في وقوفه بجانب العالم الثالث؟ وتصادف أن كان الرئيس السوري شكري القوتلي في موسكو أثناء العدوان على مصر، وقابل خروشوف واجتمع مع المارشال جوكوف الذي كان وزيرا للدفاع، وطلب منه مساعدة مصر فورا ووقف هذا العدوان، وفتح جوكوف الخرائط أمامه وقال له كيف أصل إلى نجدة مصر؟ فرد القوتلي «وهل تريد مني أنا شكري القوتلي أن أقول للمارشال جوكوف كيف يصل لمساعدة مصر؟ إذا كنتم تريدون فستجدون الوسيلة لإيصال مساعداتكم».

وعلى كل حال جاء الإنذار السوفيتي المعروف في ١٩٥٦/١١/٥، وقال لي خروشوف فيما بعد أن جي موليه رئيس وزراء فرنسا عندما سمع هذا الانذار جرى على التليفون بملابسه الداخلية ليتأكد من صحة الخبر. ولما ضحكت قال لي لدينا رجالنا في مجلس الوزراء الفرنسي، وهم شهود عيان على ذلك.

والخلاصة، أن هناك من كان يؤكد أن الإنذار السوفيتي ستترتب عليه إجراءات عملية، وهناك من يقول إن الإنذار جاء بعد موقف أمريكا، وكل من الرأيين له وجهة نظره وأسبابه.

والحقيقة أن الولايات المتحدة وايزنهاور شخصيا، ووزير خارجيته دالاس، كانوا مسئولين مسئولية مباشرة عن وقف عدوان ٥٦، وانصياع الإنجليز والفرنسيين للضغط الأمريكى، خصوصا نتيجة التهديد بوقف البترول عنهم، إذا لم يوقفوا الحرب. وانسحبت كل من فرنسا وانجلترا من مصر فى ديسمبر ١٩٥٦.

أما بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل فقد رفض الانصياع للإنذار الأمريكى إلى أن أذعن فى مارس ١٩٥٧، وكان الضغط اليهودى فى أمريكا شديدا على ايزنهاور، وعلى الكونجرس الذى كانت فيه أغلبية جمهورية، مما اضطر ايزنهاور لمخاطبة الشعب الأمريكى مباشرة، وأعلن أنه سيوقف جميع أنواع المساعدات الأمريكية لإسرائيل، وسيسعى إلى إيقاف جميع المساعدات الأخرى من أية جهة، ووقف إعفائها من الضرائب وكذلك أية إمدادات عسكرية لإسرائيل مما حدا ببن جوريون لإعلان انسحابه.

المهم خرجت الثورة بعد العدوان الثلاثى وهى قوية متمتعة بشعبية ضخمة جدا ووقف معها الشارع العربى بأكمله، والعالم الثالث كله، وبالتالى أصبحت الثورة تحظى بدعم شعبى هائل ودعم من المعسكر الاشتراكى كله وكثير من التجمعات الشعبية فى الغرب.

لكن الغرب كان لا يزال له تحفظاته على الثورة. وبدأت الولايات المتحدة تتحدث عن فراغ فى المنطقة وعرضت مبدأ ايزنهاور لملء هذا الفراغ لكن الواقع أنها قدمت هذا المبدأ لتواجه تزايد النفوذ والمكانة السوفيتية فى المنطقة كلها.

لا ريب أن الاتحاد السوفيتى انتابه الكثير من الشكوك حول ما سيكون عليه الرد المصرى على مبدأ ايزنهاور. فقد دارت مناقشات كثيرة فى مصر حول قبول أو رفض مبدأ ايزنهاور، وكان السوفيت يأملون فى أن يأتى الموقف النهائى قاطعا فى الرفض وحدث هذا فعلا.

زيارة الرئيس لموسكو

جاءت زيارة الرئيس عبد الناصر للاتحاد السوفيتى فى أواخر أبريل عام ١٩٥٨ بعد الوحدة بين مصر وسوريا، وكنت وقتها مديرا لمكتب الرئيس للشئون السياسية وكانت زيارة لها أهميتها الكبيرة. ولم أكن قد حضرت الجلسة الأولى لمباحثاته مع خروشوف وعندما خرج عبد الناصر من هذه الجلسة بعد انتهائها وجدته فى غاية الاستياء والعصبية، وأخذ يردد قوله: «إنى لابد أن أغادر الاتحاد السوفيتى فورا، وأنا لا أقبل ما

قيل فى هذه الجلسة فقد تكلم فيها خروشوف وقال إن سياسة ركوب الحصان الأمريكى مرة والحصان السوفيتى مرة أخرى ليست فى مصلحة الشعب المصرى ولا فى مصلحتك، بل هذه ليست سياسة».

وانتظرت حتى انتهى الرئيس عبد الناصر من كلامه وتكلمت معه على انفراد وتناقشنا فى رد الفعل العالمى إذا ما انهينا زيارتنا للاتحاد السوفيتى فجأة بعد المقابلة الأولى. وأن الطريقة المثلى أن نبادر نحن بالهجوم فى الجلسة التالية، وضربت مثلا على ذلك بأن نقول إن الذين يتصورون أن سياستنا هى مجرد اللعب على الحبلين لا يدركون حقيقة سياستنا. فنحن لنا سياسة مبدئية لا نحيد عنها وهى التمسك باستقلالنا التام، وأن يتولى سيادته شرح هذه السياسة. ثم قلت « هل تمانع سيادتك فى حضورى الجلسة التالية؟ فقال لى: «ستحضر الجلسات من هنا ورايح وستجلس بجانب المترجم على رأس المائدة بجوارى».

وفى الجلسة الثانية افتتحها الرئيس عبد الناصر بالكلام الذى اتفقنا عليه. ثم بدأ فى عرض تحليلى رائع عن التطورات التى حدثت بعد العدوان على مصر ونظرية الفراغ التى ابتدعها ايزنهاور- دالاس. وتحدث مطولا عن مبدأ ايزنهاور ورفض مصر الانضمام إليه، وكيف أن أمريكا ذهبت إلى الملك سعود ملك المملكة العربية السعودية، وأرادت أن تخلق منه زعيما سياسيا بديلا عن مصر. وتحدث بالتفصيل عن معركة الأحلاف وختمها بقوله: إن لمصر سياستها الواضحة وهى عدم الانحياز ونصرة حركات تحرير الشعوب والمحافظة على استقلالها بكافة الوسائل وعدم التفريط فى سيطرتها على قرارها.

وحدث أثناء بداية الجلسة وهجوم الرئيس على الذين يَتَقولون على مصر باتباع سياسة اللعب على الحبلين أن استنكر المارشال فوروشيلوف - وكان رئيسا للاتحاد السوفيتى - موقف من يقول ذلك، والتفت إليه خروشوف وقال له من قال لك أن تقول مثل هذا الكلام ؟ ومن عينك محاميا لعبد الناصر؟ وسكت فوروشيلوف ولم ينطق بكلمة.

ثم قام الرئيس بزيارة أماكن عديدة فى الاتحاد السوفيتى وبعض جمهورياته، وأخذ يردد فى كل مناسبة أن سياسة مصر هى عدم الانحياز مما جعل بعض المعلقين يستنتجون أن هذا الكلام موجه إلى خروشوف ومؤكدا لشخصية جمال عبد الناصر وشدة حساسيته فى المحافظة على مكانته واستقلاليته.

انتهت مهمتى فى موسكو فى المرحلة الأولى منها فى فبراير ١٩٥٧ وعدت إلى



الرئيس جمال عبدالناصر يوقع على صورته للملحق الجوى فى السفارة

مجموعة من الأصدقاء جمعت بيننا المحبة منذ الصغر فالتقينا فى المدارس الابتدائية والثانوية، وكنا متجاورين فى السكن، نسكن جميعا فى حى مصر الجديدة. ولم تقتصر علاقاتنا على كونها مجرد صداقات، لكن أصبحت معيشة ممتدة خلقت فيما بيننا ثقة متبادلة. وكانت هذه المجموعة تتكون من صلاح دسوقى وكمال رفعت وحسن التهامى ومراد غالب.

كان معنا أيضا آخرون لكن البعض ابتعد وبقينا نحن الأربعة، يجمع بيننا اتصال وثيق. وهؤلاء الثلاثة الآخرون كانوا ضمن خلية سرية تحت رعاية الفريق عزيز باشا المصرى وهم الذين عرفونى عليه وضمونى إلى هذه الخلية وأصبحنا نحن الأربعة من حوارييه.

كانت بداية نشأتى فى حى مصر الجديدة منذ ١٩٢٤، ولم أعِ شيئا قبل هذا

التام، فى اتخاذ القرار السياسى. وكانت الشللية والاتجاهات الحزبية المختلفة تتصارع حتى فى الشارع السورى، ولكن بدون شك كان الجميع ماعدا الشيوعيين واليمين السورى أيضا ممثلا فى الشركة الخماسية، وبعض الوزراء السابقين وبعض رجال الأعمال مرحبين بهذه الوحدة، وكان واضحا تماما أن الاتحاد السوفيتى لم يكن راضيا عنها.

من هذا أقول إن المناخ السياسى المواكب لزيارة الرئيس عبد الناصر يفسر لنا الطريقة التى تناول بها خروشوف المقابلة الأولى مع الرئيس عبد الناصر.

العمل فى الرئاسة

فى الفترة التى عملت فيها فى الرئاسة، وكنت عضوا فى اللجنة المختصة بمتابعة ومناقشة القضايا المهمة، لم يكن الرئيس عبد الناصر يجتمع بهذه اللجنة بشكل منتظم لمناقشة جماعية مع أعضائها، ولكن كان الأستاذان سامى شرف ومنير حافظ يعرضان عليه محاضر الاجتماعات بكل تفاصيلها. وكانا حريصين على كتابة اسم كل واحد منا مع أقواله بحيث يعرف الرئيس رأى كل من تكلم ومن كان صاحب الرأى وما هى رؤيته. وهنا نأتى لصفة مهمة من صفات عبد الناصر وهى القراءة. فكان يقرأ كل كلمة ويكتب بخط يده تعليقه وتأشيراته والخطوات اللازمة للتنفيذ. وفى مقابلة مع الرئيس حافظ الأسد فى دمشق حكى أن السادات كان يقول إن الذى تسبب فى وفاة عبد الناصر هو كثرة قراءته. فعلقت على ذلك بقولى، كذلك فإن السبب فى اغتيال السادات كان عدم قراءته، وضحك الرئيس الأسد من هذا التعليق وقال: أيوه.. أيوه صحيح.

عموما كان التعامل الأساسى مع عبد الناصر من خلال التقارير، وإذا أراد أن يناقش قضية، يكون أحدنا قد أثارها، ورأى مناقشته كان يطلبه وكان هذا يحدث من وقت لآخر.

كذلك كانت اللجنة تجتمع بشكل دورى مع لجنة أخرى من الخارجية برئاسة وكيل الوزارة وكان هو الوكيل الوحيد، ويطرح فيها تفاصيل علاقاتنا الخارجية وموقف مصر من الدول المختلفة. وفى كثير من الأحيان يحدث توافق فى وجهات النظر ولكن فى بعض القضايا كان رأى اللجنة هو الذى يؤخذ به وهو الذى ينفذ.

كانت توجد بجانب لجنة الرئاسة مكاتب أخرى مثل مكتب الشئون العربية وكان يرأسه كمال رفعت؛ ومكتب الشئون الإفريقية وكان يرأسه الأستاذ محمد فايق. وكانت

هذه المكاتب فى منتهى النشاط. فمكتب الشئون العربية مثلا كان على اتصال وثيق بجميع التنظيمات والأحزاب السياسية فى الوطن العربى كله، بل كان على معرفة تامة بالحركات الثورية والتخطيط السرى لهذه التنظيمات للاستيلاء على الحكم فى بلادهم. وكانت تدور مناقشات واسعة وصريحة عن التوجهات المستقبلية فى الوطن العربى، لكل هذه التنظيمات. وعلى سبيل المثال كان يعرف عن ثورة العراق ١٩٥٨ قبل وقوعها والتغييرات فى الأردن وطرد جلوب باشا الإنجليزى الذى كان يعمل قائدا للجيش الأردنى وكان يدعى «أبوحَنَكْ».

أما مكتب الشئون الإفريقية فكان على اتصال تام بالمكاتب الإفريقية فى مصر. ومعظم رؤساء هذه المكاتب أصبحوا رؤساء جمهوريات فى بلادهم وتزعموا حركة التحرير فى إفريقيا كلها ومنهم «كاوندا» رئيس زامبيا الأسبق. وكان يشرف على هذا المكتب الأستاذ محمد فائق وكان معروفا ومشهورا فى إفريقيا كلها، ولا يزال اسمه يتردد حتى الآن فى ربوعها وتوجه له الدعوات لزيارة هذه الدول ويعتبر صديقا شخصيا لنلسون مانديلا.

كانت الرئاسة تعمل كخلية نحل وكانت منظمة تنظيما محكما. ولاشك أننا، ونحن فى الرئاسة، كانت تتدفق علينا المعلومات دون كبير عناء لأن القاهرة كانت مركز إشعاع لجميع التنظيمات القومية العربية فى الوطن العربى كله، ويأتون إليها طواعية لمساعدتها ومدها بكافة المعلومات والتحاليل السياسية والتشاور فيما يجب عمله فى كل بلد عربى.

أما بالنسبة لإفريقيا فكانت مصر مركزا لحركة تحرير إفريقيا كلها. وكان عبد الناصر زعيم هذه الحركة ومنه يستمد قادتها العون والتوجيه ويكفى أن فى معظم عواصم إفريقيا شوارع تحمل اسمه.

كان الرئيس عبد الناصر يهتم اهتماما بالغا بسماع جميع الإذاعات المهمة من أنحاء العالم. وكثيرا ما كان يفاجئنا بأخبار سمعها أو أحداث وقعت قبل أن نعلم بحدوثها. وكان دائما جاهزا بالتعليق عليها وبالخطوات اللازمة للتعامل معها، بل وفى بعض الأحيان بالبيان اللازم لإظهار موقفنا منها.

لم تقتصر المعلومات التى يتلقاها الرئيس على أجهزة الرئاسة المختلفة بل كانت له اتصالاته ومصادره الخاصة التى تتعامل معه مباشرة، وهم زعماء الحركات السياسة فى العالم العربى كله. وكانوا يفدون لمقابلته شخصيا من خلال السيد سامى شرف أو من خلال المكاتب المتخصصة فى الرياسة أو من خلال المخابرات العامة. وكنا لا نعلم

شيئا عن الحوارات التى تدور فى مثل هذه المقابلات ولكنها تحفظ فى مكتب السيد سامى شرف وأحيانا يحتفظ بها الرئيس بنفسه.

كذلك كان الأستاذ هيكل أحد المصادر المهمة للرئيس، وكانت هذه المصادر متعددة الجنسيات وإن غلب عليها الطابع الغربى والأمريكى، وكثيرا ما تأتى شخصيات مهمة عالمية للأستاذ هيكل لترتيب مقابلات مع الرئيس شخصيا، وكان الأستاذ هيكل على علم تام بما يدور فى هذه المقابلات. لم تقتصر علاقة الأستاذ هيكل بالرئيس عبد الناصر عند هذا الحد ونظرا لأهميتها وتأثيرها العميق فى طريقة الحكم فسأفرد لها مكانا خاصا.

والخلاصة، أن الرئاسة كانت لها مؤسساتها ومكاتبها النوعية ودوائر اختصاص محددة لكل منها، وكلها تصب فى مكتب الرئيس للمعلومات بإشراف سامى شرف ماعدا ما يخص الأستاذ هيكل الذى كان يتعامل مع الرئيس مباشرة.

علاقتى بالمشير عبد الحكيم عامر

أذكر أن علاقتى مع المشير بعد أن عدت من موسكو أول مرة وعُينت مديرا لمكتب الرئيس للشئون السياسية لم تكن تتعدى الحدود الرسمية مجرد تحية واحترام حتى أننا لم نتبادل أى حديث. فقد كنت محسوبا على الرئيس عبد الناصر والبعض كان يصنفنى بأننى من أتباع على صبرى. والحقيقة أن علاقتى مع على صبرى كانت علاقة مميزة، وكنا نتزاور عائليا، وكان صلاح دسوقى على علاقة وثيقة مع على صبرى وهو العامل الأساسى فى تعرفى عليه عن قرب وزيادة الارتباط به.

ثم تعرفت على أخيه حسين ذو الفقار صبرى وأعجبت بشخصيته الجادة وثقافته وقراءاته الواسعة، وتوثقت علاقتى به، فقد كان موضوعيا فى مناقشاته، واضحا فى فكره، مع ميل إلى المواقف القاطعة. ومما جذبنى إليه محاولته السابقة لتهريب عزيز المصرى بالطائرة الحربية هو وعبد المنعم عبد الرءوف ولم تنجح المحاولة، وهبط هبوطا اضطراريا قرب قليوب. وكان الغرض من تهريب عزيز المصرى هو مقابلة الألمان فى العلمين.

وكما ذكرت من قبل كانت هناك لجنة تجتمع يوميا فى الرئاسة يرأسها حسين ذو الفقار صبرى وكان من أعضائها السيد أمين هويدى والدكتور عبد القادر حاتم والأستاذ سامى شرف والاستاذ منير حافظ وكنت عضوا فيها. وكانت تبحث القضايا

الرئيسية التى تهم مصر وكذلك المشاكل اليومية. وكنا جميعا يملؤنا الحماس والرغبة الأكيدة فى حل هذه القضايا والمشاكل.

ومن أهم هذه القضايا التى تناولناها، قضية السودان. وجمعنا كل من عمل فى السودان من خبراء فى الرى إلى خبراء فى الزراعة إلى متخصصين فى المياه، وخبراء عسكريين وسياسيين، والذين لهم علاقات وثيقة بالأحزاب السودانية.. الخ. وخرجنا بالنتائج التالية :

١ ـ أن علاقتنا بالسودان علاقة حيوية مصيرية تمس الأمن القومى المصرى فى صميمه وأننا لا نملك ترف التلاعب بها.

٢ ـ أنه لابد من ترك السودانيين يقررون مصيرهم بأنفسهم.

٣ ـ أنه لا يُعقل أن يتحرر السودان لكى يذوب فى وحدة مع مصر، عليه أن يحدد هو علاقته بنا وهويته الخاصة بعد استقلاله.

٤ ـ وأخيرا، وهذا هو أهم بند، أن تكون علاقتنا مع السودان علاقة استراتيجية مستمرة ومتصاعدة بصرف النظر عن نظام الحكم فيه !!

أما القضية المهمة الأخرى فكانت مناقشة العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ والقصور الذى حدث فى الجبهة الإسرائيلية.

وكما حدث بالنسبة للسودان قمنا بحوار مع الخبراء العسكريين من كافة الأسلحة وبحثنا المعارك العسكرية التى دارت فى سيناء وكانت أهم النتائج التى توصلنا إليها الآتى:

١ ـ أن الحرب القادمة مع إسرائيل ستكون حربا لسلاح الطيران فهو القوة الحاسمة ومن يسيطر على الجو يسيطر على مسيرة الحرب.

٢ ـ أن الأسلحة الأخرى سيكون الغرض منها السيطرة الميدانية واحتلال الأرض تحت الغطاء الجوى.

وقد ووفق على هذه الرؤية، ولكن للأسف جاءت حرب ٦٧ ولم ننفذ منها شىء.

كانت مناقشة هذه القضايا تتم فى الرئاسة ويجرى الاستعانة فيها بخبراء عسكريين لتكون المناقشة غنية وموضوعية. وكان مانتج عنها من توصيات إحدى المشاكل التى أثارت غضب المشير، وقد علق عليها تعليقا ساخرا وعنيفا وقال « من هم هؤلاء الذين يحكمون على سير المعارك التى قاتل فيها الجيش المصرى بشرف وبسالة؟!

وإذا كان الأمر هو مناقشة مستقبل العمليات العسكرية مع إسرائيل فالقوات المسلحة هى الجهة المؤهلة بذلك وليست الرياسة ولجنتها!!» وللحق فإن المشير والقوات المسلحة هى جهة الاختصاص الرئيسية فى مناقشة هذه القضية ولكن أى جهة أخرى لها الحق أيضا، لكن ما كانت تخشاه الرئاسة هو أن لجنة تعمل تحت إشراف المشير لن تشير إلى نواحى القصور التى حدثت فى حرب ٥٦، وسنخرج بنتيجة تقرر أنه لا يوجد فى الإمكان أحسن مما كان. والحقيقة أن مثل هذه القضايا لابد أن تناقش مناقشة أوسع من كونها مجرد عمليات عسكرية. وفى مراكز الأبحاث العالمية تناقش مثل هذه القضايا بواسطة العسكريين والسياسيين والدبلوماسيين. فهى تحتاج لخيال المفكرين من شتى النشاطات. وكان «ماكنمارا» وزير الدفاع الأمريكى الأسبق يختار أنبغ خريجى الجامعات لكى يتخيلوا معه الأشكال المختلفة للحروب المقبلة، وشكّل منهم هيئة استشارية ملحقة بمكتبه. ولكن كان لغضب المشير خلفية أخرى معروفة وهو أن الرئيس اعتبر أن أداء القوات المسلحة فى حرب ٥٦ لم يكن فى المستوى المطلوب، وطالب الرئيس بتغيير القيادات العسكرية كما سيأتى ذكره، وكانت هذه الواقعة من أولى القضايا الخلافية الكبيرة بين الرئيس والمشير.

وقد درست لجنة الرئاسة الكثير من القضايا المهمة كالوحدة مع سوريا، وثورة العراق ١٩٥٨، ونزول القوات البريطانية فى الأردن، والأمريكية فى لبنان، نتيجة لهذه الثورة وقد تناولناها فى أماكن أخرى.

كان الغرض الأساسى من تكوين هذه اللجنة هى أن تكون مركز تدريب لنا ودراسة مدى كفاءة أعضائها لكى يتم توزيعهم على أماكن حساسة فى الدولة. وفعلا عُيِّن حسين ذو الفقار صبرى نائبا لوزير الخارجية، كما عُيِّن الدكتور حاتم فيما بعد وزيرا للإعلام وعينت أنا وكيلا لوزارة الخارجية بالإنابة لصغر سنى.

ولكن بقى مكتب الرئيس برئاسة السيد سامى شرف الذى كان محور اتصالات الرئيس بكافة مرافق الدولة وكرس نفسه لخدمة الرئيس ومعه السيد منير حافظ.

الفصل الثانى

أزمة الكونجو تشعل صراعا دوليا فى إفريقيا

عملى فى مصر مديرا لمكتب الرئيس للشئون السياسية منذ أوائل ١٩٥٨ **باشـــرت** إلى أن عُيِّن السيد حسين ذو الفقار صبرى نائبا لوزير الخارجية فى نوفمبر ١٩٥٩. وكان معه نائب آخر هو د. فريد زين الدين من سوريا، وطلب حسين ذو الفقار من الرئيس عبد الناصر أن أكون معه فى وزارة الخارجية وكيلا للخارجية. ونظرا لأنى كنت صغير السن، أقل من ٣٧ سنة فقد قيل إنه يمكن أن أعين وكيلا للخارجية بالنيابة. كانت هذه فترة مهمة جدا عملت فيها مع السيد حسين ذو الفقار صبرى وكان وزير الخارجية هو الدكتور محمود فوزى.

فى أول يوليو ١٩٦٠ جاءت مناسبة استقلال الصومال، ووجدنا أن إيطاليا بادرت بدعوة إسرائيل إلى احتفالات استقلال الصومال، فاستدعيت السفير الإيطالى، وأبلغته أن هذا تصرف غير معقول، وإذا تمسكوا بذلك فلن نحضر نحن الاحتفال. وأرسلت للرئاسة، فكتب الرئيس عبد الناصر تأشيرة قال فيها : إن هذا قد يعنى أنه لو دعيت إسرائيل للاحتفال، فلن نكون موجودين فيه فاحتفظت بالتأشيرة وأرسلت إلى الحكومات العربية أقترح طلب استدعاء السفير الإيطالى فيها وإبلاغه أن العرب كلهم لن يحضروا وأننا نطالب بإلحاح بعدم دعوة إسرائيل.

وجاءنى السيد الدكتور عبد الخالق حسونة أمين عام الجامعة العربية يستفسر عما إذا كنت قلت هذا لسفير إيطاليا فأكدت له ذلك، وشرحت له أننى قمت بعمل واسع النطاق بالنسبة لهذه العملية، وأننى سألت السيد محمد فائق، وكان مسئولا عن العلاقات مع إفريقيا، هل يستطيع عمل مظاهرة قوية فى الصومال ضد مشاركة إسرائيل، قال استطيع. وفعلا قامت مظاهرة صاخبة فى الصومال ضد إسرائيل، وبعد أسبوع قابلنى السفير الإيطالى وقال لقد عدلنا عن دعوة إسرائيل.

كان عبد الناصر قد طلب إرسال برقية يهنئ فيها باستقلال الصومال. ووجدت أن البرقية لم ترسل بعد، فطلبت تأجيل إرسالها، وقد تصرفت كوكيل وزارة له سلطات، وكنت أعتقد أن هذا سيريح أجهزة الرئاسة ولن يعتبروه نوعا من المنافسة. ولكننى أرسلتها بعد العدول عن دعوة إسرائيل.

بداية الأزمة

فى عام ١٩٦٠ اشتعلت أزمة الكونجو التى بدأت بمحاولة حصار زعيم حركة الاستقلال الكونجولية باتريس لومومبا، والسعى لتصفيته. وتورطت أطراف دولية عديدة فى هذه الأزمة. لم تكن مصر بعيدة عن هذه الأزمة، إذ ساندت وساعدت حركات التحرر الوطنى فى إفريقيا كلها، ومنها الكونجو، وربطتها علاقات وطيدة بقياداتها، وبدأ الكثيرون منهم نضالهم فى مصر، التى هيأت لهم إقامة مكاتب فى القاهرة.

حملت أزمة الكونجو مؤشرات على أنها لن تكون صراعا محليا فحسب، بل تنذر بأن تكون محور صراع أعم فى إفريقيا، وبؤرة توتر حادة للعالم كله، وأخذ الموقف الداخلى فى الكونجو يزداد تدهورا واضطرابا.

و طلب السيد حسين ذو الفقار صبرى منى ترشيح سفير لنا فى الكونجو، وقمت بترشيح اثنين ليتم اختيار أحدهما، لكنى لا أدرى لماذا قالت أجهزة الرئاسة للرئيس جمال عبد الناصر إننا طلبنا من مراد غالب ترشيح أسماء للسفراء للكونجو، وأنه لم يرد علينا للآن، فقال عبد الناصر: إذن مادام الأمر كذلك فليذهب مراد غالب نفسه إلى الكونجو.

وذهبت إلى مقر عملى الجديد لأجد وضعا مضطربا وغير مستقر فى هذه المنطقة من إفريقيا.

فقد أقدم «كازافوبو» وكان رئيسا للجمهورية على خلع باتريس لومومبا من منصبه كرئيس للوزراء. وكان رد لومومبا عليه أنه رئيس الوزراء وزعيم حركة التحرير فى بلاده، ولا يعترف بكازافوبو رئيسا.

وكانت بلجيكا، وهى الدولة التى كانت تستعمر الكونجو، قد وضعت للبلد «القانون الأساسى» بصياغة قصدت منها عدم الوضوح، بحيث يظل تصريف الأمور فى أيديها. وأن تكون هى الحكم فى كل شىء، مما جعل الكونجو يتحول إلى ساحة أو مركز للصراع.

ونتيجة للتدهور الكبير والمستمر فى الوضع هناك. قرر «داج همرشولد» السكرتير العام للأمم المتحدة أن يرسل قوات دولية لمنع التدهور. ونظرا لأنه كان يريد أن تشارك فيها دول العالم الثالث، فقد لجأ إلى تشكيل قوة دولية من الدول الإفريقية المستقلة، وكان لنا ضمنها كتيبة مصرية تتبع الأمم المتحدة ويرأسها الصاغ (الرائد) سعد الدين الشاذلى بالإضافة إلى كتائب لدول أخرى.

واسترعى أنظارنا أن ضباطا بريطانيين هم الذين يقودون القوات الغانية، أما القوة المغربية فكانت تميل إلى موبوتو، ومكلفة بحمايته، وكان وقتها على رأس القوات المسلحة الكونجولية، وبينه وبين لومومبا خلافات كبيرة.

وجاءنى موبوتو ذات يوم يشكو من لومومبا، ويطلب منى التدخل حتى لا يقوم بإهانته أمام جنوده، لأننى فى هذه الأيام كنت قد أصبحت وثيق الصلة بلومومبا، الذى كان يكن كل الحب والاحترام لمصر وللرئيس عبد الناصر.

وحدث أن عقد فى مقر الأمم المتحدة فى نيويورك فى سبتمبر عام ١٩٦٠، اجتماع لرؤساء الدول خُصِص لموضوع الكونجو، وهو الاجتماع الذى حضره الرئيس عبد الناصر، وعدد كبير من قادة الدول منهم كاسترو، وزعماء أفارقة، ورؤساء من الدول الغربية، وخروشوف السكرتير الأول للحزب الشيوعى السوفيتى، الذى خلع حذاءه فى تلك الواقعة الشهيرة، ودق به على المقعد الذى يجلس عليه أثناء كلمة رئيس وفد أسبانيا، الذى كان يهاجم الاتحاد السوفيتى.

ووصلتنى برقية من الرئيس عبد الناصر يقول فيها : نحن مجتمعون الآن فى نيويورك، ويريد رؤساء الدول الإفريقية أن تتصل بلومومبا وتسأله عن حجم المساعدة المادية التى يحتاجها حتى تتمكن الدول الإفريقية من تدبيرها لدعمه.

وذهبت لمقابلة لومومبا وكان معه نائبه انطوان جيزنجا، وأبلغته بنص البرقية، ففكر قليلا ثم قال خمسة ملايين جنيه استرلينى.

ودهشت لضآلة الرقم الذى سمعته فقلت له: سيادة الرئيس هل هذا هو المبلغ الذى تريده لتدفع منه رواتب القوات المسلحة وتنفق منه على المشروعات وإقامة البنية التحتية والطرق والكبارى ومرتبات موظفى الحكومة؟؟

فنظر لومومبا إلى جيزنجا وسأله: ما رأيك؟ فأجابه بقوله: لتكن خمسين مليونا من الجنيهات الاسترلينية.

وقد أحسست أنه لا توجد لديهم دراية بإدارة دولة، أو بتكاليف هذه الإدارة. لكننى أرسلت إلى الرئيس عبد الناصر برقية تتضمن هذا الحديث الذى دار بيننا.

كان الكونجو يعيش حالة فوضى كاملة. ففى إقليم كاتنجا الذى كان مويس تشومبى حاكما عليه، فوجئ العالم بإعلان تشومبى استقلاله بالإقليم عن دولة الكونجو، وهو أغنى أقاليم الكونجو بالمواد الأولية، وتتركز فيه غالبية الشركات البلجيكية، خاصة

الشركات العاملة فى المناجم، وشجعته هذه الشركات على الانفصال ومن أهمها UnUion Minieres.

وفى داخل الكونجو بدأت عملية محكمة لمحاصرة لومومبا إذ كان يعيش داخل حلقة لحمايته من قوات الأمم المتحدة وحولها طوق من الجيش الكونجولى الذى يدين بالولاء لموبوتو. وقد بدأ من جانبه فى تشكيل حكومة جديدة، عرفت باسم حكومة الطلبة لأنه شكلها من الطلبة، حيث لم يكن فى الكونجو شخص واحد قد تخرج فى الجامعة.

وذهبت مجموعة منا تضم سفراء أفارقة لمقابلة موبوتو نستفسر منه عن الأوضاع فى الكونجو، وعن مصير لومومبا، فوجدناه واقفا عند باب مكتبه يمنعنا من دخوله، فقلت له هل يصح أن تمنع دخول سفراء إفريقيا إلى مكتبك؟ وأزحته بيدى من طريقى ودخلنا المكتب ووجدنا الطلبة مجتمعين فأبلغنا أنه يشكل منهم حكومته.

رسالة لومومبا من مخبئه

استطاع لومومبا أن يفلت من طوق الحصار المفروض من حوله، وأن يهرب ويختبئ فى منزل بوسط العاصمة ليوبولدفيل، وبعث إلىّ رسالة تعرفنى بمكانه، ووصلت إلى مخبئه، ووجدت حالته سيئة للغاية وعينيه زائغتين.

وعدت من مقابلته وأرسلت فى الحال برقية إلى الرئيس عبد الناصر أشرح له هذه المقابلة وأبلغه أن لومومبا على قيد الحياة، لأنه كان قد شاع أن لومومبا قُتِل، وأصبحت المصدر الوحيد لأخباره، بعد أن استمرت مقابلاتى السرية معه التى جرت فيها أحاديث كثيرة بينى وبينه. وطلب منى أن أطلب موافقة الرئيس عبد الناصر على خروج زوجته وأبنائه إلى مصر، لأنه يخاف على حياتهم، لأنهم لو أصبحوا فى أمان فسيكون هو أكثر حرية فى الحركة، وكان يؤكد لى أن الشعب كله معه.

نقلت حديثه إلى الرئيس عبد الناصر، مع تعليق من جانبى، بأن هذا التصرف يمكن أن يجلب لنا متاعب فى الكونجو، لأن بلجيكا والدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة، تسيطر بالفعل على الأوضاع فى الكونجو.

وكان السفير الأمريكى فى ليوبولدفيل واسمه تمبرليك، قد هددنى فى أول مقابلة لى معه، وقال: إننا لن نسمح بتدخل أية دولة فى شئون الكونجو، وإن الولايات المتحدة مصممة على منع تدخل أى نفوذ أجنبى - إفريقى أو غير إفريقى فى شئون هذا البلد، وكان يتكلم بلهجة حادة، وهو يعرف جيدا أننى وثيق الصلة بلومومبا.

أخذ الحصار يشتد من حول لومومبا، ووصلتنى منه رسالة يطلب أن أذهب إليه، وذهبت وتكلمنا. وقال لى: لن أستطيع البقاء محاصرا، ولابد لى من الخروج من هذا الحصار، إننى زعيم ثورة حررت البلاد ولو خرجت من هذا الحصار فسوف يلتف الشعب من حولى.

لكننى نصحته بعدم الخروج، وقلت له: أنت الآن فى حماية الأمم المتحدة، وإذا وقع لك مكروه فهى التى تتحمل المسئولية، أما لو خرجت إلى الشارع، فأنت بهذا تحقق لهم مطلبهم، فهم يريدون خروجك، ومن الممكن أن يكونوا متربصين بك، وعندئذ سوف ينقضون عليك، ويفتكون بك، وتكون نهايتك، لكنه لم يقتنع بكلامى وقال: لا أستطيع البقاء فى هذا الوضع ولابد أن أخرج من هنا.

بعدها بأيام قليلة تلقيت منه مكالمة تليفونية، قال فيها: إننى أكرر لك طلبى وقد مر أسبوعان على طلبى الأول، لإخراج زوجتى وأبنائى من البلاد.

نقلت رسالته إلى القاهرة وجاءنى الرد بالموافقة، وبدأنا نضع الخطط لتهريب زوجته وأولاده، ونحن نعرف أن الحصار مضروب عليهم أيضا، والمراقبة مشددة على المطار وأى منافذ للهرب.

بداية توتر العلاقة بين أحمد إسماعيل وسعد الشاذلى

كانت فى الكونجو - كما سبق أن أشرت - كتيبة مصرية ضمن قوات الأمم المتحدة، يرأسها سعد الدين الشاذلى، وكانت القاهرة قد استجابت أيضا لطلب من لومومبا وقت أن كان فى السلطة، لإرسال بعثة عسكرية لتدريب الجيش الكونجولى، فأرسلت العميد أحمد إسماعيل، (وهو فيما بعد المشير أحمد إسماعيل الذى كان القائد العسكرى لحرب أكتوبر ١٩٧٣)، ووصل أحمد إسماعيل ليكون المستشار العسكرى بالسفارة المصرية، وليباشر عمله فى تدريب جيش الكونجو، ولكنه لم يجد بعد وصوله، جيشا يدربه، سوى قوات تفتقد أى انضباط وهى التى استطاع موبوتو أن يكون قائدا لها.

وحدث خلاف حاد بين العميد أحمد إسماعيل والرائد سعد الشاذلى، ووصل شمس بدران - بوصفه من مكتب المشير عبد الحكيم عامر - للإصلاح بينهما. كان أحمد إسماعيل يعتقد - وهو على حق - أنه يمثل الرتبة الأعلى، وأن على الشاذلى أن يكون منضبطا ويتعاون معه. لكن الشاذلى لم يكن راضيا عن هذا الوضع، ورد بأنه يتبع الأمم المتحدة.

لكن مهمة شمس بدران أدت إلى تهدئة الأمور بينهما، وإن ظلت العلاقة فاترة إلى وقت حرب أكتوبر ١٩٧٣، عندما أصبح إسماعيل القائد العام، والشاذلي رئيس الأركان.

وعندما بدأنا الإعداد لتهريب عائلة لومومبا، كونت لجنة يرأسها العميد أحمد إسماعيل، وكان رجلا عسكريا منضبطا للغاية، وبعض ضباط الكوماندوز المصريين من فرقة الصاعقة، كانوا مكلفين بتشغيل محطة اتصال لاسلكي قوية للغاية مع مصر، ومعهم عساكر مصريون.

وبدأت اللجنة في رسم خطة الهروب، وفكرنا في الدور الذي يقوم به عبد العزيز إسحق - المستشار بالسفارة المصرية - وهو أشقر الشعر، ملامحه أقرب إلى الأوروبيين، وسجلنا في جواز سفره معلومة غير صحيحة بأنه متزوج من سيدة كونجولية.

واستندت الخطة إلى الانتظار لحين مجيء دور الكتيبة السودانية في قوات الأمم المتحدة في السيطرة على المطار. وجاء اليوم المحدد، وذهب عبد العزيز إسحق للسفر إلى القاهرة ومعه عائلة لومومبا باعتبار أنها عائلته هو.

كنا نعرف أن المخابرات البلجيكية منتشرة في مطار ليوبولدفيل. وكانت التعليمات لعبد العزيز إسحق، أن يتجاهل النداء الأول والثاني والثالث الذي يطلب من الركاب الصعود إلى الطائرة المسافرة إلى لشبونة. ولا يظهر إلا قبل إقلاعها بثوان مع عائلته، ويجري معهم ليلحق بالطائرة في آخر ثوان لها قبل الإقلاع، بحيث يكون العاملون في المطار في موقف يجعلهم يساعدون هذه العائلة على دخول الطائرة، واتخاذ أماكنهم فيها.

وحدث هذا فعلا حسب الخطة الموضوعة وركبوا الطائرة، ووصلوا إلى القاهرة، ووجدوا في استقبالهم احتفالا كبيرا في مصر، يقابله غضب عارم في الكونجو من المخابرات البلجيكية والغربية ومن المسئولين في المطار.

وبدأ رد الفعل يتخذ شكل عمليات تحرش بالسفارة المصرية وفرض إجراءات من الرقابة المشددة عليها وبلغت التحرشات حد ضرب السفارة بالمدفعية.

حصار السفارة

وفي أحد الأيام كنت قد اتفقت مع زوجتي على أن تنتظرني في مطعم مواجه لمبنى السفارة المصرية، حيث أحضر إليها ونتناول طعام الغداء، وجلست زوجتي تنتظر.

وبدأت عيناها تلتقط منظر جنود يصلون في عربات جيب مسلحين بالرشاشات، ويقتحمون مبنى السفارة.

ودفعها القلق إلى أن تسأل بعض الواقفين ما الذى يجرى؟.. فسمعت منهم إجابة يقولون فيها: لقد جاء هؤلاء الجنود لقتل السفير المصرى.

كان الجنود قد وصلوا إلى الطابق الذى تشغله السفارة المصرية فى هذا المبنى، وفوجئت بهم يدخلون مكتبى، وكل منهم يوجه السونكى نحو جسدى، وكان معى بالمصادفة أبو بكر تونكارا سفير غينيا.

واجهت الجنود بالحديث المباشر إليهم، وقلت لهم ماذا تريدون؟ هل تريدون قتلى؟.. إذن فأنا مستعد وعليكم أن تعرفوا أننى جئت إلى هذا البلد من أجلكم، وقد أرسلنى الرئيس جمال عبد الناصر لأساعد الكونجو وأساعدكم.

وأثناء حديثى إليهم. كان قد وصل إلى السفارة أفراد من الصاعقة من العاملين بمحطة الاتصال اللاسلكية، واتخذوا مكانهم خلف الجنود الكونجوليين.

وشعر الجنود الكونجوليون بأن الموقف تغير، فتراجعوا وقالوا إننا حضرنا إلى هنا لأنكم تخبئون وزير خارجية لومومبا، ونريد تفتيش السفارة لهذا الغرض.

وقد سمحت لهم بالتفتيش، ولم يجدوا شيئا وانسحبوا من السفارة. كان الموقف دقيقا للغاية، ويمكن لأى تصرف غير حكيم أن يؤدى إلى مذبحة، فالكنجوليون جاءوا مسلحين، وكتيبة الصاعقة المصرية جاءت أيضا مسلحة. وتواصلت التحرشات إلى أن تعرض منزلى لهجوم بإطلاق الرشاشات عليه، وكانت بداخله ابنتاى الاثنتان والمربية المرافقة لهما. وقام الضابط مصطفى حنفى - السفير فيما بعد - بدور أساسى فى انقاذهن والخروج بهن إلى بيت فى مكان آخر.

قتل لومومبا بعد هروبه من الحصار

فى صباح أحد الأيام فوجئت بصدور إحدى الصحف، وعنوانها الرئيسى يقول: «ملف الدكتور غالب» وذهلت حين قرأت فى الصحيفة نصوص رسائل مرسلة من محطة الاتصال المصرية اللاسلكية، ومن بينها وأخطرها، رسالة منى للرئيس عبد الناصر أبلغه بالحالة فى الكونجو، وكيف أن بلجيكا والغرب هم المسيطرون تماما الآن وإذا لم يتدخل الاتحاد السوفيتى - وهو أمر صعب جدا - فإن الوضع سيظل تحت سيطرة الغرب.

فى الحال قامت السلطات الكونجولية بطرد البعثة الدبلوماسية للسفارة السوفيتية،

وكل سفارات المعسكر الاشتراكى. وطلب منى السوفيت أن أكون ممثلا لمصالحهم فى الكونجو.

قمت بسرعة بتقدير خطورة الموقف وحولت جهودى ناحية موبوتو، وطلبت مقابلته، وحدد لى موعدا داخل معسكر الجيش الذى يتخذه مقرا له. وذهبت إليه ومعى بعض الهدايا التذكارية القيمة، التى نالت إعجاب جميع الموجودين معه. واعتقدت أن ذهابى إليه ومعى هذه الهدايا قد يذيب الجليد بينى وبين موبوتو، لأننى فى الحقيقة كنت أريد البقاء فى الكونجو.

تداعت الأحداث إلى أن أُعْلن نبأ هروب لومومبا، وكان قد كلمنى قبل هروبه ليقول لى لن أبقى يوما واحدا بعد الآن تحت الحصار، وبعد يومين من هروبه، عرفت أنهم أمسكوا به فى منطقة يسيطر عليها الجيش الغانى الذى يقوده بريطانيون. وعرفت أنه تعرض للتنكيل به، وللتعذيب الشديد، ثم قتلوه.

استدعانى بومبوكو وزير الخارجية فى حكومة موبوتو، بعد هروب لومومبا مباشرة وقال لى: نحن أصدقاء وأرجو ألا تتأثر مما سأقوله لك، أنت شخص غير مرغوب فيه فى الكونجو. قلت له إذا كنت أنا غير مرغوب فيه، فلتبق السفارة المصرية.

أجابنى : أنت وجميع أعضاء السفارة. قلت معنى هذا قطع العلاقات، فقال سَمِّه وقف العلاقات.

انتابنى الغضب وقلت له على كل الأحوال فنحن لا نظن أنكم أنتم الذين أخذتم هذا القرار، ونحن سوف ننتقم من الذى اتخذ القرار. قلتها وأنا لا أدرى ماذا سيكون رد القاهرة على طردنا.

لكن الوزير بومبوكو دعانى لأتناول معه الشاى فى بيته فى الساعة الخامسة مساء.

وبمجرد خروجى من مكتبه أرسلت تقريرا بكل هذه التفاصيل إلى الرئيس عبد الناصر. وتلقيت منه برقية يقول فيها : لا تذهب إلى الشاى واستمع إلى الإذاعة المصرية.

وانتظرت بجوار الراديو، فاستمعت إلى خبر يعلن أن مصر قررت تأميم جميع ممتلكات بلجيكا فى مصر، وقطع العلاقات معها. وبصراحة شديدة سرنى هذا الخبر جدا. وخرجت من الكونجو وأنا فى شدة الأسى.

قمة الدار البيضاء لمناصرة الكونجو

رجعت من الكونجو إلى وزارة الخارجية فى القاهرة. وفى يناير ١٩٦١ دعا المغرب إلى قمة إفريقية فى الدار البيضاء برئاسة الملك محمد الخامس، لمناقشة الأوضاع فى إفريقيا وقضية الكونجو. ووجهت الدعوة إلى الرئيس جمال عبد الناصر، وإلى ملوك ورؤساء ليبيا (الملك إدريس السنوسى)، والجزائر (فرحات عباس رئيس الحكومة المؤقتة)، وغانا وغينيا ومالى. وتشكل الوفد المصرى برئاسة الرئيس جمال عبد الناصر، وعضوية السيد زكريا محيى الدين، والدكتور محمود فوزى، ومحمود رياض، ومن سوريا عدنان الأزهرى (وكانت الوحدة قائمة وقتئذ)، وأنا عضو فى الوفد.

وسافرنا باليخت «المحروسة»، وهبت أثناء الرحلة عاصفة هائلة بالبحر المتوسط. وكان هناك تخوف من أن يتعرض الطيران الفرنسى لليخت، لكننا وصلنا إلى الدار البيضاء دون حدوث شىء. وعانى الجميع دوار البحر، ماعدا الرئيس عبد الناصر وأنا، فجلسنا معا نتحدث فى كثير من الأمور فى مصر منها التموين والأسعار وعن الأوضاع فى إفريقيا.

وبدأت القمة الإفريقية، وكان يجلس فى المقعد المجاور لى مباشرة الأمير الحسن (الملك الحسن الثانى فيما بعد)، وشعرت بأنه هو الذى يشرف على كل ما يتعلق بهذا المؤتمر برغم صغر سنه، وهو المسئول عن النشاط السياسى والأفكار التى يطرحها المغرب فى المؤتمر. وروى لى الأمير الحسن واقعة مازلت أتذكرها جيدا إلى اليوم، قال لى ونحن جلوس : الآن سوف يتكلم «نكروما رئيس غانا». وسيدافع عن علاقته بإسرائيل، وعلاقة إسرائيل بإفريقيا . ونريد أن يكون الرئيس جمال عبد الناصر جاهزا للرد عليه فورا وإسكاته، فقمت من جانبى بإيصال هذه الرسالة إلى الرئيس عبد الناصر. وحدث بالفعل ما قاله الأمير الحسن عندما وقف نكروما يتكلم. وبعدها بدأ الرئيس عبد الناصر يشرح دور إسرائيل فى إفريقيا، ودور مصر كحامية للبوابة الشمالية الشرقية لإفريقيا، وما الذى تقوم به إسرائيل فى الشرق الأوسط وإفريقيا.

وأثناء ذلك مررت على الرئيس الغينى سيكوتورى، ورئيس مالى موديبو كيتا، وأبلغتهما بما سيقوله نكروما فقالا لى دعه يفتح فمه وسيرى.

وبالفعل ما إن انتهى الرئيس عبد الناصر من شرحه حتى انبرى لنكروما كل من سيكوتورى وهو خطيب بارع، وكذلك موديبو كيتا، وتحدث سيكوتورى بطريقة مرتبة

تناول فيها القضايا أولا بمقدمة عن الموضوع، ثم أعقبها بشرح للموضوع وبعده توصية بأن نفعل كذا وكذا.

وكلفنا من القمة بإعداد بيان مشترك، وكنا مندوبين عن الرؤساء المشاركين فى القمة. وفوجئت بمندوب غانا يرفض مهاجمة إسرائيل، وقال لنا أدركنا الآن دور إسرائيل فى إفريقيا. فتصديت له وقلت إن رئيسك نفسه وافق على فضح دور إسرائيل فى جلسة المؤتمر. فوجدته يرد علىّ بقوله لا أريد أن يحدث شىء خطير فى غانا.

سألته ماذا يقصد فقال من الممكن أن تسقط الحكومة الغانية فى أكرا. وجلسنا نتناقش، ووافق أخيرا على صياغة تقول إننا نلتزم بموقف من إسرائيل فى إفريقيا.

وقلت له أننا نوافق لكن على مضض.

والحقيقة أن البيان الذى صدر عن القمة كان لصالح قضية الكونجو واستقلاله والمساعدات التى يجب أن تقدم له، وتأييد كل ما قيل فى المؤتمر وكذلك فضح دور إسرائيل فى إفريقيا.

وكنت قد نقلت حديثى مع مندوب غانا إلى الرئيس عبد الناصر، فى حضور الدكتور محمود فوزى، وكيف أن المندوب طلب أن يكون فضح دور إسرائيل مقصورا على إفريقيا فقط.

ورحب الرئيس عبد الناصر بهذه النتيجة ورد الدكتور فوزى بأن هذا هو ما كنا نريده.

الفصل الثالث

الصدام مع ثورة العراق
ومحنة الوحدة مع سوريا

قبل ذلك وأثناء عملى مديرا لمكتب الرئيس عبد الناصر للشئون السياسية، كانت قد تكونت لجنة فى الرئاسة كما سبق أن ذكرت مهمتها أن تتناول أهم تطورات الأحداث العربية والعالمية. وكانت هذه اللجنة برئاسة السيد حسين ذو الفقار صبرى وتضم : د. عبد القادر حاتم والسيد أمين هويدى والسيد سامى شرف والأستاذ منير حافظ وأنا.

كنا نجتمع بانتظام. وفى اجتماع خاص بدراسة الأوضاع فى سوريا، وكان ذلك قبل الوحدة فى ديسمبر ١٩٥٧، أبديت رأيى بأن المعركة الرئيسية فى سوريا هى بين البعث والقوميين من جهة والشيوعيين من جهة أخرى. فأشّر الرئيس عبد الناصر وكان يقرأ محضر الاجتماع بالكامل «مراد يذهب إلى دمشق وكتابة تقرير عن الأوضاع هناك». وذهبت إلى دمشق دون إبلاغ أى أحد. وكان سفيرنا هناك السفير القدير محمود رياض الذى أصبح فيما بعد وزيرا للخارجية.

وكانت خلاصة ما وصلت إليه، أن سوريا كانت بلا حكومة عمليا. وكان رئيس الوزراء خالد العظم يميل للشيوعيين، ولا يعترف به عمليا الوزراء البعثيون والقوميون. كذلك كان رئيس الأركان عفيف البزرى هو الآخر يميل للشيوعيين وكان أيضا لا يعترف به أغلب ضباط الجيش السورى الذين كانوا ينتمون إلى الاحزاب والجماعات السياسية القومية والبعثية. وكان هناك رجال الأعمال والشركة الخماسية وطبقة التجار والمثقفين، ويأتى الحزب الشيوعى السورى بزعامة خالد بكداش كإحدى القوى الرئيسية فى سوريا. وكان الاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى كله قد وطد أقدامه بمؤسسات وخبراء مساندا القوى الشيوعية التى ينافسها فى القوة حزب البعث العربى الاشتراكى.

ونتيجة للصراعات الحادة بين كل هذه الجماعات، أصيبت سوريا بالشلل التام. وأخيرا طلبوا الوحدة مع مصر، ورأى جمال عبد الناصر ألا تكون الوحدة فورية واندماجية، ولكنهم ضغطوا عليه حتى قبلها وعلى رأسهم شكرى القوتلى رئيس الجمهورية. واشترط عبد الناصر حل جميع الأحزاب، ووافقوا على ذلك ماعدا الحزب الشيوعى الذى ترك زعيمه خالد بكداش سوريا ولجأ إلى الاتحاد السوفيتى. وبدأت

خلافات حادة بين مصر والاتحاد السوفيتي الذى اتهم هذه الوحدة بأنها أمريكية والهدف منها تصفية الشيوعيين فى سوريا والعراق. كان الإخوة السوريون قد وافقوا على حل الأحزاب، ولكن كان كل حزب أو جماعة قومية أو سياسية تطمع فى أن تكون شريكا فاعلا فى الوحدة، خاصة حزب البعث وزعامته الممثلة فى أكرم الحورانى وصلاح البيطار. وعين أكرم الحورانى نائبا لرئيس الجمهورية وصلاح البيطار وزيرا للثقافة. وأنشئ ما يسمى بالوزارة المركزية، ثم تم تشكيل وزارة إقليمية فى كل من سوريا التى سميت الإقليم الشمالى ومصر التى سميت الإقليم الجنوبى، وسميت دولة الوحدة الجمهورية العربية المتحدة.

والحقيقة أن الاخوة السوريين أقبلوا على الوحدة بكل حماس وفتحوا بيوتهم للمصريين ولم يبادلهم المصريون شعورهم وانفتاحهم سوى قلة منهم.

وسرعان ما شعر الأخوة السوريون بما يشبه الصدمة الثقافية والسلوكية فى مدينة كبيرة كالقاهرة، كل من فيها مشغول بنفسه ومشاكله. وبدءوا يشتكون من عدم المشاركة فى الحكم فى نظام ليست المشاركة من صفاته الأساسية!! واشتكى أكرم الحورانى من أنه طلب مقابلة الرئيس وانتظر ٣ أيام حتى يقابله وهو نائب لرئيس الجمهورية.

أما المصريون الذين يعملون فى الإقليم الشمالى، فقد مارسوا هوايتهم الفرعونية واعتبر كل منهم أنه جاء معلما ورئيسا وكان يعوزهم بحق «ثقافة الوحدة».

وتراكمت الخلافات والإحباطات واستقال الوزراء البعثيون وعلى رأسهم أكرم الحورانى وصلاح البيطار وعادوا إلى دمشق.

وكان نظام الحكم فى سوريا يمارس سلطاته بديكتاتورية فظة وبالكثير من القهر والإرهاب. ووصفت سوريا بأنها مستعمرة مصرية، ووصف المشير عامر بأنه إبراهيم باشا الذى حكم الشام أيام محمد على باشا الكبير.

وقد كان للتآمر الخارجى تأثير بالغ على تعظيم الخلافات وعدم الرضا. وصرفت السعودية أيام الملك سعود أموالا طائلة لإفشال هذه الوحدة وتحطيمها. كما أسهمت ثورة العراق وعلى رأسها عبد الكريم قاسم فى القضاء عليها. هذا بخلاف القوى العظمى وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى الذى وقف ضد الوحدة ومعه الغرب بطريق غير مباشر. وكان لمطالب بعض السياسيين السوريين بحل المشاكل السورية مع دول الجوار وعلى رأسها تركيا، مثل استرداد لواء الإسكندرونة ونقل جثمان السلطان

سليمان الذى كان داخل الأراضى السورية والذى يحرسه جنود أتراك ومشاكل المياه، ثم تصعيد الأعمال العدائية ضد إسرائيل وكميل شمعون فى لبنان، كان لكل هذا آثار سلبية على الوحدة. وأخيرا حدث الانفصال فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١. كنت آنذاك فى موسكو سفيرا لدولة الوحدة واستدعانى «كوزينتسوف» نائب وزير الخارجية الساعة السادسة مساء يوم الانفصال نفسه ليبلغنى اعتراف الاتحاد السوفيتى بسوريا المنفصلة بعد ساعات فقط من انفصالها. والحقيقة أننى استأت من هذا القرار ولم أملك إلا أن أقول أرجو أن يكون هذا القرار متماشيا مع مسار التاريخ.

والحقيقة أن الشوفينية المصرية قد ولَّدت فى سوريا التطرف القطرى الذى بدأ يستشرى ويؤدى إلى هذا الانفصال.

ثورة العراق ١٤ يوليو ١٩٥٨ وتطور أحداثها

كُتب الكثير عن ثورة العراق وسأقتصر فى حديثى على أهم عناصرها المميزة وباختصار شديد.

كانت مصر على علم تام من خلال أجهزتها بأن فى العراق ثورة تختمر. وكانت الأجهزة المصرية على اتصال بجميع فصائلها القومية والبعثية والشيوعية والكردية ... الخ.

وعقدت عدة اجتماعات بين الأجهزة المصرية وعناصر التجمعات السياسية التى أسهمت فى الثورة على اختلاف اتجاههم السياسى وكانوا متباينين فى علاقاتهم المستقبلية بالنسبة للجمهورية العربية المتحدة بين مطالب بالوحدة معها إلى معاد، وآخرون يريدون علاقة اتحادية ولكن مع الأخذ بعين الاعتبار التكوين العرقى والدينى ودرجات التطور فى العراق.

وعلى سبيل المثال حدث اتصال بين كمال رفعت والشيوعيين العراقيين فى دمشق قبل ثورة العراق، وأوضح هؤلاء أن التكوين العرقى والدينى والاجتماعى متباين بشكل واضح فى العراق، فمنهم الشيعة والسنة والأكراد والعرب وأقليات أخرى مختلفة لها وزنها. وإذا أردنا قيام وحدة بين ج.ع.م والعراق فلتكن على أساس اتحاد فيدرالى لأنه لا يعقل أن يطبق النظام الموجود فى القاهرة ودمشق على الموزاييك الموجود فى العراق وأن الاتحاد الفيدرالى هو الأوفق على المدى البعيد.

وكان هناك أجهزة مصرية أخرى متصلة بالوحدويين فى العراق من القوميين

والبعثيين وكانوا ينادون بالوحدة الفورية مع ج.ع.م.

ثم قامت ثورة العراق فى ١٤ يوليو ١٩٥٨، وذلك أثناء مرور لواء من الجيش العراقى أمره نورى السعيد بالتوجه إلى الجبهة الغربية العراقية المتاخمة للأردن مرورا ببغداد، لأول مرة يسمح فيها نورى السعيد بهذا المرور خوفا من حدوث انقلاب أثناء مرورها فى العاصمة.

كان يقود القوات العراقية المارة بالعاصمة عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف نائبا له.

وللتاريخ فإن الذى دخل العاصمة أولا، كان عبد السلام عارف الذى بدأ الثورة وقضى على النظام الملكى «الملك فيصل الثانى والأمير عبد الإله» ولى العهد ونورى السعيد، ثم دخلها عبد الكريم قاسم بعد أن نجح عبد السلام عارف فى السيطرة على الموقف ونصب نفسه رئيسا لمجلس قيادة الثورة وكان ياوره وصفى طاهر هو نفسه ياورا لنورى السعيد وكان من الشيوعيين.

كانت ثورة العراق ثورة دموية غاية فى العنف ولكن تأثيرها كان واسع النطاق وعميقا. فقد قضت على الملكية كما قضت على حلف بغداد، وأخرجت العراق من الأحلاف العسكرية بضربة واحدة. كما أحدثت تغيرات اجتماعية واقتصادية واسعة النطاق ولم تكن تقل من حيث التأثير عن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

ولكن سرعان ما بدأ الخلاف يدب بين أجنحة الثورة وأساسا بين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف.

لم يكن عبد الكريم قاسم شيوعيا، وإن كان « ميكويان» النائب الأول لرئيس وزراء الاتحاد السوفيت قد ذكر لى أنهم كانوا على اتصال به قبل الثورة، ووعد بالتعاون مع السوفيت والشيوعيين. ولكن الملتصقين به يقولون إنه لم يكن شيوعيا ولكنه كان يعتنق نفس الفكر الذى يعتنقه صديق شنشل والباجهجى (أى الفكر الليبرالى ولقد اتصلا بالقيادة المصرية) وكان كل منهما يساند الاتحاد الفيدرالى بين ج.ع.م والعراق. ولكن الرئيس عبد الناصر رفض اقتراحهما.

كان عبد الكريم قاسم يريد أن يكون جزءا من كل وليس جزءا من جزء !! أى ليس جزءا من ج.ع.م ولكن جزء من الأمة العربية كلها، وهذا على أى الحالات لا يدل على أنه كان يريد أى علاقة مع ج.ع.م.

وسرعان مادب الخلاف بين القوميين والبعثيين من جهة، وبين الشيوعيين ومجموعة الليبراليين والحزب الشيوعى الكردى الذى يحظى بقاعدة عريضة بين الأكراد من جهة أخرى، أى بين عبد السلام عارف ومؤيديه فى الجيش مثل رفعت الحاج سرى والشواف والركابى البعثى الذى كان فى وزارة عبد الكريم قاسم... الخ. وبين عبد الكريم قاسم ومؤيديه أساسا من الشيوعيين. وكانت الغلبة لعبد الكريم قاسم وصفيت العناصر البعثية والقومية وسُجن عبد السلام عارف. وأصبح العراق وكأنه دولة شيوعية وأصبح عبد الكريم قاسم الزعيم الأوحد فيها.

وهنا انعقد المؤتمر ٢١ للحزب الشيوعى السوفيتى وأصدر البيان الختامى وفيه فقرة تقول « بعد الحصول على الاستقلال فإن الصراع الطبقى يصبح مهمة ملحة » وهذا يعنى تأييد ما يحدث فى العراق.

أما الغرب فقد انزعج انزعاجا شديدا من التطورات فى العراق. وجاءنى وأنا وكيل وزارة الخارجية بالنيابة أحد اللوردات الإنجليز لا أذكر اسمه الآن عن طريق سفير كندا فى القاهرة أرنولد سميث، وكان اللورد يضع على عينه «مونوكل» ، وكان طويل القامة مهيب الطلعة. وكان السفير الكندى قد قدمه لى على أنه وزير خارجية شركة «شل». كان كل همه أن نكثف المعركة ضد الشيوعيين وعبد الكريم. وأخيرا انقلب البعثيون على عبد الكريم قاسم وقتلوه ومعه وصفى طاهر، وذلك بعد أن تخلص عبد الكريم من السند الأساسى له وهم الشيوعيون. وقال السوفيت إن الذين تخلصوا من حكم عبد الكريم هم شركات البترول وهم الذين أوقعوه مع الشيوعيين الذين صفاهم عبد الكريم قاسم قبل مقتله. وجدير بالذكر أن الحزب الشيوعى العراقى كان أقوى الأحزاب الشيوعية فى العالم العربى. وأسدل الستار على حكم دموى غاية فى العنف مارس القهر والإرهاب ولكن يبقى سؤال مهم يهمنا جميعا الآن وهو:

هل كان النظام الفيدرالى الاتحادى سينجح فى إقامة وحدة اتحادية بين العراق و ج.ع.م.؟ وهل يمكن لأى اتحاد فيدرالى أن ينجح فى إقامة وحدة بين الدول العربية؟

أشك فى ذلك فالقطرية مازالت متأصلة فى نفوسنا نحن العرب. والدليل على ذلك فشل محادثات الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق ١٩٦٣. إذ كان البعث العراقى والسورى لا يريدان هذه الوحدة أصلا، كما أصر جمال عبد الناصر على ضرورة أن يكون هناك قائد له صلاحية رئاسية على رأس هذه الوحدة. كما فشلت

اتحادات أخرى مثل الاتحاد العربى بين سوريا ومصر وليبيا!!

وإلى أن نقتنع بأن الفيدرالية والصيغة الاتحادية هى الصيغة الوحيدة لأى وحدة عربية أو تجمع عربى، وإلى أن نتعلم كيف نضع هذه الصيغة موضع التنفيذ بثقافتها وآلياتها واحترام الرأى والرأى الآخر، فلن تنجح أى علاقة توحيدية بين العرب.

معركة الرئاسة فى لبنان

بعد ثورة العراق يوليو ٥٨ والقضاء على الملكية فيها واتجاه الثورة إلى الراديكالية المتطرفة، نزلت القوات البريطانية فى الأردن لحماية العرش الأردنى الهاشمى خوفا من مصير أبناء عمومته فى العراق. كما نزلت القوات الأمريكية فى لبنان حيث كانت قد اندلعت فتنة طائفية فجرها كميل شمعون بإصراره على تجديد رئاسته خرقا لدستور لبنان. وقد أبلغ «ايزنهاور» الرئيس الأمريكى كميل شمعون، بأنه غير مستعد لحرب من أجل تجديد رئاسته. ولكن بعد ثورة العراق خاف الأمريكيون من أن يكتسح المد القومى والراديكالى الشيوعى لبنان فنزلت القوات الأمريكية لحماية لبنان وليس كميل شمعون.

وفى نفس اليوم تقريبا، جاءنا السفير الأمريكى فى القاهرة «ريموندهير» فى رئاسة الجمهورية وقدم شكوى عاجلة مع تحذير واضح، نتيجة لالتقاطهم إشارة موجهة من عبد الحميد السراج فى الإقليم الشمالى من ج.ع.م إلى القوى القومية والبعثية أن تقاوم القوات الأمريكية وتصطدم بهم بكل الوسائل، وقال إن هذا معناه الحرب.

وأخيرا رحلت أمريكا عن لبنان بعد انتخاب الجنرال شهاب رئيسا للجمهورية اللبنانية. ورحلت القوات البريطانية بعد زوال الخطر عن الملك حسين. وكانت مصر تؤيد شهاب فى لبنان. وذلك تعبيرا عن معارضتها المتواصلة لحكم عبد الكريم قاسم وكان هذا يعنى رضاء من الولايات المتحدة بشكل غير مباشر.

موسكو بدلا من الأمم المتحدة

فى أوائل عام ١٩٦١، أرسلت وزارة الخارجية كل الطاقم الذى كان يعمل معى بسفارة مصر فى الكونجو إلى الأمم المتحدة فى نيويورك توطئة لإيفادى رئيسا للبعثة الدائمة فى الأمم المتحدة. وقد أبلغنى بهذا القرار السيد حسين ذو الفقار صبرى وذلك بعد التشاور مع الرئيس جمال عبد الناصر.

وبعد نحو أسبوع عاد السيد حسين ذو الفقار صبرى يفاتحنى مرة أخرى فى هذا القرار وقال: هل يضايقك أن تذهب إلى موسكو بدلا من نيويورك؟ ثم قال إن الرئيس

جمال عبد الناصر كان أمامه اسم نور الدين قرة كسفير فى موسكو واسمك للأمم المتحدة فكتب أمام اسمك مراد غالب لموسكو ولم يذكر شيئا أمام اسم نور الدين قرة.

واستشعرت من هذا وجود خلاف بين الرئيس عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر، لأن نور الدين قرة كان يعتبر رجل المشير فى موسكو: وكان فى هذا الوقت رئيسا لمكتب المشتريات العسكرية للقوات المسلحة كلها فى الاتحاد السوفيتى. وقد تمت إحاطته علما قبل ذلك بأنه سوف يشغل منصب السفير، وقام هو على هذا الأساس بالتعارف على أعضاء السفارة فى موسكو.

كان قرار تعيينى فى فبراير ١٩٦١ فى فترة تشهد خلافات حادة بين مصر والاتحاد السوفيتى، خاصة بسبب الانتقادات السوفيتية الشديدة للوحدة بين مصر وسوريا والخلافات بيننا وبينهم حول ثورة العراق وعبد الكريم قاسم وسيطرة الشيوعيين على الموقف فى العراق وضرب العناصر القومية وثورة الشواف والتخلص من جميع العناصر الأخرى.

وصلت الحملة المتبادلة إلى حد الانتقادات الشخصية لكل من عبد الناصر وخروشوف. وقد رأى الرئيس عبد الناصر أن أبقى فى القاهرة ولا أذهب إلى موسكو لأباشر مهام عملى الجديد احتجاجا على هذه الحملة الشعواء وبقيت فى مصر إلى أن تقرر سفرى فى أول يوليو ١٩٦١.

خروشوف يسألنى قل لى كيف أتعامل مع عبدالناصر

فى يوم ١٢ يوليو ١٩٦١، وبعد أحد عشر يوما من وصولى إلى موسكو لتسلم مهام منصبى، قدمت أوراق اعتمادى إلى ليونيد بريجنيف، وكان رئيسا لمجلس السوفيت الأعلى ورئيس الاتحاد السوفيتى.

وبعد شهرين من وصولى، استدعانى خروشوف رئيس الوزراء لمقابلته، وكانت مقابلة رسمية وقال لى: لماذا فتحتم علىَّ كل أبواق الهجوم؟ قُلْ لى وأنت السفير هنا كيف يتم التعامل معكم؟ وكيف أوصل ما أريد توصيله للرئيس عبد الناصر وعن أى طريق؟

يومها قلت له : تستطيع أن تفعل ذلك عن طريقى وسوف أوصله للرئيس عبد الناصر مباشرة.

وهدأت العلاقات بيننا وبين السوفيت وارتضى خروشوف المعادلة التى طرحتها

عليه. وذكرت له أننى قمت بزيارة جميع مكاتبنا المتخصصة فى موسكو، مكاتب السد العالى - التصنيع - المكتب التجارى - المركزى الثقافى - المشتريات العسكرية - الملحقين العسكريين. ووجدت أن جميع الاتفاقات المبرمة تنفذ بشكل جيد وفى مواعيدها. وعلينا أن نحافظ على هذه العلاقات الطيبة بين الدولتين. أما بالنسبة للخلافات الايديولوجية فعلينا أن نعمل على ألا تطغى وتؤثر على هذه العلاقات.

وهنا ضرب خروشوف المنضدة بيده وقال إن هذا ما أريد تنفيذه.

وبدأت عملى بالتنسيق بين المكاتب المصرية التى كان لكل مكتب منها اختصاص. وكان رؤساء المكاتب من أفضل العناصر، ووجدت من المناسب أن تكون هناك هيئة رئاسية للوجود المصرى فى موسكو تتكون من رئيس للسفارة هو والوزير المفوض ومن رؤساء المكاتب، وكنت أنا بمثابة رئيس مجلس إدارة لهذه العلاقات بصفتى السفير.

وسارت الأمور فى إطار فريق منتظم فى إدارة العلاقات والاتفاقات المختلفة ومنها الاتفاقات العسكرية واتفاقية بناء السد العالى واتفاقية التصنيع وغيرها.

الفصل الرابع

أحاديثى مع خروشوف

فى أوائل مايو ١٩٦٤، استدعانى جروميكو لمقابلته وأخبرنى أن خروشوف سيزور القاهرة للمشاركة فى احتفالات السد العالى الذى حُدد لها ١٤ مايو ١٩٦٤، ترافقه السيدة حرمه «نينا بتروفنا» وابنته «رادا» وزوجها «أدجوبى»، و«ساتيوكوف» رئيس تحرير البرافدا وحرمه وابنته والمارشال جريتشكو وزير الدفاع وجرميكو وزير الخارجية وغيرهم من المرافقين.

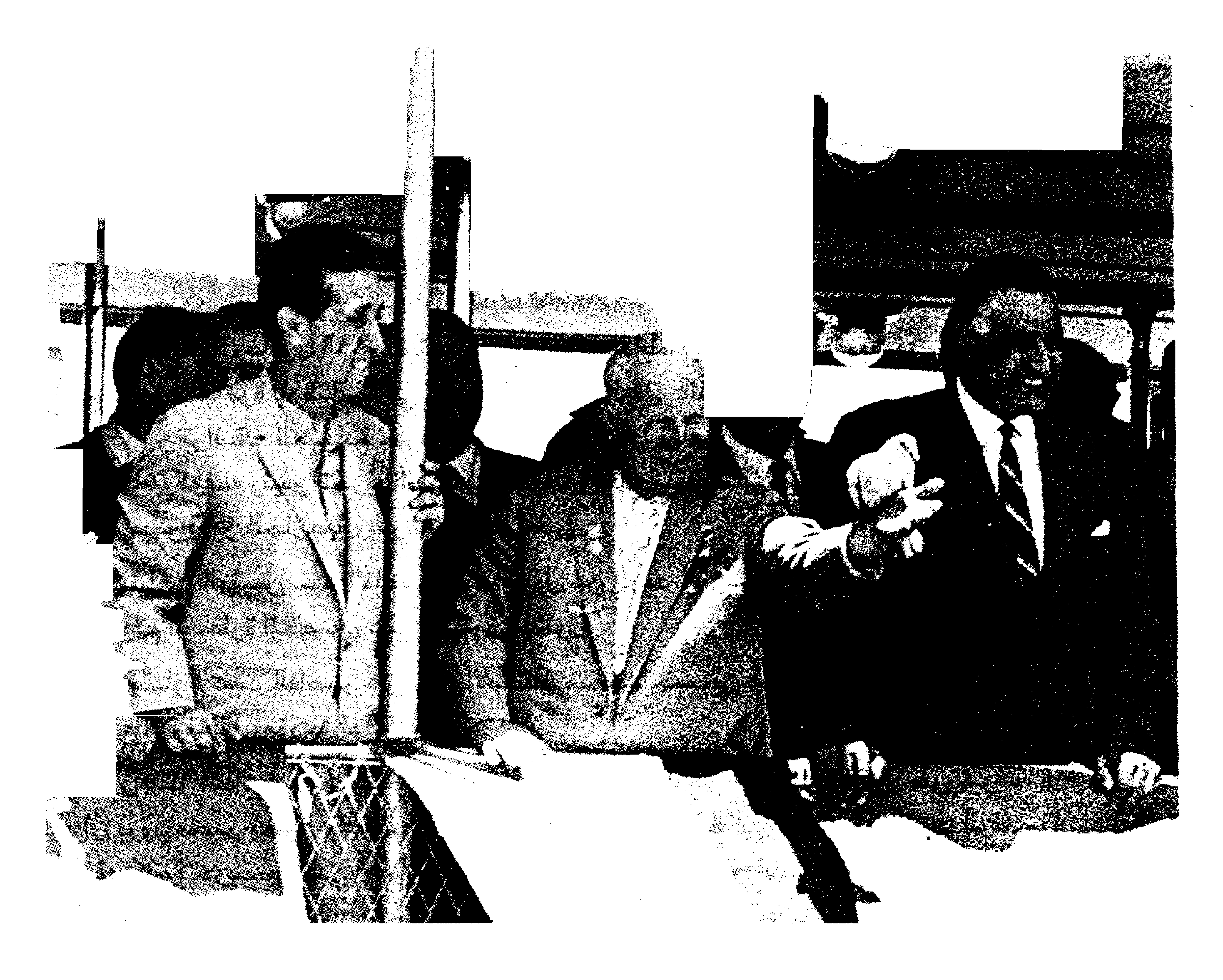
وأبلغت الرئيس عبد الناصر بالتفاصيل عن الوفد الروسى الذين أُرسلت جوازات سفرهم للسفارة للحصول على تأشيرة الدخول.

وسارع عبد الناصر بإرسال الأستاذ محمد حسنين هيكل إلى موسكو ليكون مسجلا ومعلقا ومؤرخا لهذه الرحلة.

وأقلتنا الطائرة من موسكو إلى ميناء أوديسا على البحر الأسود فقد قرر خروشوف أن يزور مصر بحرا. وأعتقد أن ذلك راجع إلى الحمولة الكبيرة التى صاحبت الوفد فقد كانوا حريصين على الأمن وضمان جميع الأغذية والمشروبات... الخ.

وفى ميناء أوديسا، دُعينا، هيكل وأنا، إلى مأدبة غداء أقامها «شيليست» السكرتير الأول للحزب الشيوعى فى أوكرانيا وكبار الشخصيات فى الجمهورية الأوكرانية. وبدأت الأنخاب والخطب وكان المديح لخروشوف ومآثره. وصاح فيهم خروشوف ما هذه الخطب!! وكأنكم تعتقدون أنى ذاهب إلى مصر ولن أعود لكم حيا!! وقلت أنا كلمة باللغة الروسية تحية لخروشوف، ثم ركبنا السفينة أرمينيا التى أقلتنا إلى الإسكندرية. وفى المساء دخلنا، هيكل وأنا، إلى مائدة العشاء وكان «خروشوف» قد وصل قبلنا فأشار إلينا أن نجلس بجانبه أنا على يمينه وهيكل على يساره. وقال هذا هو مكانكما الدائم طول مدة الرحلة فى السفينة. وكان خروشوف ودودا مضيافا. وظل طول الرحلة يحكى نوادر طريفة وتعليقات مرحة، وكان يجيد ذلك تمام الإجادة ثم جاءنى جروميكو وزير الخارجية وتساءل عن الآتى:

كيف يخاطب خروشوف جمال عبد الناصر، هل يخاطبه بصاحب الفخامة أو صاحب السعادة. فأجبته بأن العلاقات بين الزعيمين أصبحت قوية وأقل رسمية بعد زيارة ابنته رادا لمصر وهدى كريمة الرئيس عبد الناصر لموسكو. واقترحت عليه أن يخاطبه «الصديق العزيز الرئيس جمال عبد الناصر» ووافق جروميكو واستحسن خروشوف هذه الصيغة.



الرؤساء عبدالناصر وخروشوف وبن بيللا وعبدالسلام عارف أثناء احتفالات السد

ثم سأل: وهل يذكر خروشوف فى آخر خطابه تحية عبد الناصر والمشير عامر ورفاقهما.

فأشرت عليه بأن يذكر خروشوف اسم الرئيس فقط إلا فى مناسبة واحدة وهى احتفال القوات المسلحة به فيقدم الشكر للرئيس والمشير عبد الحكيم عامر.

وفعلا تم تنفيذ ذلك أيضا.

ووصلت السفينة «أرمينيا» إلى ميناء الإسكندرية يوم ٩سبتمبر ١٩٦٤، واستقبلها على رصيف الميناء المشير عامر وجموع من الشعب. وكان تعليق خروشوف أن الشعب صحته طيبة، فرد المشير بعد تحيته وعناقه «ولسه بعد السد العالى».

واصطحبه المشير إلى محطة الركاب وكبار الزوار، حيث كان فى استقباله الرئيس

جمال عبد الناصر وكبار رجال الدولة. وسار الموكب الرئيسى فى سيارة مكشوفة، وقف فيها الرئيس وخروشوف وسط جموع هائلة وهادرة غير مسبوقة. وذهل خروشوف من مقابلة الشعب كما ذهل من أنه لا يمكن ترتيب إجراءات أمن لحماية الرئيس وسط هذه الجموع الغفيرة التى يملؤها الحماس والانفعال، ودخلنا إلى قصر رأس التين للاستراحة.

ثم زرنا معالم الاسكندرية ومنها قصر المنتزة. وكان مدير القصر يشرح لخروشوف فخامة القصر وكيف كان يعيش الملك فى كل هذا الترف وخرجنا من القصر والتف حوله الصحفيون وسألوا خروشوف عن انطباعاته.

كانوا ينتظرون خطبة عنترية ضد الملكية والاستعمار والامبريالية، وإذا بخروشوف يفاجئهم بقوله «أنا مش فاهم طردتم الراجل ده ليه؟» طبعا كان فى ذهنه المقارنة مع قصور القياصرة المذهلة فى الفخامة والثراء والتى يتضاءل بجانبها قصر المنتزة. وأخيرا ركبنا القطار إلى القاهرة ولأول مرة يرى خروشوف جماهير مصطفة على جانبى قضبان السكة الحديد ومحطاتها من الإسكندرية إلى القاهرة.

ونزل خروشوف فى قصر القبة وقام بزيارة لمعالم القاهرة وكثير من مصانعها والآثار المصرية العظيمة، الأهرام وأبو الهول والمتحف المصرى... الخ.

وكان أكبر حشد شاهده فى سرادق لمصانع أبو زعبل، وكان عدد العمال هائلا لا يتناسب مع إنتاجها وكان تعليق خروشوف :

« ماهذا العدد الهائل من العمال!! وماهو إنتاجهم!! أحسن لكم أن تسرحوهم وتعطوا لهم أجرهم لأنهم بالقطع يعطلون الإنتاج!»

ودارت مناقشة مع الرئيس عبد الناصر حول ضرورة توظيف العمالة، ولكن خروشوف كان من رأيه أن الفيصل هو التكنولوجيا العالية، فهى التى تنفع وتدر دخلا للدولة لإعادة استثمار القيمة المضافة. وفى النهاية قال لى عبد الناصر «خد صاحبك ده ووصله لقصر القبة». وفى السيارة قلت لخروشوف إننا دولة محدودة الموارد وكثيفة السكان، فرد خروشوف «حتى أنت تردد هذا الكلام الفارغ. انظر إلى اليابان لا يوجد فى باطن أرضها سوى البراكين، ولكنها تملك الإنسان المدرب الواعى وانظر إلى إنتاجها!! ثم إنها أكثر منكم سكانا». والحقيقة أن خروشوف كان يؤمن إيمانا قاطعا بالتكنولوجيا وكان سابقا لعصره فى الاتحاد السوفيتى. وحتى عندما زار الهرم الأكبر علق قائلا إن التكنولوجيا الحديثة تستطيع أن تبنى أكبر منه فى مدة وجيزة ونسى أنه بنى منذ أربعة آلاف سنة.



الرئيس جمال عبدالناصر يهدى إلى نيشان الجمهورية من الدرجة الأولى فى الاحتفال بنهاية المرحلة الأولى من السد العالى أثناء زيارة خروشوف - أكتوبر ١٩٦٤

وحان وقت زيارة السد العالى وما أنجز منه، فذهبت بصحبة الرئيس عبد الناصر وخروشوف فى طائرة روسية بأربعة محركات نفاثة مروحية «اليوشين»، أصر خروشوف على التنقل بها طوال رحلته وكان ذلك لدواعى الأمن أيضا.

وكانت أول المناسبة هى إزالة الساتر الترابى الذى كان يفصل قناة التحويل بأنفاقها الضخمة المشيدة لتوربينات الكهرباء عن مياه النيل العالية جدا، ليكون سقوط المياه مناسبا لإدارة التوربينات. وكانت قد جرت أبحاث عديدة فى معهد الدراسات الهيدرولوكية بموسكو (هندسة المياه). واستقرت التجارب على إجراء تفجير وسط هذا الساتر الترابى فى الجزء العلوى منه، ثم تتولى مياه النيل المحجوزة على ارتفاع كبير إزاحة الساتر تماما وفعلا حدث ذلك بسهولة ويسر.

وقد فجر هذا الساتر كل من عبد الناصر وخروشوف، بحضور الرئيس الجزائرى

أحمد بن بيللا والرئيس العراقى عبد السلام عارف. وكان منظرا فريدا عند انسياب الماء فى القناة ثم دوى صوت كصوت الرعد عند دخول المياه بقوة هائلة داخل أنفاق محطة الكهرباء وخروجها منها باندفاع بالغ قذف بالماء فى الهواء لمسافة أكثر من ١٠٠ متر.

ثم ركبنا الطائرة الروسية إلى رأس بناس على البحر الأحمر. وفى الطائرة جاءت المضيفة الروسية، وطلبت من خروشوف ضرورة ربط حزام المقعد فقال لها «تعالى أنت واربطيه»، فحاولت المضيفة ذلك ولكنها لم تستطع لكبر حجم «كِرْش» خروشوف. وأخذ خروشوف يضحك ويهتز كرشه. والمضيفة ترتبك وتحاول ربط الحزام دون جدوى ووجهها يزداد احمرار فى كل محاولة حتى يئست وتركته يضحك.

وصلنا رأس بناس على البحر الأحمر وكانت السفينة سوريا تنتظرنا. قمنا بهذه الرحلة لقضاء يومين فى هذا المكان الجميل حتى يتم استكمال سد الفتحة الباقية فى جسم السد وكانت صغيرة نسبيا لأن المياه تحولت إلى قناة التحويل.

كان على ظهر السفينة معنا مجموعة من قيادة الثورة والرئيس بن بيللا والرئيس عبد السلام عارف، الذى كان يرافقه الصديق أمين هويدى، والذى بذل جهدا كبيرا فى ترويض عبد السلام عارف وتهدئته. وكان على رأس الحضور عبد الناصر وخروشوف طبعا. ودارت على ظهر السفينة فى هذه الأيام التى قضيناها على البحر الأحمر مناقشات كانت فى غاية الأهمية والطرافة.

فقد تناولوا قضية الدين والقومية والأممية الاشتراكية ودورها فى تحرير الشعوب. وهاجم خروشوف القومية والدين كعوامل أساسية فى التحرير. وانبرى له الرئيس عبد الناصر الذى تكلم بهدوء وموضوعية، وتبعه عبد السلام عارف، وكان خروشوف لا يطيقه لأن الانقلاب الذى حدث فى العراق بقيادته قضى على الشيوعية فى العراق. وجاء دور بن بيللا الذى كان يتكلم العربية بصعوبة وحسم الموقف ونظر إلى خروشوف وقال له: لولا هذا الرجل وأشار إلى عبد الناصر لما قامت ثورة الجزائر!! ثم ألا تعرف موقف الحزب الشيوعى الجزائرى!! لقد كان رافضا استقلال الجزائر ومؤيدا انضمامها إلى فرنسا، لأن هذا كان موقف الحزب الشيوعى الفرنسى! لقد حاربنا فى الجزائر باسم الدين وبفضل مساعدات مصر!! وظل النقاش حاميا إلى أن انتقلنا إلى قضايا أخرى فقد سأل عبد الناصر خروشوف كيف يرى حل مشكلة الإسكان؟

قال خروشوف إنه لابد من سلوك ٣ طرق لحل هذه القضية

أولا: أن تتركوا الأغنياء يقيمون عماراتهم الفاخرة لأن هذا سيجمل بلدكم ولكن يجب ألا تُعطى لهم أية تسهيلات من الحكومة.

ثانيا: بالنسبة للعمال يجب أن تقيم الحكومة مساكن لهم بجوار مصانعهم مع مدارسهم ومستشفياتهم... الخ.

ثالثا: أما عن الطبقة الوسطى وموظفى الحكومة، فهؤلاء يجب على الحكومة أن تقدم لهم المساعدات والقروض... الخ. لكى يستطيعوا بناء مساكنهم. ثم سأله عبد الناصر عن: كيف يرى المشكلة الزراعية؟

فقال خروشوف «لا تلمسوا الأرض التى فى وادى النيل، فالفلاح بطبعه محافظ يقدس الأرض وإذا كان يملك قطعة أرض يغطيها «كلب» فهو على استعداد أن يموت من أجلها. أما الأراضى المستصلحة الجديدة فعليكم أن تقيموا فيها علاقات إنتاجية مختلفة أساسها الميكنة والمحاصيل الزراعية ذات العائد الأكبر والتى تدار على قواعد علمية وكيميائية» وكان يحبذ المزارع الحكومية عالية الميكنة ليتخلص بقدر الإمكان من رجعية الفلاح.

وبهذه المناسبة أهدى خروشوف لمصر مزرعة مساحتها ١٠٠٠٠ (عشرة آلاف) فدان كاملة الميكنة كنموذج لما تجب أن تكون عليه المزارع الحكومية.

كانت أهم القضايا التى طرحت قضية الاستفادة من كهربة السد العالى وقال خروشوف:

ليس لديكم سوى نهر واحد وهو نهر النيل وليس لكم فرصة أخرى لبناء سد بهذا الحجم وتوليد هذه الكمية الضخمة من الكهرباء وتخزين هذه الكمية الهائلة من المياه، وعلى ذلك فعليكم أن تدرسوا بعناية وتأن المشروعات الصناعية والزراعية التى تستخدم كل هذه الإمكانيات الجديدة التى إذا أحسن استخدامها فستنقلكم نقلة حضارية جديدة.

وأود أن أحذركم أننا كنا نتعامل مع كمية الكهرباء المولدة من سدودنا باستهتار وكنا نظن أنها ستزيد على حاجتنا ولكن الحقيقة أننا استهلكناها وأصبحنا فى حاجة إلى المزيد منها. وبالنسبة لكم فإن كمية الكهرباء المولدة من السد، ونظرا لضغطها العالى، فإن ذلك يملى عليكم أن تكونوا حذرين فى استخدامها الاستخدام الأمثل.

وعندما دعينا للغداء قال خروشوف وهو يسير خلف عبد الناصر بقليل: نحن وراء الفارس الذى يتبع حصانه، ورد الرئيس عبد الناصر الحمد الله اللى مخلنيش أقل من ذلك !! وضحك.

والحقيقة أن النقاش فوق السفينة كان جادا وممتعا. وكان يبدو على خروشوف أنه يخص بن بيللا باهتمامه ورعايته، بينما كان متجهما متبرما كلما تكلم مع عبد السلام عارف وكان كلامه معه قليلا جدا. وقام السيد أمين هويدى بترضيته والتهوين عليه. وقد تخلل المناقشات مناسبات للترويح قضيناها فى صيد السمك. وكان حظى سعيدا فاصطدت سمكتى تونة تزن الواحدة حوالى ١٥ كيلو جراما. وعندما عدت إلى السفينة وصلت متأخرا، وكان الكل على مائدة الطعام لتناول العشاء فقال الرئيس: « كنت فين يا أستاذ؟ فحكيت له قصة السمكتين ولم يصدقنى عبد الناصر، وقال طيب ورينا السمكتين فذهبت وحملتهما إلى قاعة الطعام كل فى يد. وصفق خروشوف وبعض الموجودين وقال عبد الناصر:«طيب حضرهم لنا لكى نذوق سمكك».

وعدنا إلى أسوان لتكملة احتفالات السد العالى، وكانت المرحلة الأخيرة هى استكمال جسم السد لكى يصبح النيل لأول مرة فى تاريخه «ممنوعا من المرور تماما» ويتم غلقه.

وكانت لحظات مؤثرة للغاية، فكان جميع المدعوين فى زوارق، وأتت عشرات اللوريات الضخمة ترمى الحجارة لتردم الفتحة الباقية فى السد وأتت البلدوزرات الهادرة لكى تسوى الصخور فى الفتحة. وعندما اقتربت الفتحة من نهايتها رمى عمال كثيرون أنفسهم فى مياه النيل من شدة الحماس والتأثر عندما رأوا أن النيل العظيم قد تم إغلاقه! وتحولت المياه إلى قناة التحويل وصاح خروشوف « انتبهوا فقد حدث نفس الشئ بالنسبة لعمالنا عند إكمال سدودنا وغرق بعضهم ». لكن الحمد لله، فلم تحدث حوادث غرق ومر اليوم بسلام، وكنا جميعا فى غاية الانفعال والتأثر والفرح وكان خروشوف فى قمة سعادته.

وفى المساء أقيم احتفال كبير فى سرادق هائل. وكانت الأمسية فى غاية الروعة ولكن تخللها مساجلات عنيفة بين خروشوف وعبد السلام عارف الذى خطب فى هذا الحفل مرتجلا وكان لا يحسن الارتجال.

تكلم الرئيس عبد الناصر أولا فشكر خروشوف والاتحاد السوفيتى شعبا وحكومة، ثم شرح معركة السد وتأميم قناة السويس، وأخيرا عدد المنافع الهائلة من إقامة السد العالى. وشكر الرجال الذين عملوا فى هذا السد فى ظروف مناخية غاية فى الصعوبة والقسوة.

وتكلم المهندس والرجل العظيم المتواضع المتفانى فى عمله، صدقى سليمان، الذى

كان على رأس العاملين عندما دخل فى مقدمتهم الأنفاق بعد حدوث بعض الانهيارات فيها. وأعطى مثلا فى شجاعة القائد وروعة قيادته. ثم تكلم عبد السلام عارف مرتجلا وبصوت جهورى، وكان قليل الثقافة «مفلطح» الفكر، فشكر السوفيت بكلمات قليلة، ثم انفجر فى خطاب حماسى، ولم يجد ما يقوله سوى العروبة والقومية العربية والوحدة العربية وتاريخ العرب المجيد وتراثهم الخالد... الخ.

وتبعه خروشوف وكان بادى الغضب والتحفز. ورد على عبد السلام عارف بعنف بالغ، وكان كما قلت يضمر له الحقد لسلوكه مع شيوعيى العراق. وقال خروشوف بانفعال شديد: «ما هذا الكلام الذى أسمعه قومية عربية، قومية عربية وحدة عربية كل شئ عرب فى عرب فأين وجودنا نحن الروس؟ أليس لنا وجود؟ يعنى علينا أن نرحل؟ لقد بنينا السد العالى للشعب المصرى والفلاحين والعمال المصريين - إنهم أقرب إلينا وإلى عمالنا وقلوبنا. إن المصالح الحقيقية والعلاقات الحميمة تكون بين الشعوب. أما الكلام عن القومية وكأنها هى كل شىء وهى التى بنت السد العالى فهذا كلام لا معنى له». واستمر فى الحديث عن الأفكار الماركسية اللينينية. وختم كلامه بتحية الوحدة بين الشعوب وبين العمال والفلاحين! وفى نهاية الاحتفال سلم خروشوف على الجميع ماعدا عبد السلام عارف.

وكانت زوجة خروشوف تجلس فى الصف الأول، وكانت سيدة عاقلة وغاية فى الهدوء والإتزان، فالتفتت إلىَّ وكنت جالسا خلفها مباشرة وقالت : « يا مراد مش برضه خروشوف مالوش حق يقول هذا الكلام؟» وكان هذا تعليقها على كلام خروشوف الحاد أثناء خطابه.

فقلت لها لا تشغلى بالك فنحن نعتبر خروشوف أخا أكبر لنا وله أن يقول أى شىء يحلو له.

وجاء خروشوف وسلم على وقال لى ضاحكا وهو يقصد عبد السلام عارف «الواحد ساعات يضطر إلى المبيت مع معزة فى حجرة واحدة».

وعدنا إلى القاهرة وعقدنا آخر جلساتنا. وقد أسعد الرئيس عبد الناصر أن خروشوف وافق على إقراض مصر مبلغ ٢٢٠ مليون دولار، علاوة على ٣٠ مليون كان السوفيت قد وافقوا عليها للمشير عامر أثناء زيارته لموسكو ١٩٦٣، فيكون المجموع ٢٥٠ مليون دولار - بأسعار ١٩٦٤ - لكى نقيم المشروعات التى ستنفذ بعد السد العالى. هذا وجدير بالذكر أن قرض السد العالى كان منفصلا عن القرض الجديد، تسدد كل

هذه القروض فى خلال ١٠ ـ ١٥ سنة، وبفائدة ٢,٥٪ . وبلغت قروض السد العالى بمرحلتيه ١٣٠ مليون دولار «بالجنيه الحسابى» فقط هذا بالاضافة إلى هدية المزرعة الآلية ومساحتها ١٠٠٠٠ فدان.

وكل هذه الملايين كانت تقيّم على أساس أنها جنيهات مصرية حسابية وتسدد من منتجات زراعية وصناعية وبضائع استهلاكية مختلفة كالأثاث والأحذية... الخ.

والحقيقة أن الزيارة كانت ناجحة من جميع الوجوه. ووزع خروشوف علينا النياشين وحصلت شخصيا على وسام العمل الاشتراكى. ومن المفارقات أن عثمان أحمد عثمان نال هذا الوسام أيضا!!

وعاد خروشوف بعد أن انتهت المرحلة الأولى للسد العالى وبدأ تخزين الماء أمامه ومضى العمل بهمة ونشاط للانتهاء من المرحلة الثانية فى ديسمبر ١٩٧٠.

ومما يذكر أننى وقعت على قرض منفصل قيمته ٣٦ مليون دولار «بالجنيه الحسابى» نيابة عن المهندس صدقى سليمان، وذلك لإنشاء خطوط الكهرباء بأبراجها ومحطات تحويلها وتفرعاتها من أسوان للإسكندرية، ولو أقمنا هذه الخطوط الآن لكلفتنا مليارات الدولارات!!

وكل هذه القروض كانت تسدد كما قلت من صادراتنا وبفائدة ٢٠,٥٪ . وأقول للذين قاموا بحملة مسعورة ضد بناء السد، أنه أنقذ مصر من مجاعة فى سنوات الجفاف التى كانت لتستمر بضع سنين، وكذلك أنقذ مصر من الغرق عندما كان الفيضان يأتى عاليا شديد الخطر. ولولا السد العالى لما كانت هناك بحيرة ناصر والمشروعات الكبرى التى نقوم بها الآن مثل توشكى وترعة السلام والتوسع الزراعى الكبير فى غرب الدلتا بمحطات الرفع العملاقة وقنواته المختلفة، ولنا عودة إلى ذلك فيما بعد.

وما يذكر أن الجانب السوفيتى أوصى بالمحافظة على كل فريق العمل بالسد العالى على أن يكون القوة الضاربة لمشروعاتنا الكبيرة القادمة بما له من خبرات فى جميع ميادين التشييد.

زيارة هدى عبدالناصر لموسكو

قبل زيارة خروشوف لمصر زرات هدى عبد الناصر الاتحاد السوفيتى فى مارس ١٩٦٣، وذلك رَدًا على زيارة «رادا» ابنة خروشوف وزوجها «دجوبى». وقد قوبلت «هدى» بحفاوة بالغة. وكان خروشوف يشرف بنفسه على برنامج زيارتها ودعاها لزيارة

«الداتشا» أى البيت الريفى فى غابات تقع حول موسكو. وكنت معها فى هذه الزيارة واستقبلها خروشوف شخصيا وزوجته « نينا بتروفنا»، وكان معها الأخ العزيز محمد أحمد وقضينا وقتا ممتعا وركبنا «الترويكا»، وهى عربة تجرها ٣ خيول وتنزلق فوق الثلوج. وجلست هدى فى العربة بين خروشوف وبينى. وألبسها خروشوف بنفسه معطفا ثقيلا يقيها من شدة البرد خصوصا والعربة تنزلق على الجليد.

وجلست السيدات حرم خروشوف وهدى وحرمى بعد ذلك داخل البيت للتدفئة. ودعانى خروشوف لكى نتنزه فى الغابات مشيا فوق الثلوج. وتطرقنا إلى بعض القضايا الثنائية والعلاقات فيما بيننا، وكان على رأسها السد العالى وإمكانية تأجيل افتتاحه إلى مايو ٦٥. ولكنى أبلغته بإصرار الرئيس جمال عبد الناصر على عدم التأجيل ولابد من الاحتفال به فى ١٤ مايو ٦٤. فقال وهو كذلك سنرسل لكم أحسن خبير لدينا فى بناء السدود وهو «الكسندروف» بدلا من «كاميزين». ثم وصلنا إلى مزرعة للدواجن وفيها بعض الأرانب، وقلت له «تعرف يارفيق خروشوف أننى أحب الأرانب»، فقال وأنا كذلك ثم سألته سؤالا اعتقدت أنه سؤال ذكى لماح عن: «كيف يشرب الأرنب والثلوج تحيط به من جميع الأركان؟» فأخذ خروشوف يضحك ويقهقه ثم صاح فِى، شُوف الإفريقى !! كيف يشرب الأرنب؟؟. يا أخى يلحس الثلج!!» وضحكت بدورى على سؤالى الساذج وعدنا إلى بيته. وبمجرد وصولنا صاح فى زوجته «نينا بتروفنا»!! اذهبى وجهزى «أرنب» لغالب لأنه يحب الأرانب!! وانتظرنا إلى أن جاءت الأرانب وكان واحد منها بريا وآخر منزليا!! ولقد تأثرت كثيرا من هذه اللفتة وتساءلت بينى وبين نفسى «هل يحدث ذلك من رئيس دولة لسفير؟ ويحدث هذا من الرجل الذى كان يُعد ثانى أقوى رجل فى العالم بعد الرئيس الأمريكى؟» وعموما عكست هذه اللفتة كرم الفلاح الروسى وسلوكه. ودار بعد الغداء حديث ممتع مع خروشوف حول اتساع الاتحاد السوفيتى وثرواته وإمكانياته. وكان مما قاله « لدينا صواريخ تستطيع إسقاط ذُبابة فى الفضاء!!» ولكنه اعترف بحاجة سيبيريا وأنحاء كثيرة فى الاتحاد السوفيتى إلى استثمارات فوق الخيال لبناء البنية الأساسية ووسائل المواصلات والاتصالات ورفع مستوى معيشة شعوبها... الخ.

ولقد تعجبت عندما قابلت «ميكويان» النائب الأول لخروشوف فى اليوم الثانى مباشرة، والذى قال لى إن خروشوف أبلغه بلقائى معه أمس وأنه كان مسرورا بهذا اللقاء. وقال عنى بعض كلمات تتسم بالمجاملة فكنت أتحدث معه باللغة الروسية التى

كنت أجيدها، أما الآن فقد نسيت الكثير منها، فقد مضى ٣٠ عاما على تركى الاتحاد السوفيتى.

المهم أن خروشوف دعا هدى عبد الناصر لمشاهدة حفل فاخر فى الكرملين فى إحدى المناسبات. وانبهرت بكل هذه الفخامة والتعظيم وحياها خروشوف تحية خاصة. كما زارت قصر الكرملين وغيره من القصور الشاهقة للقياصرة. وشاهدت إحدى عروض الباليه، وأظنه بحيرة البجع. وكانت الحفاوة بها بالغة فقد دعت زوجتى زوجات الزعماء السوفيت على حفل شاى فى السفارة على شرف هدى. وقبلت الدعوة زوجات كل من خروشوف، بريجنيف، كاسيجين وجروميكو، أى زوجات «الرئيس، والسكرتير الثانى للحزب، ونائب رئيس الوزراء، ووزير الخارجية وكثيرات غيرهن!!» وكان هذا قمة التقدير والحفاوة.

والحقيقة أنهم أعجبوا بهدى كثيرا وتأثروا من سلوكها وحديثها. فكانت فتاة شابة غاية فى البساطة والتواضع ذكية تتدخل فى الحديث فى الأوقات المناسبة، وبالأسلوب المناسب، مجاملة ومضيافة والحقيقة أنها شرفت بلدها ووالدها وشرفتنا جميعا.

وحدث أثناء زيارتها، أن جاءت الأخبار بمصرع عبد الكريم قاسم وحدوث انقلاب عسكرى فى العراق. وكان عبد الكريم قاسم قد أبعد الشيوعيين عن السيطرة على الحكم. وعلى ذلك لم يحزن السوفيت عليه كثيرا، ولكن المهم أن الانقلاب الذى وقع وعلى رأسه عبد السلام عارف بدأ ينكل بالشيوعيين ويلاحقهم بالقتل والسجن والتعذيب!

وانتهت زيارة هدى وقد أفادتنى هذه الزيارة فائدة كبيرة. فقد توطدت علاقتى بخروشوف حتى أصبحت علاقة أستطيع أن أصفها بأنها حميمة. والحقيقة أننى كنت أحب هذا الرجل وأعتقد أنه كان يبادلنى نفس الشعور، فأنا السفير الوحيد الذى ذكره فى كتابه «خروشوف يتذكر» سواء من سفراء من الغرب أو الشرق. وقد شمل كتابه فقرة خاصة بى ذكر فيها تقديره وإعجابه وأننى كنت أترجم أحاديث شخصية بينه وبين عبد الناصر، وختمها بقوله: «ولقد كنا نحترمه». ووصلت العلاقة فيما بيننا لدرجة أن أسرّ إلىّ فى إحدى حفلات الاستقبال بأن بن بيللا يطلب أسلحة لأنه فى حالة حرب مع المغرب حول منطقة «تندوف» على الحدود بين البلدين. وطلب منى أن أبلغ الرئيس عبد الناصر بأن يرسل إلى بن بيللا الأسلحة وسيقوم الاتحاد السوفيتى بتعويضها.

وكانت تدور بيننا أحاديث خاصة يعرب فيها عن رأيه فى كثير من الأمور. وكان من أهمها أنه سيحدث تغييرا شاملا للحزب الشيوعى السوفيتى، وفى تقسيم الاتحاد نفسه جغرافيا ونوعيا. وفعلا حدث هذا وقسم الحزب إلى فرعين صناعى، وزراعى. ثم قسم الاتحاد السوفيتى إلى تجمعات اقتصادية وليس على أساس تقسيم إدارى أى جمهوريات، وللأسف كان هذا الإجراء من أهم أسباب عزله.

وسألته مرة عن مصير «مالينكوف» وكان رئيسا للوزراء بعد ستالين فأجاب «إننا عيناه مديرا لمحطة كهربائية «فول أوتوماتيك» حتى لا يستخدم عقله!!»

زيارة السيد على صبرى لموسكو

وتأتى أهمية هذه الزيارة من كونها آخر مناسبة يظهر فيها خروشوف. فقد عزل بعد هذه الزيارة بأسبوع واحد. كان الوفد المرافق للسيد على صبرى كبير العدد فقد كان معه وفد صناعى برئاسة الدكتور عزيز صدقى وزير الصناعة ويصحبه جميع رؤساء المؤسسات الصناعية، والسيد عبد المحسن أبو النور وزير الزراعة ويصحبه رؤساء المؤسسات الزراعية. وتجمع جميع أعضاء الوفد فى مطار موسكو لاستقبال السيد على صبرى الذى وصل إلى موسكو بعد وصولهم، وكان فى استقباله خروشوف لكونه رئيس الوزراء السوفيتى.

أخذ خروشوف يصافح كل فرد فى هذا الوفد الذى كان يقترب من مائة شخص، وأخيرا التفت إلىَّ خروشوف وقال مازحا « هو لسه فى حد باقى فى مصر.»

أتى هذا الوفد للمناقشة حول الاستفادة من القرض الذى قدمه خروشوف أثناء احتفال السد العالى. ولكن عبد المحسن أبو النور طلب قرضا جديدا لاستصلاح ٢٥٠ ألف فدان، ولم يوافق خروشوف على طلبه لأن القرض سيكون ضخما، وعارض بشدة، ولكن الوفد المصرى ضغط ضغطا شديدا على خروشوف الذى صاح بعصبية « لا أدرى لماذا تضغطون على أصدقائكم وتحرجونهم هذا الإحراج؟؟»

وتعجبت من كلام خروشوف فهو يعنى وجود معارضة شديدة ضده فى المكتب السياسى وضد زيادة القروض إلى هذا الحد الذى يطالب به الوفد المصرى، ولكن بصراحة لم أكن أتصور مطلقا أن المكتب السياسى السوفيتى يمكن أن يطيح بخروشوف.

ولكن بعد أن عُزل أدركت أن خروشوف كان يشعر بالخطر واستاء كثيرا من ضغط

• الرئيس جمال عبدالناصر فى إحدى زياراته لموسكو مع أعضاء السفارة المصرية

الوفد المصرى، وأحرج فعلا واضطر للموافقة، فقد وصل من مصر منذ ٤ أشهر فقط بعد تكريم غير مسبوق له فى أى بلد.

عزل خروشوف

و فى ١٤ سبتمبر ١٩٦٤، أعلن رسميا عزل خروشوف بعدما لا يزيد على أسبوع من زيارة الوفد المصرى. ولا داعى لتحليل كامل لأسباب عزله. ولكن كان سخاؤه فى تقديم كل هذه القروض لمصر أحد الأسباب التى ذكرت فى محاكمته أمام اللجنة المركزية.

كان عزل خروشوف نتيجة لمؤامرة رأسها بريجنيف وشيلبين، ورتبوا عزله بإتقان فقد كان على شاطئ البحر الأسود للراحة بعد مغادرة الوفد المصرى لموسكو، وطلبوا منه الحضور فورا لمناقشة أمور مهمة، وطلب خروشوف تأجيلها ولكنهم أصروا على حضوره.

وعندما حضر واجهه بريجنيف وأعضاء المكتب السياسى بضرورة اعتزاله والتخلى عن مناصبه فرفض. وخيروه بأن يستقيل هو بنفسه ويكرم تكريما لائقا ويصبح المواطن الأول شرفيا، ولكنه رفض وأصر على طرح القضية على اللجنة المركزية للدفاع عن نفسه. وكان يوجه الاتهام له فى اللجنة المركزية «سوسلوف». وبدا كل شىء مرتبا فى هذه الجلسة التى أدانته وعزلته بعد قائمة طويلة من الاتهامات، من أخطرها ما سبق ذكره عن تقسيم خروشوف الحزب الشيوعى إلى صناعى وزراعى، وعدوا ذلك بمثابة تدمير للحزب وسلطاته وتفكيك وحدة الاتحاد السوفيتى التى يرعاها الحزب ويؤمنها.

والحقيقة أن الأمر لا يخلو من أسباب شخصية فقد كان خروشوف يعاملهم باستخفاف، يصل أحيانا إلى درجة الإهانة. وأتذكر أن السيد على صبرى طلب مقابلة خروشوف على انفراد، وكنت أنا معه وهمّ بريجنيف بأن يتبعه، ولكنه أشار إليه إشارة فيها الكثير من التحقير وقال له «هذا ليس من شأنك»!!

وقد أراد السيد على صبرى أن يطلع خروشوف على المحادثات التى دارت بين الأنظمة الثلاث فى مصر وسوريا والعراق وأكد له أن مصر لا تعمل من أجل وحدة مع هذه الأنظمة.

وبعد عزل خروشوف، طلبت مقابلة كاسيجين الذى أصبح رئيسا للوزراء، خلفا لخروشوف، لاستطلاع اتجاهات السياسة السوفيتية الجديدة وعلاقتها مع مصر. فأكد



مع الرئيس جمال عبدالناصر أثناء إحدى زياراته لموسكو
والصورة فى السفارة المصرية

لى أن العلاقات بين البلدين ستستمر طيبة، ثم ختم كلامه بقوله «أما عن عملك هنا فى موسكو كسفير فنحن راضون عنه». وكنت أرجو أن أنقل من موسكو فقد أجهدتنى كثيرا المرحلة السابقة وكنت أرى أن علاقتى الحميمة مع خروشوف قد تؤثر سلبا على مستقبل هذه العلاقة مع القيادة السوفيتية الجديدة. ولكن الرئيس جمال عبد الناصر أصر على استمرار وجودى فى موسكو بعد حديثى مع كاسيجين.

وقد قابلت «ميكوبان» بعد ذلك وكان نائبا أول لرئيس الوزراء فى القيادة الجديدة، وكان يدعونى «مراديان» فهو أرمنى الأصل. وأكد لى أن خروشوف كان صديقا حقيقيا لكم ولكن علاقتنا مع مصر ترسمها اللجنة المركزية.

وأصبح «بريجنيف» أقوى رجل فى هذه القيادة، فقد اختير سكرتيرا عاما للحزب

الشيوعى. كذلك أصبح «شيلبين» الذى كان يرأس الكى جى بى (المخابرات) نائبا لرئيس الوزراء وسكرتيرا للجنة المركزية. ورأت القيادة الجديدة أن تشرح سياستها لطمأنة الدول الصديقة، فأوفدت إلى مصر شيلبين. وكان أهم مؤشرات القيادة الجديدة ماقاله شيلبين فى بداية شرحه وهو « لقد كنا نقدس ستالين ونحارب باسمه، وكان باعثا لقوة الكفاح والشجاعة فى نفوسنا فكيف يأتى خروشوف ويحقره هذا التحقير ثم ينقله من جانب لينين ويدفنه مع آخرين كمجرد زعيم ورئيس للاتحاد السوفيتى فى يوم من الأيام!!»

ولكنه أكد الخط السوفيتى بدعم مصر ومساعدتها. وطلب منه الرئيس عبد الناصر أن يخطب فى الاحتفال بيوم الجلاء فى بور سعيد فى ديسمبر ١٩٦٤، واهتم به الرئيس اهتماما ملحوظا واصطحبه فى القطار الخاص الذى أقلنا جميعا إلى بور سعيد لهذا الاحتفال.

وللتاريخ فقد وقف شيلبين معنا فى عدوان ١٩٦٧، وكان من قبل سكرتيرا عاما لمنظمة الشباب وطالب بتدخل الاتحاد السوفيتى. وكان مصيره ومصير من شاركوه فى رأيه الإبعاد والإنزال بدرجتهم فى السلطة. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد فقد كان هناك صراع بين القدامى والعجائز من جهة وبين شباب السلطة من جهة أخرى. وكان يطلق عليهم مجموعة «الكومسومول» (منظمة الشباب) وانتصر العجائز. ووقف الاتحاد السوفيتى متحجرا ومحنطا إلى أن انهار تماما كما نعرف جميعا.

وليس هنا مجال الخوض فى الأسباب التى أدت إلى انهياره فهى معقدة ومركبة وتحتاج إلى تحليل مستفيض وليس إلى كتاب يحوى مذكرات أسهم فيه المؤلف شخصيا وكان طرفا فيها.

خروشوف يخفف عن الشعب

كان خروشوف يؤمن بالتكنولوجيا إيمانا لا يتزعزع، ويرى أنها الأساس للصناعة السوفيتية، لكن الوقت لم يسمح له باستكمال تطبيق أفكاره، فقد أزاحوه من السلطة فى ١٥ سبتمبر ١٩٦٤.

والحقيقة أن خروشوف بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى وتصفية الستالينية، جنح إلى التخفيف والترفية عن الشعب السوفيتى. وظهر هذا واضحا فى الاهتمام بتوفير الأغذية فى الأسواق ومشاريع الإسكان الكثيرة، بعد أن كانت مشكلة

الإسكان قد استعصت إلى حد أن الرجل كان يطلق زوجته ويضطر للبقاء معها فى غرفة واحدة مما يسبب مشاكل خطيرة قد تصل إلى القتل.

وأطلق خروشوف حرية الفكر ولكن فى حدود. وأتاح قدرا من حرية التعبير لفنون الرسم والنحت والتصوير، وإن كان له موقف من التجريدية والسيريالية. وله وصف يقول «إذا أتيت بذيل حمار وتركته يشخبط على الورق فالنتيجة رسم كالسيريالية».

واتذكر أنه سمح لفرقة جاز أمريكية لأول مرة بإحياء حفلات فى موسكو وهو نفسه لم يكن يستسيغها لكنه يقول دع الشعب يستمع ويحكم بنفسه عليها.

وبدأت المسارح تعرض مسرحيات فيها الكثير من الحرية فى التناول ونقد المجتمع السوفيتى، كما شهدت انتعاشا لعروض من المسرح العالمى وفى مقدمتها أعمال شكسبير. وسمحوا بعرض روايات لديستويفسكى، وكانت محرمة مثل الأخوة كرامازوف وانتجو منها أفلاما سينمائية. وأنتجوا أفلاما عن روايات تولستوى الذى كان يحظى باحترام كبير لدى السوفيت منها رواية الحرب والسلام.

أى أن فترة حكم خروشوف شهدت نهضة أدبية وفنية وفكرية، وكان لخروشوف منطق غير مألوف بالنسبة للتفكير السائد. فقد وُجهت إليه الانتقادات مثلا لأنه اشترى قمحا من الولايات المتحدة وكندا والدول الرأسمالية ليواجه المجاعات التى حدثت فى بعض الأماكن من الاتحاد السوفيتى. وكان رده : ماذا تريدون؟ هل أفعل مثل ستالين ولا استورد القمح من أجل الكرامة وأترك الناس يموتون من المجاعة».

كان خروشوف سابقا لزمنه فى رؤيته بالمقارنة بكثيرين من زملائه فى المكتب السياسى واللجنة المركزية. وكان يشعر تماما بتخلف الاتحاد السوفيتى عن الولايات المتحدة من الناحية التكنولوجية. وكان يرى أن الحزب يجب أن يتحول إلى قوة دفع للتنمية العلمية والتكنولوجية والإدارية.

وكانت علاقتى معه أكثر من ممتازة. فقد أصبح بالنسبة لى صديقا حقيقيا. صحيح أن علاقاتى فيما بعد كانت طيبة مع بريجنيف وكاسيجين، لكن فيها بعض الكلفة بعكس علاقتى مع خروشوف التى كانت بلا حواجز.

كان خروشوف يبدو رجلا فظا. والحقيقة أن الجانب الإنسانى فيه كان كبيرا للغاية وكثيرا ما كانت تتغلب عليه مشاعره. وأتذكر أنه زار الهرم الأكبر وهو فى مصر ووقف يشاهد رجلا صعد الهرم ونزل فى عشر دقائق. وما إن نزل الرجل حتى احتضنه خروشوف وقبله والدموع فى عينه وقال له أنت بطل.

كان يهتم بالعلاقة مع مصر ويعتبرها رمزا للعلاقة بين الاتحاد السوفيتى ودول العالم الثالث كله.

وقد تغيرت كثيرا نظرته لمصر، بعد إنهاء المعارك بينه وبين الرئيس عبد الناصر من ٥٨ـ١٩٦١، وأصبح يتفاعل بشكل واضح مع مشاكل مصر، ويتابع تفاصيل كل مشروعات الاتحاد السوفيتى فيها. وقال لى: «إن السلام مهم للغاية بالنسبة لكم وأنا أنصحكم بإقامة علاقات سلام فى المنطقة فإن مستقبلكم فى السلام والتنمية والتكنولوجيا».

وذات مرة سألته : هل تريد أن تكون مصر شيوعية؟ فقال : هذا يتوقف على رغبتكم أنتم فلو رغبتم فى هذا فسأرسل لكم برقية تأييد، لكننا لا نعمل من أجل أن تكونوا شيوعيين فإن تجاربكم هى التى ستعلمكم إلى أين تذهبون.

كان خروشوف يعبر عن حبه لمصر. وأذكر أنه بعد انتهاء زيارة السيد على صبرى وسفره قال لى خروشوف : إننى أحب مصر وإن هذا الحجم من المساعدات التى قدمتها لمصر لم أكن مفوضا بها من المكتب السياسى.

وبالفعل حدث حين حاكموه فى اجتماع اللجنة المركزية الذى انتهى بعزله أن اتهموه ببعثرة أموال الاتحاد السوفيتى واتخذوا من مصر وكوبا مثلين على هذا.

وكثيرا ما سألت خروشوف عن رأيه فى الموقف الدولى. وكان من بين ماقاله لى : «إن الموقف الدولى يحمل عناصر إيجابية وعناصر سلبية، وكان ذلك بعد أزمة الصواريخ الكوبية، فلقد كان العالم على وشك مواجهة حرب نووية تدمر كل شىء، واستخلصنا من هذه المواجهة درسا بأن علينا ألا ندفع بالعالم إلى حالة الدمار الكلى لكوكب الأرض، كما أن الولايات المتحدة من جانبها قد وعت هذا الدرس جيدا والبعض من السياسيين الأمريكيين الكبار قالوا لى لقد كنت حكيما لأن أى خطأ كان يمكن أن يدمر الكرة الأرضية. أما عن العناصر السلبية، فمازال فى العالم الكثير من القنابل الهيدروجينية والذرية ولا أحد يعلم الظروف التى قد تأتى فى المستقبل وربما يقع ما يسبب توتر العلاقات الدولية بدرجة مخيفة».

وكانت لى معه مناقشات طويلة عن العداء الشديد جدا بين الاتحاد السوفيتى والصين، وقد أفاض فى شرح وتحليل كل أبعاد هذا العداء.

وحين أتأمل ما جرى للاتحاد السوفيتى بعد ذلك بسنوات، فإننى أتذكر ما كان خروشوف يردده باستمرار عن اقتناعه بأهمية التكنولوجيا والعلوم والأمل فى أن تلحق

بلاده بالولايات المتحدة من حيث التقدم. وكانت له مقولته الشهيرة للأمريكان سوف ندفنكم. وقد فهمها الأمريكيون على أنه يقصد فناءهم، لكن تفسيره لهذه المقولة أنه قصد تحقيق تقدم اقتصادى وعلمى يدفن تقدم الأمريكيين.

وكان الرئيس الأمريكى نيكسون أكثر الرؤساء الأمريكيين فهما لخروشوف وإعجابا به، وكان يعتبره أذكى من تولى الحكم فى الاتحاد السوفيتى خاصة بالنسبة لكل من جاءوا بعده.

وحدث أن قال لى علماء فى أكاديمية العلوم السوفيتية، إن لدينا أبحاثا خطيرة للغاية لكنها حبيسة أدراج المكاتب، منها أبحاث عن أجهزة تصيب بالشلل التام كل معدات الرادار وأجهزة التوجيه، لكننا ليست لدينا القوة التكنولوجية التى تملكها الولايات المتحدة والتى تساعدنا على تحويل ما لدينا من اكتشافات نظرية إلى أجهزة ومعدات عملية. وفعلا حدث أثناء مرور أحد الأقمار الصناعية الأمريكية فوق وسط سيبيريا أن توقف إرسال القمر توقفا تاما.

وكنت أحرص على دعوة المبعوثين المصريين الحاصلين على الدكتوراه هم وأساتذتهم السوفيت إلى عشاء خاص معى فى السفارة لأعلم منهم المزيد. وسألت يوما أحد هؤلاء العلماء وكان أستاذا للرياضيات والعلوم بجامعة موسكو عن انطباعه بعد عودته من زيارة الولايات المتحدة فقال لى كلمة واحدة: التكنولوجيا.

وكانت كلمة مركزة مختصرة لكن معناها وأبعادها أوسع مدى من مجرد منطوق الكلمة.

صداقتى الوثيقة مع ابنة ستالين

كان لى حظ التعرف عن قرب على سفيتلانا ابنة ستالين، وكان ذلك بالطبع بعد وفاة أبيها، حيث إننى ذهبت إلى الاتحاد السوفيتى لأول مرة عام ١٩٥٣، وكانت قد مرت على وفاته بضعة أشهر.

قامت بينى وبينها علاقة عائلية فى فترة عملى سفيرا فى موسكو، والتى بدأت منذ عام ١٩٦١، واستمرت هذه العلاقة حوالى ثلاث سنوات ونصف السنة، كنا نتبادل فيها الزيارات، وتدور بيننا أحاديث ومناقشات، جعلتنى اقترب من عالم هذه الشخصية التى ربطتها بوالدها «ستالين»، علاقة حب وكراهية فى نفس الوقت، وكان كلامها يعكس هذه العلاقة الغريبة، والذى تصرح به تعبيرا عن حقيقة شعورها.

كانت تصر على أن تدعى باسم «سفيتلانا ألا لويفا» نسبة إلى عائلة أمها. كانت تُحمّل ستالين المسئولية المباشرة عن موت أمها. فقد دأب على إهانتها أمام الضيوف وأمام أعضاء المكتب السياسى. وحدث فى حفل كبير فى الكرملين أن أهانها وبطريقة واضحة. وكان يصرخ فى وجهها فأخذتها زوجة مولوتوف وزير الخارجية، وكان من أقرب الناس إلى ستالين، إلى خارج القاعة، ثم ذهبا معا للتنزه بالسيارة فى شوارع موسكو، وعند عودتها إلى منزلها وبعد أن أصبحت وحدها وليس معها أحد انتحرت.

كانت سفيتلانا متوسطة القامة شقراء منمشة ولون شعرها أحمر طبيعى وشكلها معقول لكن لا يمكن وصفها بأنها كانت جميلة. وهى سيدة مثقفة جدا تتكلم الإنجليزية بطلاقة.

تعرفت عليها من خلال السفير الهندى ت. ك. كول، وذلك لأنها تزوجت رجلا هنديا يسمى بريجيش سينج، كان عضوا فى الحزب الشيوعى الهندى وكان قصير القامة، وديعا مثقفا، مصابا بالصدفية فى يديه وتعجبنا جميعا لماذا اختارت هذا الرجل خاصة أنه يكبرها بعدة سنوات.

كان يتعامل معها المسئولون السوفيت، وكأنها السيدة الأولى فى الكرملين والجميع يدللها. وكانت حينما تتكلم معى عن والدها، تصفه بالقسوة فى معاملته لها وأنه كان يفرض عليها حياة متقشفة، وإذا شم رائحة بارفان يتساءل فى الحال من أين جئت به؟

وقالت لى إن الذى كان يُهرِّب لى هذه البارفانات والملابس الجميلة سفير الاتحاد السوفيتى فى برلين (لدى هتلر) وكان يدعى ديكانوسوف. وأنه كان يتبع بيريا مباشرة وهو من رجاله. وذكرت لى أن بيريا كان له تأثير كبير على والدها فكان يثق فيه ثقة عمياء.

كانت سفيتلانا تنحو نحو الروحانيات وتعرفت على كاردينال لينجراد، وقامت بينها وبينه صداقة حميمة. وأعتقد أن نزعتها إلى هذه الروحانيات هى التى جعلتها تقبل الزواج من رجل هندى لما هو معروف عن الهند من جاذبية شديدة للروحانيات.

كانت سفيتلانا تهاجم ستالين هجوما شديدا، وفى نفس الوقت تحكى عنه قصصا وحكايات عظيمة جدا. فهى تنتقده و تصفه بأنه فظ غليظ القلب لا يحمل أى حس إنسانى، ويشتد فى قسوته معها إلى حد أنه ينهرها بشدة إذا لاحظ أى تغيير فى ملابسها أو سلوكها ويطلب منها أن تكون منضبطة ومتقشفة. ثم تقول لكننى كنت فى الكرملين مدللة، والكل يلاطفنى. أما أعضاء المكتب السياسى فكانوا يعاملوننى برقة كابنة ستالين.

كثيرا ما وصفت قسوته حتى فى إدارته للحزب، وأنه كان يتعامل بمنتهى الصرامة والحزم والقسوة المتناهية مع من يهمل فى الحرب. وحدث عندما وقع ابنه جيكوب فى أسر الألمان فقد أرادوا أن يبادلوه بالمارشال فون باولوس الذى أسر فى ستالينجراد، وكان رد ستالين أنا لا أبادل مارشالا بضابط صغير ورفض المبادلة، ومات ابنه فى الأسر من التعذيب.

كانت تحكى قصصا كثيرة عن طبائع ستالين حتى فى إدارته للبلاد وتنفيذ المشروعات ومعاملته لأصدقائه والتى تصل إلى حد التخلص من كثير منهم، بالقتل والتعذيب.

وقد قضى ستالين على قيادات الجيش واتهمهم بأنهم عملاء. والحقيقة أنه كانت لهم كاريزما واحترام شديد جدا من القوات المسلحة، وهم من أكفأ الضباط وعلى مستوى عالى من الكفاءة العسكرية والفنية وعلى رأسهم المارشال توخاتشيفسكى ورفاقه.

وقد روت لى أن تخلصه من أصدقائه كان يتم بطريقة فظة للغاية، حتى أن واحدا مثل بوخارين، وكان من أكثر أعضاء المكتب السياسى ثقافة وتطورا من ناحية الماركسية والاشتراكية، ركع أمام بيريا لينقذه، لكنه قتله بالمسدس بأمر ستالين، وفعل هذا مع كثيرين آخرين مثل كامينيف وزينوفييف، وتروتسكى الذى أرسل وراءه من قتله فى منفاه فى المكسيك.

كانت فى كل جلساتنا تسرد الكثير من القصص عن قسوة أبيها ووحشيته التى يتعامل بها مع من يظن أنهم اصبحوا أعداءه. وكنت أدافع (مراد غالب) عن ستالين من ناحية أنه أدار الحرب إدارة رائعة، وضرب النازى وكانوا قوة لا يمكن القضاء عليها. وكنت أقول لها صحيح أنه جبار وقاس لكن له الفضل فى نقل كل المصانع السوفيتية وعلى رأسها الصناعات العسكرية ومعامل الأبحاث إلى ما وراء الأورال أثناء الحرب العالمية الثانية. وقلت لها إن من قام بهذه العملية بتكليف منه كان كاسيجين. وعندما سئل ستالين من فعل هذا أشار إلى شاب أصفر الوجه فى الثلاثينيات وكان هو كاسيجين. وقلت لها هذا رجل كان يسابق الزمن وخاض معركة هائلة ليصل بالاتحاد السوفيتى إلى المستوى الصناعى العسكرى فى الغرب. وقد نجح فى هذا إلى حد كبير.

لكنها قالت لى : كيف تدافع عنه. هل أنت شيوعى؟ قلت: لا أنا لست شيوعيا، ولكنى لست ضد من يعتنق الشيوعية، وأعتقد أن فيها الكثير من النواحى السلبية، ولكن والدتى من قرية فى محافظة الشرقية فى مصر. ولو استطاع أحد أن يحول لى أى

شخص من فلاحي هذه القرية إلى رجل فضاء، فإني مستعد أن أغفر له أي شيء قد فعله. والحقيقة أنني كنت اتكلم بروح شاب متحمس. وقد سألتها كان أبوكي قاسيا عليك ويريد لك حياة متقشفة فكيف كانت عيشته هو ؟ دخلت إلى حجرة أخرى في منزلها وأحضرت عددا كبيرا من الصور لأبيها وقالت لي انظر إلى الصور وسوف ترى كيف كان يعيش.

في هذه الصور رأيت ستالين العظيم وأقوى رجل في العالم يجلس على شاطئ البحر الأسود يربط رأسه بمنديل مثل المنديل المحلاوي المعروف عندنا، وقد عقده في ٤ عقد على جوانب رأسه، وقلت لقد كان يستطيع أن يشترى أبدع قبعة في العالم. رأيت حجرة نومه وكانت في غاية البساطة، صحيح أن الأثاث قديم وضخم، لكن الحجرة ليس فيها أي شيء من الرفاهية بأي حال.

ثم رأيت صورة له وهو نائم في شرفة بيته خارج موسكو في الشتاء والثلج يتساقط عليه، ونوافذ الشرفة مفتوحة للهواء، وقد وضع بطانية من الفراء فوقه للتدفئة، وكان ممددا على كرسي غليظ لا شكل له.

قلت لها كيف تكرهي أباك وهو رجل متقشف يضحي برفاهيته ليعمل كل شيء لبلده؟ قالت لي: لا إن العنصر الإنساني هو أهم من أي شيء آخر، كما أن العنصر الروحاني هو أساس كل شيء في الوجود.

سألتها كيف كان يدير المكتب السياسي والقيادة العسكرية. قالت لي - وقال لي آخرون أيضا - إنه لم يكن يفرض أوامره بل كان مستمعا جيدا، وكان يجمع قادة القوات المسلحة ويجعلهم يتناقشون كما يريدون في القضية أو المشكلة أو المعركة التي تواجههم. وكان وهو يستمع إليهم يسير في الغرفة ذهابا وإيابا ينصت لكل كلمة، ثم بعد ذلك يتخذ القرار. وقالت مثلا، عندما اقترب الألمان من موسكو وأصبحوا على بعد ١٢ كيلو مترا، دعا ستالين إلى اجتماع. وتكلم المارشال جوكوف فأعجبه فكره وتخيله في الدفاع عن موسكو. وكان عندما يعجب بفكر أحد يعطيه القيادة في هذه المعركة، وشكا إليه جوكوف من أن الجنرالات في جبهة موسكو ليسوا على مستوى معركة بهذا الحجم، وطلب منه أن يغيرهم. فقال له ستالين ليس عندي غيرهم، ومن أين آتي لك بغيرهم؟ عليك أن تحارب بهؤلاء الجنرالات. وفعلا حارب بهم وانتصر في معركة موسكو.

كانت جميع التقارير التي تأتي من برلين تنفي نفيا مطلقا احتمال هجوم الألمان على الاتحاد السوفيتي.

وقال لى ميكويان، وكان من أقرب الناس إلى ستالين ووزير التجارة وقتها وعضو المكتب السياسى، إنه عندما قامت الحرب أصيب ستالين بصدمة عصبية لعدة أيام، وأصدر أوامره بعدم التعرض للجيوش الألمانية (وقد فعلوا به ما فعلته إسرائيل فى ١٩٦٧ فقد دمروا طائراته من الساعات الأولى للحرب، ودمروا المطارات)، وقال لى ميكويان أما بعد ذلك فقد تماسك ستالين وأدار هذه الحرب إدارة هائلة.

كان المنزل الذى تسكنه سفتيلانا من المنازل التى بنيت بعد الحرب العالمية الثانية عبارة عن عمارة يسكنها كبار رجال الدولة، لكن شقتها كانت متواضعة جدا ونظيفة.

وكان لها موقف ضد النظام السوفيتى، إذ لم تكن مع النظام الشيوعى. وكانت تقول لى «إنهم منافقون. لقد قلت لبولجانين، وكان رئيسا للوزراء، إننى سأتزوج هنديا، وقال لى ألم تجدى غير هذا الهندى؟ إنه رجل من بلد فقير من العالم الثالث ومن شعوب متخلفة.» ثم قالت لى هذا هو رئيس الاتحاد السوفيتى الذى ينادى بالاشتراكية ويهاجم العنصرية ويقول لى هذا الكلام. وأضافت «إننى قابلت تشيركاسوف وهو نجم سينمائى فى الاتحاد السوفيتى وكان يمكن أن يكون من أكبر نجوم السينما فى العالم لولا أنه روسى، فقلت له إننى سأتزوج رجلا هنديا فأخذ تشيركاسوف يشيد بالهند وحضارتها وثقافتها والحضارات الشرقية عموما»، وأردفت تقول «انظر إلى الفرق بين رجل مثقف مثل تشيركاسوف وبين رجل يردد الشعارات طول الليل والنهار وهو غير مقتنع بها».

وكانت علاقتها طيبة بخروشوف، كذلك بريجنيف وكاسيجين بعد عزل خروشوف، وكانوا يسألون عنها ويعرضون عليها أى مساعدة. وكانت تهتم اهتماما كبيرا بما يكتب عن أبيها.

وقد قابلت أولادها وهما ولد وبنت، وكان الولد من أب يهودى تزوجته رغما عن أبيها، (فقد تزوجت ٤ مرات والرابع أمريكى). وقد رفض ستالين أن يرى ابنها بعد ولادته لأصله اليهودى، ولم يره إلا بعد أن أصبح عمره سنتين، وربت على شعره وقال خروشى مالتشيك (هذا ولد لطيف). أما ابنتها فهى من زوجها الثانى جدانوف وكان من أقرب المقربين لستالين. وكان يشغل منصب السكرتير الأول للحزب الشيوعى فى لينينجراد واغتيل هناك. وكان زواجها منه سياسيا وليس عن حب أو حتى إعجاب.

كانت مهتمة بالاطلاع الدائم على سياسات الغرب، وتبدى إعجابا شديدا بجيسكار ديستان، وكان رئيس وزراء فرنسا وقتئذ، وبأسلوبه فى الحكم. كانت تتردد على منزلى

كثيرا، وعندما مات زوجها الهندى وحرقوا جثته كنت أقف بجانبها مباشرة وامسك بذراعيها لتهدئتها، وتوجهت بعد ذلك إلى بيتى فقد كانت صديقة لزوجتى. كان على سفيتلانا أن تقوم بنثر رماد جثمان زوجها فى أحد أنهار الهند الكبرى. واستعدت للسفر إلى الهند وحضرت إلى منزلى صباحا فى طريقها للمطار وودعتها قائلا «سفيتلانا نريد أن نراك دائما فلا تتركينا» فردت «لا تخف إنى عائدة»، ولكنها لم تعد ولجأت للهند ثم أمريكا، وكان جورج كينان والمخابرات الأمريكية الموجهين لها فى كتاباتها بعد ذلك.

حصاد ١٤ عاما من معايشة المجتمع السوفيتى

كنت على علاقة وثيقة بكثير من الكتاب والشعراء والأطباء فى الاتحاد السوفيتى. وكنا نتزاور ويدعوننى إلى منازلهم الريفية. وكانت كل مجموعة فئوية لها أماكنها المخصصة لها. كانوا على جانب كبير من الكرم. وكانت حفلاتهم تبدأ من الساعة ١٢ ظهرا حتى الثانية من صباح اليوم التالى، وهى حلقات يتخللها التزحلق على الجليد، ثم يأتى من يستطيع أن يلعب الموسيقى من الهواه، ويقوم الشعراء بإلقاء شعرهم، ويأتى الفنانون بلوحاتهم لعرضها على هذا الجمع.

كانت احتفالاتهم جماعية، فكل من هو مدعو يأتى ومعه طبق من الأطباق الروسية، منها أطباق من أطعمة الجمهوريات المختلفة. وكانوا يفرطون فى شرابهم دون عنف وكان الجو يسوده المرح والتمتع بالحياة.

كانوا يتكلمون كثيرا عن الحرية، ولكن فى حذر. وكانوا يعرفون بعضهم البعض معرفة تامة، فكثيرا ما يغيرون موضوع الحديث إذا وصل من يعتقدون أنه من أجهزة المراقبة ويحذروننى منه، ولكن هذا كان يحدث من وقت لآخر وليس بشكل دائم.

كانوا يحبون بلادهم وعاداتهم وطريقة حياتهم. حقيقة كان الفنانون والكتاب والشعراء يعيشون فى مستوى عال نسبيا. ولكن ظلت حياتهم دون أقرانهم فى الغرب. وكان هذا يؤلمهم. وكثيرا ماحكوا لى عن متاعبهم فى الحصول على سيارة روسية الصنع طبعا، وكذلك بالنسبة لشقة فى عمارة جديدة. ولم تكن لديهم القدرة على شراء شقق لأولادهم عند الزواج ولكنهم عموما كانوا يقضون وقتا سعيدا ومرحا مع بعضهم البعض.

لهم علاقات مع أقرانهم من الأمريكان من خلال التبادل الثقافى، وكانوا يتندرون على سلوكهم. فعندما يأتى الأمريكى إلى حفل مثل الذى وصفته ينغمس فى الأكل

والشرب بشكل مذهل، وعندما يزوره الروسى فى أمريكا يدعوه إلى شراب ويقول لى «ناجيبين»، وكان أشهر كتاب القصة القصيرة، إنه ذهب إلى زميله الأمريكى «على شراب» فلم يقدم له سوى Drink فعلا. وقال انتظرت طويلا لكى يقدم لى العشاء، ولكن دون جدوى، فاستأذنته بضع دقائق وذهبت إلى السيارة التى أقلتنى، فلحسن الحظ كان فى حقيبة يدى بعض الكافيار والعيش الأسود والسلمون المدخن. وبدأ الأمريكى يلتهم كل شىء قدمته وأخذنا نتحدث فى بعض الأمور الأخرى وكان عشاؤنا مما أحضرته أنا.

وكانت الشاعرة المعروفة « بلاّ أحمدولينا» وهى سوفيتية تترية الأصل تزور الولايات المتحدة، وكانت تتحدث عن طريقة المعيشة الأمريكية والثراء الهائل فى أمريكا. وفى إحدى زياراتها التجأت «بلا» للولايات المتحدة ولكنها عادت إلى الاتحاد السوفيتى بعد بضع سنين وسألتها أين تفضلين أن تعيشى فى أمريكا أم فى روسيا فقالت «لا هنا ولا هناك».

وقد تزوجت «بلا» الكاتب ناجيبين بعض الوقت، ولكن لم يدم هذا الزواج طويلا لأنها كانت فنانة وكالفرس الجامح، رغم أنها كانت جميلة ومرحة ومملوءة بالحياة.

كانت هذه الطبقة التى تكلمت عنها طبقة مميزة يرعاها الحزب والحكومة رعاية خاصة. أما الفنانات الكبار وخصوصا راقصات البالية، فكن معبودات الجماهير، ولهن منزلة خاصة لدى كبار الزعماء السوفيت، ولهن امتيازات فى المجتمع أكثر بكثير من أقرانهن فى الدول الغربية. فقد كان النظام الشيوعى يعتبر الفن والفنانين والعلم والعلماء فى مقام القديسين، الذين ينالون الاحترام الكبير من جانب السلطة، ومن جانب كبار الزعماء السوفيت. ولم نسمع عن لجوء عالم كبير وفنان مرموق للغرب، بل العكس كان الصحيح ماعدا راقصا شهيرا من أصل تترى.

كذلك كان الشاعر الروسى الشهير بيفتو شينكو من أصدقائى، ويأتى لزيارتى كثيرا فى بيتى. وفى ليلة رأس السنة أبلغنى أنه سيأتى لمصاحبتى أنا وزوجتى لكى نرى كيف يحتفل السوفيت بهذا العيد. وكان أول مكان قصدناه نادى الفنانين وهو قريب من ميدان مايكوفسكى الشهير فى موسكو. وكان احتفالا رائعا وامتلأ النادى عن آخره، وفى كل حجرة من حجراته كنت تجد مجموعة من المحتفلين منهم من يلعب الجيتار وآخر البلايكا، والكل يغنى ويرقص على نغمات الموسيقى ويقلدون رقصات جمهورياتهم المختلفة، وكانت ليلة ممتعة.

ثم اقترح بيفتوشينكو زيارة منزل أحد مشاهير الأطباء. وما إن دخلنا حتى وجدنا

مجموعة من الروس يجلسون حول طاولة كبيرة، واسترعى نظرى الوجوم المخيم عليهم جميعا وهم يحتسون الفودكا. وأخيرا وقف أحدهم واقترح نخب شعب الله المختار، ثم أعقبه آخر واقترح نخب الشعب العبقرى. وتيقنت أننا وقعنا فى زمرة مجموعة من اليهود الروس المتعصبين. ووجدت نفسى أصرخ فى وجوههم «ما هذا الذى أسمعه هل أنا فى موسكو أم فى إسرائيل أو فى معبد يهودى؟». «وهل أنتم غير شيوعيين وهل ممكن أن أسمع هذه الأنخاب فى موسكو؟».

هدأوا من روعى وتركنا هذا الوكر اليهودى. وتعجبت من السلوك اليهودى المستفز واعتقادهم بأنهم الشعب العبقرى وأن ماعداهم من الشعوب يأتون فى الدرجة الثانية، وهذا يمثل منتهى العنصرية. وقد أسفت على إلغاء الجمعية العامة لقرارها الذى يعتبر الصهيونية وجها من وجوه العنصرية وليتنا نحييه مرة ثانية.

أما عن باقى الشعب السوفيتى، فكان يعيش فى ظروف قاسية. فالشقة ذات الحجرات الأربع تسكنها ٤ عائلات بأطفالهم، وعادة ما يكونون واحدا أو اثنين على الأكثر. وللجميع مطبخ واحد وحمام واحد. وكثيرا ما كانت تحدث خلافات بل ومعارك عنيفة بين العائلات أو زوارهم.

كانت تعمل فى منزلى إحدى الشغالات الروسيات. وكانت تمتاز بقوة بدنية هائلة تفوق اثنين من العمال الرجال. وفى يوم جاءت وفى وجهها بعض الكدمات وسألت «دوسيا»، وكان هذا هو اسمها، عن السبب، فقالت إن زوجها ضربها وكانا مطلقين، ولكن لعدم وجود مأوى لأى منهما، فكانا يعيشان رغم طلاقهما فى نفس حجرتهما معا. ولما سألتها عن الذى أحدثته لزوجها من إصابات أجابت بابتسامة ساخرة أنهم نقلوه إلى المستشفى.

الحقيقة أن «خروشوف» كان أول حاكم سوفيتى يهتم بهذه المشكلة. وقام بعملية بناء هائلة لمنازل مكونة من أربعة طوابق، ولكن دون مصاعد، وكانت كلها مشيدة بطريقة الوحدات سابقة التجهيز حتى وصلوا إلى بناء حجرتين مثلا ونقلهما على لوريات ضخمة لمواقع التشييد. وزار عدد من وزراء الإسكان فى مصر مصنعا كامل الميكنة، فكانت تخلط المواد التى تبنى منها الحوائط فى الوحدة الأولى ثم تنتقل هذه المادة إلى وحدة أخرى لكبسها أتوماتيكيا فى إطار خشبى بحجم الحائط ثم تنقل على حزام متحرك إلى وحدة التجفيف ثم إلى وحدة الدهانات. وكل هذه العمليات تجرى دون تدخل أحد من العمال. وأهدى خروشوف مصنعا من هذه المصانع لمصر ولا أدرى ما مصيره الآن.

ورغم الجهود الجبارة التى بذلها خروشوف، إلا أنه تعرض لنقد لاذع لبناء عمارات من أربعة طوابق فقط فامتدت أفقيا واستهلكت أراضى شاسعة. كما كان لكل عمارة رغم حجمها الصغير جميع مستلزمات الصرف الصحى والكهرباء... الخ. وتحولوا إلى بناء العمارات الضخمة الرأسية ولكن حتى الآن لم تحل مشكلة الإسكان، وإن تحسنت كثيرا عن ذى قبل.

ورغم أن الشعب الروسى كان يعيش هذه العيشة المتقشفة، إلا أنهم كان يعشقون الفن والأدب، وكنت تراهم تزدحم بهم دور العرض الفنية والموسيقية والباليه، ويحتاج المرء لشهور انتظارا لتذكرة لحضور عرض فى هذه الدور.

كنت من المترددين يوميا على حمام السباحة الكبير فى موسكو. وقد أقيم هذا الحمام مكان كتدرائية أرثوذوكسية هُدِمت فى عهد ستالين وأقيم مكانها هذا الحمام. وكان عبارة عن دائرة قطرها حوالى ١٠٠ متر. وفى الوسط حمام أوليمبى وآخر للغطس. كان مدير الحمام يدعى «بوكتيفيتش» وتعرفت به وأصبحنا أصدقاء، ومنحنى عضوية دائمة شرفية والبطاقة التى تمنحنى العضوية.

كان بالحمام جناح خاص «سونا» وصالون كبير ملحق به وأدشاش ودورة مياه خاصة للشخصيات المهمة فى المجتمع. وكنت عضوا فى هذا الجناح الخاص بفضل «بوكتيفيتش». وقابلت فيه الكثير من الشخصيات المهمة وعلى رأسهم رائدا الفضاء تيتوف ونيكولاييف وكثير من كبار الطيارين المدنيين وبعض أبطال العالم فى ألعاب القوى. كنت أمدهم بمنتجات الغرب وعلى رأسها الشمبانيا .وكانوا يعشقونها وكذلك الكونياك الفرنسى المشهور «كورفوازييه نابليون». أما هم فكان عليهم جميع أنواع الكافيار والأسماك من جميع البحار والمحيطات والبحيرات، وأهمها بحيرة بايكال فى وسط سيبيريا وكانت أسماكا مملحة ومدخنة ومجففة وكان أطيبها من بحيرة «بايكال» ومن البحر الأبيض الشمالى بين فنلندا وروسيا فى الشمال.

تقابلت مع «تيتوف» و«نيكولاييف» كل على حدة فى أحد هذه الاجتماعات. سألت «تيتوف» عما أشيع عنه من أنه قال عندما كان فى الفضاء « نظرت إلى الأرض فوجدتها كرة هائلة معلقة فى الفضاء ولأول وهلة سألت نفسى من الذى علقها وما هى القوة الهائلة التى جعلتها تدور وهى بهذا الحجم».

قال لى «حقيقة سألت نفس هذا السؤال فى اللحظة الأولى لرؤيتها ولكننا درسنا علم الفلك فى أكاديمية رواد الفضاء وأعلم جيدا ما هى القوة التى علقتها فى هذا

الفضاء وجعلتها تدور حول نفسها وحول الشمس وعموما كان منظر الأرض ساحرا ورائعا».

كنا نجلس فى «السونا» حتى نتصبب عرقا، ونخرج مباشرة لنلقى بأنفسنا فى الثلوج الهشة المتراكمة خارج «السونا» وحول حمام السباحة، ولى بعض الصور المنشورة فى هذه المذكرات، ومن ضمنها صورة مع «بوكتيفيتش» مدير الحمام. وبعد حمام الثلج نعود مرة ثانية إلى الصالون الملحق بالسونا لكى نتذوق بعض الأسماك المملحة التى كانوا يوصون بها لتعويض الفاقد من الأملاح أثناء «السونا»، ثم نعيد هذه العملية عدة مرات وبنفس الطقوس والنظام الذى ذكرته.

والحقيقة أننى لم أكن أتصور أن الإنسان يستطيع أن يأكل شيئا بين جلسات «السونا»، ولكن وجدت الطقوس الروسية أكثر متعة وأكثر استرخاء. ففى الصالون الملحق بالسونا كنا نسترخى استرخاء كاملا وممتعا ونتبادل الأحاديث والفكاهات ونقضى فى هذه العملية أكثر من ثلاث ساعات.

أما عن حمام السباحة فكان مكشوفا شتاء وصيفا، ولكن درجة حرارة مياهه تصل إلى ٢٧ ـ ٢٨°م، ويتصاعد منه البخار فى الشتاء بكثافة فكان الإنسان يسبح فى شبورة كثيفة.

أما فى المساء فكنت أذهب مع طفلتى إلى تلال لينين لممارسة رياضة التزحلق على الثلوج. وكانت الممرات التى نتزحلق عليها كاملة الإنارة وكأنها نهار. وفى العطلات كنا نذهب إلى الغابات لممارسة التزحلق فى ممرات خاصة داخلها.

كانت هناك شاليهات للدبلوماسيين وفندق صغير لهم أيضا. والمنطقة تقع على خزان كبير لنهر الفولجا فى منطقة تدعى «زافيدوفا». وقد دعوت الصديق العزيز المهندس صدقى سليمان وزير السد العالى ورئيس الوزراء الأسبق لقضاء بعض أيام للترفيه عنه، فكان يعمل ٢٠ ساعة فى اليوم. كما دعوت صديقى الدكتور حلمى عبد الرحمن لنفس المكان الذى أعجب به إعجابا شديدا.

وعلى الجانب الآخر من هذه المجموعة من الشاليهات، كانت توجد مجموعة أخرى من الاستراحات الفاخرة لكبار الزوار. وكانوا يدعون الرئيس جمال عبد الناصر ومرافقيه أثناء زياراته للاستجمام هناك بعد جلسات المحادثات. وكل المنطقة كان يطلق عليها «زافيدوفا». وكانت معدة إعدادا غنيا بجميع أنواع الرياضات ومعدات الترفيه. وفى إحدى هذه المرات مارس الدكتور محمود فوزى رياضة صيد السمك واصطاد كمية وافرة من الأسماك واتضح أنه كان يصطاد فى مزرعة للسمك.

ومن الأماكن المشهورة فى الاتحاد السوفيتى، منطقة تسمى منطقة المياه المعدنية. وكان بها الكثير من منشآت الاستشفاء وحمامات المياه المعدنية وبها استراحات فاخرة لقادة الاتحاد السوفيتى.

وتقع هذه المنطقة شمال القوقاز وتتبع محافظة «كراسنودار». وكان «جارباتشوف» السكرتير الأول لهذه المنطقة، وتعرف فيها على القادة والزعماء السوفيت الذين يأتون إليها للاستشفاء. وكان من المترددين على هذه المنطقة أندروبوف وكان سكرتيرا للجنة المركزية ورئيسا للكى جى بى، (المخابرات السوفيتية) قرابة ١٤ سنة ثم انتخب سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى السوفيتى ورئيسا للاتحاد السوفيتى.

كان جارباتشوف قد رسم لنفسه وضعا بالنسبة لأندروبوف، الذى كان على جانب كبير من الثقافة، فلم يفرض عليه نفسه ولكنه وضع نفسه قريبا بحيث يمكن استدعاؤه فى أى وقت. وتحولت العلاقة إلى صداقة ومرافقة أندروبوف من وقت لآخر فى نزهاته فى الغابات والجبال. واستفاد جارباتشوف من هذه الصداقة فالفضل يرجع لأندروبوف لوصوله إلى أعلى سلطة.

كنت كثيرا ما أزور هذه المنطقة وكنت أقيم فى شاليهات كبار رجال الدولة. وتعرفت على البعض منهم وسمعت قصصا كثيرة عن عادات وأمزجة الكثير من الزعماء. وكان يعرض فى كل ليلة فيلم سينمائى أو عرض موسيقى.

لا أنسى حديثا دار مع أندروبوف. فقد قال إن الأمر كان سهلا أيام ستالين، وكنا نضع فى كل حجرة مكبرا للصوت متصلا بمراكز الإذاعة وكنا نقول لهم إنكم تعيشون فى مستوى أعلى من مستوى الشعوب الرأسمالية. ولكن الحرب العالمية وظهور «الترانزيستور» جعلت أى سوفيتى يستطيع سماع الإذاعات الغربية ويسمع كلاما مضادا.

كذلك كان يخرج من الاتحاد السوفيتى يوميا حوالى ١٢٠ ألفا فى وفود مختلفة ومثلهم يأتون إليه ويتكلمون عن تجربتهم ورؤيتهم للكيفية التى يعيش بها الإنسان فى الغرب.

أما فى المستقبل وهذا مهم جدا فإن أى سوفيتى يملك جهاز تليفزيون يستطيع أن يرى قنوات من الغرب من خلال الأقمار الصناعية وسوف يسمع ويرى الصورة بنفسه.

لا يمكن أن نخفى عنه أى شئ وهذا يعنى أننا لابد أن نعمل شيئا لشعبنا الذى هو فى حاجة إلى الكثير.

هذه بضع صفحات عن فترة قضيتها مع شعب، امتدت إلى حوالى ١٤ عاما. وكانت هذه السنون هى قمة نجاح التجربة السوفيتية، فكانوا الأوائل فى الفضاء والعلوم والذرة وفى معدل النمو. كما كانت هذه السنون هى قمة العلاقات بيننا وبينهم، وساعدنى هذا كثيرا وفتح لى الكثير من الأبواب. وكنت حقيقة من السفراء الأكثر اتصالا بالشعب والزعماء السوفيت وساعدتنى معرفتى باللغة الروسية وإجادتها حينئذ على الاندماج مع طبقات الشعب المختلفة. كما كان لى الكثير من الامتيازات الشخصية لمعرفتى الوثيقة بالزعماء السوفيت، وكان الجميع يرون ذلك بأنفسهم فى الحفلات الضخمة التى تقام فى الكرملين، ومعاملة الزعماء السوفيت الخاصة لى.

الفصل الخامس

علاقة الحب والكراهية بين الرئيس والمشير

كانت العلاقة حميمة إلى درجة بعيدة جدا بين الرئيس جمال عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر، لدرجة أن عبد الناصر سمى ابنه عبد الحكيم، وسمى الثانى ابنه «جمال». والحقيقة أن عبد الحكيم عامر كان رجلا فى غاية الشهامة، والإخلاص لأصدقائه، ويتصف بالشجاعة والإقدام، تتمثل فيه خصائص المصرى ابن البلد أو ابن القرية، ويتعامل فى جميع مناصبه كعمدة يشعر بمسئولية شخصية تجاه من معه، يرعاهم ويعطف عليهم.

هذه العلاقة الحميمة بين الرجلين لم تكن تخلو من توترات، وفى بعض المراحل من التحدى، وفى مراحل أخرى كانت العلاقة خالية من أى دفء وقد تصل إلى حالة خوف كل منهما من الآخر، وعدم الاطمئنان وعدم الثقة ثم تطفو قضية الأمن فوق كل الاعتبارات.

جاءت أولى مراحل الخلاف بعد حرب ٥٦ مباشرة، وفى أوائل ١٩٥٧ بدأت ألاحظ أن الخلافات تبدو واضحة وشديدة فى هذا الوقت. فقد قرر الرئيس عبد الناصر تعيين السيد حسين ذو الفقار صبرى، وهو طيار سابق، رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة الجوية، لكن المشير عبد الحكيم عامر كان رافضا تماما لهذا التعيين، كما عارضته القوات الجوية بدعوى أنه ابتعد طويلا عن السلاح الجوى، بالرغم من أن حسين ذو الفقار صبرى كان رجلا مثقفا وواضحا وأمينا وصادقا، وكان معينا من قبل عضوا فى المجلس الاستشارى فى السودان كمرحلة انتقالية لاستقلال السودان الشقيق.

ثم عُين حسين ذو الفقار صبرى فى رئاسة الجمهورية رئيسا للجنة مهمتها الاجتماع يوميا للنظر فى القضايا الجارية، وتضم السادة عبد القادر حاتم، وأمين هويدى، وسامى شرف، وكنت عضوا فيها عندما انتقلت من موسكو إلى الرئاسة فى أول مرة كما سبق ذكره.

كانت حرب ٥٦ بداية الخلاف بين عبد الناصر وعامر، فالأول اعتبر أن ماجرى فيها كان فشلا عسكريا، يتحمل المشير عامر مسئوليته ، وساد التوتر فى العلاقات بينهما، إلى أن عادت المياه إلى مجاريها، ولكن بشروط عبد الحكيم عامر، بأن تظل قيادات

القوات المسلحة هى التى يوافق عليها المشير عامر.

كان قد لاح أن العلاقة عادت إلى سابق عهدها، إلا أننى أعتقد أن عبد الناصر اختزن فى نفسه فكرة ضرورة تغيير القيادات، وظلت تلح عليه طوال السنين.

وحاول عبد الناصر أن يشغل عامر فى قضايا مدنية أخرى مثل إعطائه ملف سوريا أثناء الوحدة التى تمت فى فبراير ١٩٥٨ إلى أن حدث الانفصال. وكان المشير عامر موجودا فى دمشق، ولسوء الحظ أن الانقلاب على الوحدة، تم تدبيره من عناصر من مكتب المشير شخصيا فى دمشق.

وعاد المشير عامر إلى القاهرة بعد أن تعرض لموقف فى منتهى الحرج فى دمشق لتتجدد الخلافات بشكل عنيف، وكان ذلك فى ٢٨ سبتمبر عام ١٩٦١. ثم هدأت فى مظهرها الخارجى، ولكنها ظلت حادة تحت السطح حتى عام ١٩٦٢، وظل عبد الناصر يضمر نية التغيير، بينما كان عامر متمسكا بالقيادات الموجودة فى القوات المسلحة.

وصل الخلاف إلى منتهاه فى عام ١٩٦٢،واجتمع مجلس قيادة الثورة للنظر فيه. وطرح عبد الناصر قضية التغيير فى القوات المسلحة، ورأى أعضاء مجلس الرئاسة أن تكون الترقية بعد رتبة معينة فى يد عبد الناصر ومجلس الرئاسة وليس فى يد عامر. ورفض المشير هذا الاتجاه رفضا قاطعا واحتدم الخلاف داخل المجلس. وخرج عامر غاضبا لاعنا المجلس ومصرا على مواقفه. ووقفت القوات المسلحة إلى جانب المشير ضد عبد الناصر. واستقال بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة مثل عبد اللطيف البغدادى وكمال الدين حسين.

وقد علمت فيما بعد، وبعد حرب ٦٧ والتخلص من المشير عامر، واقعة حكاها لى الرئيس عبد الناصر بنفسه، فقد كنت ذاهبا إليه بطلب من على شفيق سكرتير المشير عامر، الذى قال لى إنه يكاد الآن يموت جوعا، بعد قطع مرتبه، ووقف زوجته مها صبرى عن الغناء فى الإذاعة، وجاءنى للتوسط للسماح لها صبرى بالعودة للغناء، وذهبت إلى الرئيس عبد الناصر أعرض عليه بعض الأمور، من بينها هذا الموضوع، فقال لى الرئيس عبد الناصر: ألا تعرف ما الذى فعله معى على شفيق؟

قلت لا ! فقال الرئيس عبد الناصر: فى عام ١٩٦٢ سرت شائعة بأن القوات المسلحة انضمت كلها إلى عبد الحكيم، ولا يقف مع عبد الناصر سوى القوات الجوية، وجاء على شفيق فى هذه الظروف بمدفعية القوات المسلحة، ووجهها إلى بيتى، وقال لو حلقت

طائرة واحدة من القوات الجوية من أى مطار فى مصر، فسوف نضرب بيت عبد الناصر بالمدفعية، هذا هو على شفيق الذى تتوسط له ثم سألنى : من الذى بعث معك بالرسالة هل هو على شفيق أم مها صبرى؟ قلت ضاحكا والله يا ريس هو على شفيق وليس مها صبرى.

مقابلتى الأولى مع المشير

كما ذكرت لم تكن علاقتى مع المشير قبل ١٩٦٠ تتعدى الرسميات. وكانت أول مرة نتبادل فيها بعض الكلمات عندما تقابلنا فى مناسبة من المناسبات فى أواخر ديسمبر ١٩٦٠، وكنت عائدا لتوى من الكونجو وأحداثها العنيفة وما تعرضت له عائلتى من عنف وتهديد بالقتل. صافحنى المشير وقال بود وتقدير والله يا مراد كنا خايفين عليك، وكان لدينا اعتقاد بأنهم قد يتخلصون منك، وذلك لنشاطك وعلاقاتك الواسعة خصوصا مع «لومومبا».

ولكن ظل المشير يعتبرنى «جاسوس» عبد الناصر ومن رجال على صبرى، وكان لا يكن له الكثير من الود إلى أن عُينت سفيرا فى موسكو فبراير ١٩٦١.

كان تعيينى فى موسكو، محورا لخلاف شديد بين الرئيس والمشير، فكان المشير يود تعيين اللواء نور الدين قرة، الذى أصبح فيما بعد وزيرا للتموين، وكان فى هذا الوقت رئيسا لمكتب المشتريات العسكرية فى موسكو، وقد وعده بأنه سيكون السفير. ولكن الرئيس فضل تعيينى سفيرا، فليست موسكو مقصورة على المشتريات العسكرية ولكن كان بها مكتب للسد العالى وآخر لعمليات التصنيع المتعددة فى مصر ثم المركز الثقافى المصرى الذى يشرف على العلاقات الثقافية وعلى مئات من المبعوثين المصريين الموفدين لنيل الدكتوراه، ثم مكتب العلاقات التجارية عدا مكاتب الملحقين العسكريين والسد العالى... الخ.

كذلك كان الرئيس قد اختبرنى أثناء زيارته لموسكو ١٩٥٨، وشاهد على الطبيعة علاقتى مع السوفيت. ورأى الرئيس ألا يضع تحت سيطرة المشير عامر كل هذه المكانة وكل هذه العلاقات الواسعة التى اعتبرها أهم علاقات لنا وتساوى فى أهميتها كل علاقاتنا مع الدول الأخرى.

وبعد أن عُينت سفيرا فى موسكو ذهبت لمقابلة المشير فى مكتبه لمعرفة آخر طلبات التسليح فقابلنى مقابلة رسمية.

ثم مد يده لى بعلبة سجاير لكى أدخن. فقلت إننى لا أدخن فقال: «آه أنت بقى بتاع السيجار» فقلت أنا لا أدخن السيجار، فأضاف إذن تدخن البيبة فقلت ولا شىء إطلاقا. ولاحظت فى لهجته بعض التهكم. وأخيرا تكلمنا فى التسليح وتعرفت على طلباته. وكان المارشال جوكوف وزيرا للدفاع والمارشال فاسيليفسكى مساعدا له، وسأل عما إذا كنت أعرفهما فأجبت بالإيجاب وسأبدأ بالاتصال بهما شخصيا.

وانتهت المقابلة وشعرت بما فى نفس المشير من عدم رضاء لتعيينى فى موسكو وأنه يعتقد أنى رجل عبد الناصر، وهذا صحيح.

كذلك قمت بزيارة جميع الوزراء الذين لهم علاقات عمل مع السوفيت، وكونت رؤية واضحة عن عملى الجديد. ولمست أن علاقاتنا مع الاتحاد السوفيتى تشمل جميع مرافق الدولة تقريبا. ولكن العمل فى موسكو لم يكن سهلا لتعدد المكاتب بها. ولم يكن فى القاهرة هيئة أو مركز يشرف على كل هذه العلاقات مع السوفيت وعلى الذين عملوا معى فى موسكو وهذا يعنى أن السفير هو الذى سيقوم بهذه العملية.

كنت محظوظا كما سبق أن ذكرت لأن رؤساء المكاتب كانوا على مستوى عال من الكفاءة وكانت تصرفاتهم على نفس هذا المستوى، خالية من الصراعات وتجمعهم علاقات صداقة ومودة ورغبة فى التعاون والعمل الجماعى.

عامر يكشف لأول مرة موقفه من عبد الناصر

فى عام ١٩٦٢، أيضا جاء عبد الحكيم عامر إلى موسكو فى زيارة رسمية للاتحاد السوفيتى، وكان فى بداية الزيارة لايزال متشككا فى أننى سأرسل للرئيس جمال عبد الناصر تقريرا عن زيارته، وكنت حريصا على أن أدون بخط يدى ما يدور فى جلسة المحادثات مع القادة السوفيت كلمة كلمة. وبعد الجلسة قدمت له مادونته وقلت: ياسيادة المشير تفضل هذا هو محضر الجلسة. نظر نحوى متسائلا: ألا تريده معك؟ قلت: لا فإننى احتفظ فى عقلى بكل التفاصيل، وهذا المحضر يخصك أنت ولك أن تتصرف فيه كما تشاء، ولست أنا.

شعرت بأنه هدأ إلى حد كبير، ولا أقول أنه غير رأيه فى اعتقاده بولائى التام لعبدالناصر، وأننى جاسوس لعبد الناصر، لكنى أعتقد أن ماحدث جعله يعيد التفكير فيما يتصوره عنى.

واستمرت زيارته ثلاثة أيام، توطدت خلالها علاقتى به. واعترف بأننى أحببت هذا الرجل، لما يتمتع به من حسن المعشر، والبساطة المتناهية، والتواضع الشديد، وروح الدعابة. وكنت قد اقترحت عليه أن نخرج معا للتنزه فى غابات موسكو، وذهبنا فعلا، ودارت بيننا أحاديث تطرقنا خلالها إلى قضية الديمقراطية، وأنها قضية مهمة بالنسبة لنا، ووجدته يقول لى ما الذى نستطيع أن نفعله، وهناك فى القاهرة رجل لا يرتاح إلا إذا رأى صوره يوميا فى جميع الصحف!!!

والحقيقة أننى ذهلت من كلام المشير عامر، وأحسست بأن مصارحته لى بهذا الكلام، وعلى هذا النحو، تعنى أن الخلاف أصبح عميقا جدا بين عبد الناصر وبينه.

وتخفيفا للموقف رويت له عن كاريكاتير منشور فى مجلة «روز اليوسف» يصور الأسد داخل قفصه، وقد كتب تحته «الأسد ملك الغابة» وشطبت كلمة ملك، ليقرأ الكاريكاتير، «الأسد رئيس جمهورية الغابة»

أطربه معنى الكاريكاتير وانطلق يضحك، وقال لى: هو كذلك الملك صار رئيسا للجمهورية، كان من الصعب على نفسى سماع هذه التعليقات، وأحسست بمدى المرارة التى فى قلب عبد الحكيم عامر.

وبعد أن عاد إلى القاهرة تبين له عدم وجود أى تقرير كتبته عن زيارته للاتحاد السوفيتى. وكنت من ناحيتى حريصا على ألا أكتب أى تقرير عن أى مسئول يزور موسكو وقد زاد هذا من توطيد علاقته بى.

صلاح نصر يهددنى

كان المشير عامر يتردد كثيرا وبانتظام على الاتحاد السوفيتى، تقريبا كل عام. وحدث فى نوفمبر ١٩٦٦، أن كان فى رفقته السيد صلاح نصر مدير المخابرات العامة، وثلاثة من قادة القوات المسلحة، منهم الفريق سليمان عزت، والفريق صدقى محمود، وكانوا يجلسون معا، يتحدثون، ودخلت عليهم دون أن يشعروا بى. فسمعت صلاح نصر يقول: لا فائدة لهذا البلد، طالما هذا الرجل قاعد لنا هناك، ولهذا لن نستطيع أن نقوم بأى إصلاح.

سمعت الجملة بوضوح على لسان صلاح نصر، فقلت فى الحال : «الله.. الله.. ما

هذا الكلام الذى تقوله ؟» وعلى الفور رد صلاح نصر قائلا لى : «إذا لم تسكت، فسنخرج ملفك.»

قلت له «أى ملف؟ إننى أعرف جيدا ما فى هذا الملف، إلا إذا كانت هناك إضافات من جماعتك، الذين يفبركون ما يريدون إضافته لكن ملفى ليس مهما، فالمهم هو ملفك أنت الآن».

ووجدت نفسى أحتد عليه، وتدخل المشير عامر لتهدئة الموقف، وقال له : ياصلاح.. مراد غالب هذا راجل «وكان يقصد أننى ليس من طبعى أن أنقل مثل هذه الأحاديث».

وبالفعل لم أذكر شيئا للرئيس عبد الناصر، لأننى كنت أعرف أن ذلك ستكون نتيجته كارثة، وكنت أعلم أيضا أن الرئيس يعلم أكثر.

وبعد انتهاء العرض العسكرى فى موسكو فى ٧ نوفمبر ١٩٦٦، اصطحبت المشير عامر إلى منزلى، وجلسنا أمام المدفأة، لأن الجو كان قارس البرودة ـ ١٣ تحت الصفر. جرنا الحديث إلى موضوعات شتى ولا أدرى كيف وصل حديثنا إلى الذين يقرأون الطالع، ثم قال عبد الحكيم عامر: سأحكى لكم قصتى مع البخت.. لقد تصادف أن التقيت فى الإسكندرية وأنا برتبة ملازم أول مع سيدة تقرأ البخت وقالت لى إنك سوف تحكم هذا البلد، لكنك سوف تهوى على الأرض وأنت فى هذا الموقع العالى وستموت موتة غير طبيعية.

استطرد المشير وقال: كيف أقع على الأرض، إن شقيق عبد الناصر متزوج من ابنتى وأنا نائب الرئيس وقائد عام القوات المسلحة.

وعلق هو على القصة بأنها هراء، وقال إننى أحكيها لأنها قصة عجيبة.

وفى مرحلة ما بعد هزيمة ١٩٦٧، شغل الرئيس عبد الناصر إلى حد كبير بعلاقته بالمشير عامر، واحتلت تفكيره قضية معالجة وضع القيادة السابقة للقوات المسلحة، وموضوع المشير عامر، خاصة أن الهزيمة الكاسحة أثرت إلى حد بعيد جدا على علاقته مع أقرب أصدقائه وهو المشير.

وقرر الرئيس عبد الناصر التخلص من المشير عامر وأعوانه، وكان ذلك قبل موعد سفره لحضور القمة العربية فى الخرطوم فى أغسطس ١٩٦٧، وحتى يطمئن قبل أن يسافر على الوضع الداخلى فى البلاد قرر أن يضرب ضربته.

كان المشير عامر متحصنا داخل منزله. ومعه بعض ضباط الصاعقة وغيرهم من العسكريين المتمسكين بالدفاع عن المشير عامر. وعلى أية حال فإنهم لم يصمدوا أمام تهديد القيادة العسكرية الجديدة بضرب كل الموجودين فى البيت الحصين بالمدافع ولم يقع أى صدام. وذهب كل من الفريق أول محمد فوزى والفريق عبد المنعم رياض إلى المشير، واصطحباه إلى بيت خاص بالضيافة فى منطقة الهرم، وهناك انتحر المشير عامر، وأكد لى عبد المنعم الذى كان صديقا حميما لى أن المشير انتحر فعلا وبانتحاره انتهى ملف العلاقة بين الرئيس والمشير.

زيارة شمس بدران لموسكو

كان شمس بدران الرجل الثانى فى القوات المسلحة بعد المشير عامر، ومن أقرب العسكريين إليه. وقبل حرب يونيو ٦٧ بعشرة أيام، جاء شمس بدران إلى موسكو، وكان وزيرا للدفاع فى زيارة للاتحاد السوفيتى، ليشرح الموقف السياسى والعسكرى المتوتر فى المنطقة للقيادة السوفيتية. طلب شمس بدران أن يكون لقاؤه مع الزعماء السوفيت على انفراد على أن أكون معه فقط كطلب المشير عبد الحكيم عامر.

وكان أول لقاء مع المارشال جريتشكو وزير الدفاع، وقد قابله عند وصوله للمطار ثم قابله فى مكتبه بوزارة الدفاع السوفيتية المقابلة الرسمية الأولى. وسأله جريتشكو عما سيقوله لرئيس الوزراء كاسيجين فى لقائه معه. ورد شمس بدران بكلام بعيد عن حدود اللياقة فقال: لو أننى أبلغتك بما سأقوله لكاسيجين فما الذى سوف أقوله له عندما أقابله؟

وامتعض جريتشكو وانتقل بالكلام إلى سؤاله: إذن هل أغلقتم مضيق تيران؟

ورد عليه شمس بدران: نعم أغلقناه وعقب اللقاء أبلغنى شمس بدران أننا لم نغلق المضيق حتى الآن.

قال جريتشكو : افترض أن سفينة إسرائيلية أرادت المرور من المضيق، قال شمس بدران : سوف نوقفها.

فعاد للسؤال وإذا كانت سفينة تابعة لأى دولة أخرى.

أجابه سنقف بكل حزم ولن نسمح لها بالمرور.

قال جريتشكو : افترض أن سفنا حربية أمريكية هى التى جاءت، أجابه: سننذرها بأن المضيق مغلق وأنها لا تستطيع المرور.

راح جريتشكو يهز رأسه مستنكرا هذا الكلام، لكنه كان يتمتع بصبر أيوب، لأننى أنا أيضا أصابتنى دهشة بالغة من هذا الكلام غير المسئول. وكان هناك مخطط لجونسون الرئيس الأمريكى لحشد قطع من أساطيل دول حليفة للمرور فى مضيق تيران بالقوة.

ثم ذهبنا لمقابلة كاسيجين.

وكان ما دار فى هذه المقابلة أمرا فى غاية الأهمية.

فلقد راح شمس بدران يشرح وضع الحشود المصرية على الحدود الإسرائيلية، وشرح بإسهاب كيف أن الخطة العسكرية المصرية هى خطة هجومية. وقال إن القوات المسلحة ستنقسم إلى شعب تتحرك فى ثلاثة اتجاهات، شعبة تتجه شمالا إلى تل أبيب، وشعبة فى الوسط إلى بير سبع، والشعبة الجنوبية ستذهب فى اتجاه إيلات.

وبعد شرح الخطة تفصيليا، رد عليه كاسيجين وقال مايأتى بالحرف الواحد:

«نحن نعتقد أن الموقف فى منتهى الخطورة، وأن مواجهة لقوات مسلحة بهذا الحجم وبهذا التسليح على جانبى الحدود، قد تؤدى إلى حرب، وعمليات عسكرية بين الجانبين. وفى هذه الحالة، لا يستطيع أى طرف منهما الادعاء بأنه لم يبدأ الحرب، لأن أى شرارة معناها الحرب. وعليكم أن تضعوا هذا فى حسابكم».

وبعد أن شرح كاسيجين خطورة الموقف، وجه إلى شمس بدران مباشرة أسئلة يطلب الإجابة عليها وهى:

- هل فى حساباتكم أن الأردن لن يدخل الحرب؟

وكان الملك حسين قد حضر للقاهرة وانضم إلى اتفاقية الدفاع المشترك وعين الفريق عبد المنعم رياض قائدا للقوات فى جبهة الأردن.

فرد عليه شمس بدران بعدم اكتراث : لا، لا، لم نضع فى حساباتنا أن الأردن سيدخل الحرب.

- وهل فى حساباتكم أن سوريا غير جاهزة ولن تدخل الحرب؟

فقال بدران: لا، لا. ليس فى حساباتنا مطلقا دخول سوريا.

ونحن أبعدنا من حساباتنا الأردن وسوريا.

- وجاء السؤال المهم جدا - وأعتقد أن شمس بدران لم يفهم معناه.

- هل فى حساباتكم أن الولايات المتحدة قد تتدخل فى هذه الحرب؟

والمعنى الذى يعكسه السؤال أن الاتحاد السوفيتى لن يتدخل فى هذه الحرب.

فقال شمس بدران: إن هذا سوف يجعل العالم كله يرى أمامه دولة عظمى تضرب دولة من دول العالم الثالث.

ولقد تعجبت من ردود وزير دفاع مصر، وظهر التعجب أيضا على وجه رئيس الوزراء السوفيتى.

وأردف يسأله : ماهو العالم الذى سيرى هذا؟

فقال بدران:

- العالم كله.

قال كاسيجين لبدران:

عليكم تهدئة الموقف على الحدود.

وعاد كاسيجين يكرر أن الموقف فى غاية الخطورة، وينذر بحرب واسعة النطاق فى الشرق الأوسط، وأن حشد قواتكم المسلحة على حدود إسرائيل جعلها تردد أنها لا تريد الحرب، وأنها تريد السلام، وأنها أيضا لا تريد الهجوم على سوريا. كما أنكم أبعدتم قوات الطوارئ الدولية عن الحدود عند خليج العقبة ومضيق تيران وهذا يعنى أنكم أنقذتم سوريا، وأخفتم إسرائيل.

من ناحية أخرى فإنكم حققتم مكسبا يتمثل فى التخلص من آخر بقايا حرب ٥٦، بإخراج قوات الطوارئ الدولية من على حدودكم، وعليكم أن تحافظوا على هذه المكاسب.

أما كيف تحافظون عليها، فهذا يستلزم أن تعملوا على تهدئة الموقف على الحدود مع إسرائيل وأيضا الموقف بصفة عامة فى هذه المنطقة، ولابد أن تتخذوا خطوات عملية تثبت أنكم لا تريدون حربا فعلا. وكان معنى كلام كاسيجين أن تسحب القوات، وإن لم يقل هذا صراحة.

بعد ذلك عقدت الجلسة الثانية من المباحثات لمناقشة طلبات مصر من الأسلحة، فأحاله كاسيجين إلى المارشال جريتشكو. ثم وصلت فى أخر يوم لإقامة شمس بدران فى موسكو برقية من القيادة العسكرية فى القاهرة تطالب بتسليح فرقة دبابات، وفرقة مشاة مصفحة ومدفعية، وطلبات أخرى كثيرة.

ومن جانبى تعجبت من أن حربا توشك أن تنشب بعد أيام قليلة، ونطلب الآن هذه الأسلحة التى تحتاج إلى وقت لجمعها وتوصيلها، ثم للتدريب عليها، وتساءلت: هل القاهرة تنتظر حربا أو لا تنتظر الحرب؟

فى الصباح وصل المارشال جريتشكو إلى دار الضيافة التى يقيم فيها شمس بدران، وكان مرتديا زيه الرسمى العسكرى مرصعا بكل نياشينه. فقد كان بطلا من أبطال الحرب العالمية الثانية.

وانتظر بعض الوقت لحين نزول شمس بدران من الطابق الثانى.

ثم وجدنا وزير دفاع مصر ينزل مرتديا القميص والبنطلون، ومنتعلا شبشبا فى قدميه.

وقدم شمس بدران قائمة الطلبات التى وصلت برقيتها من القاهرة إلى جريتشكو. ونظر فيها جريتشكو وقال سوف ننظر فى طلباتكم، وسنسعى لتلبيتها، لكن هذا يحتاج بعض الوقت، لأن طلباتكم غير جاهزة، وعلينا أن نجهزها.

الحديث مع بدران على سلم الطائرة

كان مع شمس بدران السيد أحمد حسن الفقى (نائب وزير الخارجية وقتئذ). وهو رجل عاقل وعلى قدر كبير من الاتزان وأيضا السفير صلاح بسيونى.

وكانت هذه المجموعة تجرى مباحثات مع نائب وزير الخارجية سيميونوف. وأخذ سيميونوف يشرح الموقف الدولى والتوترات الشديدة فى العالم، والصعوبات البالغة التى تواجهها الولايات المتحدة فى فيتنام وكان أهم ماقاله:

> إن إغلاق مضيق تيران عمل خطير. فنحن دولة عظمى ومع ذلك لابد من أن نحصل على موافقة تركيا عندما تمر سفننا فى مضايق البوسفور والدردنيل. وهذا بالطبع لا يليق بنا كدولة عظمى، لكن هذا هو القانون الدولى الذى يحكم الممرات البحرية.

وكان كلامه يشير إلى أن من الخطأ إغلاق مضيق تيران. وكان شرح سيميونوف متعدد الأبعاد متضمنا الاستناد إلى علوم التخطيط العسكرى والقانون الدولى، والسياسة الخارجية والدبلوماسية، حتى يستوعب الجانب الذى يستمع إليه، الموقف من مختلف جوانبه.

وحانت ساعة مغادرة شمس بدران موسكو، وكان ذلك يوم سبت وهو يوم عطلة، وجرى المشهد الآتى كما هو :

جريتشكو يسير نحو الطائرة المسافرة إلى القاهرة، وبجواره شمس بدران وإلى جانبه اللواء أحمد فتحى عبد الغنى رئيس مكتب المشتريات العسكرية فى موسكو، وصلنا إلى مكان الطائرة وجرى على سلم الطائرة حديث، لم أسمعه، بين جريتشكو وشمس بدران.

وبعد أن ودعنا بدران ونحن نرجع مبتعدين عن سلم الطائرة، جاء اللواء عبد الغنى وقال لى: هل سمعت ماقاله جريتشكو لشمس بدران؟ لقد قال له شدوا حيلكم ونحن برضه معكم.

وأنا أنقل الجملة كما هى باللغة العامية.

فقلت للواء عبد الغنى : هذا كلام من شخص يطيب به خاطر الضيف، بعد أن أنزلوا على رأسه دُشًا باردا فى جلسات المباحثات.

ومن جانبى اعتبرت موقفهم فى غاية الوضوح، بأنهم لن يتدخلوا إذا قامت حرب. ومادام كاسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى قد أوضح له أنهم لن يتدخلوا فى أى معارك، فإننى لا يمكن أن أعير اهتماما لكلام جريتشكو على سلم الطائرة. إن المقصود به تخفيف التوتر الذى صاحب الزيارة. ومن ثم فهذا كلام لا قيمة له.

وذهبت بنفسى إلى جريتشكو أسأله عما قاله لشمس بدران فأجابنى قائلا: لقد رأيته محبطا، فأردت أن أرفع من روحه المعنوية بعض الشىء قبل سفره. لكن كل ما أردنا قوله هو قد استمع إليه من الرئيس كاسيجين.

ونظرا لأهمية وخطورة ماتحدث به كاسيجين، خصوصا فى الجلسة الأولى للمباحثات، والأسئلة المختلفة التى طرحها على شمس بدران وشرحه المستفيض للحالة الدولية، والموقف على الحدود المصرية الإسرائيلية، فقد وجدت من واجبى أن أرسل إلى القاهرة فورا محضر الجلسة الأولى كما كتبته بخط يدى.

ولحسن الحظ أن السيد حمدى عاشور محافظ القاهرة كان فى موسكو، وموعد سفره فى نفس اليوم الذى تم فيه اللقاء الأول مع كاسيجين، وسلمته إليه ليسلمه إلى الرئيس عبد الناصر فى نفس يوم وصوله.

وكان قصدى أن أمنع أى لبس فى أن الاتحاد السوفيتى لن يتدخل.

الفصل السادس

خطة الخداع الاستراتيجي من التورط الأمريكي إلى لغز الحشود على سوريا

أن حرب ٦٧ كانت هزيمة ساحقة لمصر ممثلة فى النظام الذى كان يحكمها
لاشـــك فى هذه المرحلة. فالهزيمة ليست هزيمة القوات المسلحة وكأنها كيان منفصل عن الدولة، وعلينا أن نكون أمناء مع أنفسنا وأمناء مع التاريخ وأمناء مع شعبنا والشعوب العربية جمعاء.

إن المسئولية تقع أولا وأخيرا على القيادتين السياسية والعسكرية فيما حدث فى كارثة ٦٧. فقد كان على القيادة السياسية أن تكون أكثر حسما وحزما ووضوحا فى عدم استفزازها للعدو، وإعطائه مبررا للقيام بالهجوم الكاسح الذى حدث، وذلك بحشد القوات المسلحة المصرية على الحدود مع إسرائيل، وطلب سحب القوات الدولية وإغلاق خليج العقبة والحملة الإعلامية الهجومية المستفزة التى صاحبت كل هذه الإجراءات، والتهديد بسحق العدو والمؤتمرات الصحفية التى عقدت والتصريحات التى لا تستند إلى أى قوة حقيقية تصاحبها.

والأدهى من ذلك، أنه كان هناك اقتناع لاشك فيه لدى القيادة السياسية أن هدف العدو الإسرائيلى والولايات المتحدة ممثلة بالرئيس جونسون هو التخلص من هذه القيادة ومن الزعامة الهائلة التى كان الرئيس عبد الناصر يتمتع بها، ومنزلته التى لا تقاوم فى الشارع العربى وبين الجماهير الشعبية من الخليج إلى المحيط. وكان معروفا تماما ما تضمره الإدارة الأمريكية من كراهية وحقد ضد زعامته ومنزلته.

أما القيادة العسكرية، فكان يجب عليها أن تكون أمينة مع نفسها، وهى المطلعة على حقيقة أوضاع القوات المسلحة ومدى تسليحها وإمكانياتها خصوصا ما يتعلق بالطيران والدفاع الجوى. كان عليها إذن أن ترفض بشكل قاطع وواضح ولا لبس فيه الزَّج بالقوات المسلحة فى معركة عسكرية مع إسرائيل المدعمة بالإمكانيات العسكرية الأمريكية. ما كان للمشير عامر أن يرد على مدى استعداده للحرب بقوله «برقبتى يا ريس»، ولم يكن له أن يستقل الطائرة ومعه القيادات العليا للتفتيش يوم العدوان نفسه وهو يعلم أن هذا اليوم من المتوقع أن يحدث فيه العدوان.

والحقيقة أن قواتنا المسلحة فى يوم ٥ يونيو بالذات كانت فى أسوأ حالتها، لوجود قطاع كبير مهم وضارب منها فى اليمن بجميع أسلحته، بل كانوا من خيرة المحاربين

وأكثرهم صلابة. كذلك كانت هناك وحدات مدرعة فى العراق لتأمين حكم عبد السلام عارف، وجاء إعلان التعبئة العامة واستدعاء ١٠٠ ألف جندى من الاحتياطى الذين نسوا التدريب بل والعسكرية كلها، وكان منظرهم وهم على مدرعاتهم «بالجلاليب» يبين بوضوح أن الأمر مظاهرة عسكرية وليست تعبئة عسكرية.

والأهم من ذلك كله الصراع الحاد والدفين بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية وانعكاساته على القوات المسلحة. كذلك كان لدينا اقتناع بأن إسرائيل لابد أن تحارب إذا قفل مضيق تيران أو سيطرت قوة معادية على مرتفعات الضفة الغربية (الأردن).

وجدير بالذكر أن الفريق صدقى محمود قد صَّرح أمامى فى نوفمبر ١٩٦٦، وكنا فى موسكو، أى قبل حرب ٦٧ ببضعة أشهر موجها الحديث للمشير كالآتى « وليكن فى علم سيادة المشير أنه ليس لدينا دفاعات ضد الطيران «الواطى» - ٥٠ مترا أو أكثر - كما أننا لا نملك دُشَماً خرسانية لحماية طيراننا. وقد طلبنا من السوفيت اليوم دفاعات ضد الطيران «الواطى» وردوا «أنهم لا يملكون مثل هذه الدفاعات».

وكان رد المشير «ماالذى نستطيع أن نفعله، علينا أن نقبل ما يُعرض علينا».

وقد أردت أن أوضح كلام الفريق صدقى محمود لأنه تناول أخطر قطاع فى الحرب الجوية، بل أخطر نقطة فى الحرب كلها ومنه جاءت الضربة القاتلة.

فإذا كان هذا هو حال قواتنا المسلحة، فكيف إذن نزج بها فى حرب مع إسرائيل ونحن نعلم إمكانياتها العسكرية المتفوقة، رغم ادعاءاتنا بأننا أعظم قوة عسكرية فى الشرق الأوسط، كما كانت وسائل إعلامنا تردده وتؤكده ليل نهار؟ هذا علاوة على الوضع الاقتصادى الذى استنزفته حرب اليمن ووقف المعونة الأمريكية.

الأوضاع السياسية الدولية والإقليمية

لا أريد أن أبرر أو أختلق أعذارا لأخطاء القيادتين السياسية والعسكرية، ولكن لابد أن نوضح الظروف والأوضاع التى كانت سائدة إقليميا ودوليا فى تلك الفترة. وأكرر أننى لا أرمى إلى تبرئة القيادة بالحديث عن هذه الظروف والأوضاع. وسأبدأ بالأوضاع الإقليمية:

أولا: الوضع فى سوريا

وقد بدأت بها لأن أحداث ١٩٦٧ بدأت من هناك.

فقد زار وفد سورى الاتحاد السوفيتى، وكنت سفيرا هناك فى مارس ١٩٦٧. وكان

يرأسه صلاح جديد رئيس حزب البعث السورى حينئذ، ويوسف زعين رئيس الوزراء، وإبراهيم ماخوس وزير الخارجية. وكان قد حدث انقلاب فى سوريا قام به هؤلاء الثلاثة ومعهم نور الدين الأتاسى رئيسا للجمهورية وحافظ الأسد وزيرا للدفاع ضد الرئيس أمين الحافظ رئيس سوريا حينئذ.

اعتبرت موسكو أن هذا الانقلاب فى صالحها، حيث ذهب أمين الحافظ اليمينى وأتى انقلاب بعثى عسكرى يسارى أقرب بكثير لموسكو من الرئيس السابق.

واستقبل الوفد استقبالا حافلا ووضح أن السوفيت سعداء بالانقلاب. ودارت المحادثات بين الطرفين فى جو ودى وشملت جميع ميادين العلاقات الثنائية وكذلك الأوضاع فى منطقة الشرق الأوسط والصراع الإسرائيلى... الخ.

والمهم فى هذه المحادثات أنها تطرقت إلى العلاقات مع مصر. وبلغنى أن السوفيت وجهوا الوفد السورى إلى أهمية عقد معاهدة دفاع مشترك بين البلدين. وكان مصدر المعلومات عضوا بارزا فى السفارة السورية. وقد أطلعنى على هذه المعلومات وهو فى غاية السعادة. ثم بلغنى الكلام نفسه من الصديق العزيز صلاح الطرزى سفير سوريا فى موسكو، وكان على جانب كبير من الكفاءة والذكاء وله ذاكرة حديدية بالتواريخ والأرقام والأحداث بشكل مبهر.

وكان تعليقى أن مسألة الوحدة مع سوريا أو دفاع مشترك معها قضية فى منتهى الأهمية. وقلت ضاحكا، ولو أنى كنت أقصد ذلك: « يا أخى إحنا لسنا على قد إيديكم مرة تعوزوا وحدة ومرة ثانية تنفصلوا ثم تعودوا الآن للوحدة مرة ثانية»، فقال سترى ما سيحدث غدا !! إن السوفيت سيلوون ذراع عبد الناصر لكى يقبل دفاعا مشتركا مع سوريا وقد حدث هذا فعلا.

كان هدف السوفيت الأساسى حماية النظام الجديد فى سوريا، وكانوا يعلمون أن سوريا، وحدها لا تستطيع الوقوف أمام أى تهديد من إسرائيل، ولكنها مع مصر تستطيع القيام بذلك. وكما قلت كان النظام السورى الجديد حليفا لهم ويريدون المحافظة عليه.

وسرعان ما تبنى النظام السورى الجديد موقفا يساريا ثوريا متطرفا. وبدأ يدفع بالفدائيين خصوصا فى منطقة بحيرة الحولة ومنابع نهر اليرموك ضد الوجود الإسرائيلى حول هذه المناطق.

والحقيقة أن إسرائيل كانت تحاول السيطرة على هذه الأماكن والاستيلاء عليها

تنفيذا لاستراتيجيتها المائية. وكانت النتيجة أن التوتر بدأ يشتد يوما بعد يوم. وفى أبريل ١٩٦٧ أى قبل العدوان بشهرين، أسقطت إسرائيل ٦ طائرات سورية فى يوم واحد، ووقع بعض حطامها على دمشق نفسها. وبات واضحا أن إسرائيل نظرت إلى النظام السورى نظرة عدائية وأضمرت التخلص منه.

ولم يقف ثالوث الأتاسى - زعين - ماخوس فى سوريا موقفا متعقلا، ولكنه ازداد عنفا مع الإسرائيليين. واستمرت الاشتباكات والاعتداءات بين الطرفين فى هذه المنطقة حتى حرب ١٩٦٧.

وطبعا طلبت سوريا بل والعرب جميعا أن تهب مصر لنجدة سوريا بعد إسقاط الطائرات. بل وعاير العرب جمال عبد الناصر بأنه وقف ساكنا ولم يتحرك فى العدوان على قرية السموع الأردنية. وكانت تصريحاتهم مستفزة وعدائية للنظام المصرى وللرئيس شخصيا. وشككوا فى زعامته واتهموه بأنه يختفى خلف قوات الأمم المتحدة. واستمر الوضع خطيرا للغاية إلى أن جاءت قضية الحشود الإسرائيلية على سوريا، التى سأتناولها بالتفصيل فيما بعد. هذا وقد أرسلت القوى القومية فى سوريا تحذيرا لعبد الناصر يتضمن تأكيدا بأن النظام الحالى فى سوريا يسعى إلى جر مصر إلى حرب، وفعلا قام عبد الناصر بتهدئة السوريين الذين أجابوه أنهم يخوضون حرب تحرير وهم مستعدون تماما.

ثانيا: الوضع فى اليمن

أما المنطقة المتفجرة الأخرى فكانت فى اليمن. كان الكثيرين منا ينظرون إلى مساندتنا لحرب اليمن على أنها إحدى مغامرات الثورة الفادحة الثمن. والحقيقة أن ملف حربنا فى اليمن كان فى أيدى أنور السادات. وكان الهدف من هذه الحرب عند بدايتها «قوميا أيديولوجيا»، وذلك لمساندة وتثبيت النظام الجمهورى، ورئيسه اللواء عبد الله السلال ضد الأمير البدر ولى العهد والإمام الجديد لليمن بعد وفاة والده الإمام أحمد. واستهانت القيادة السياسية والعسكرية بهذه الحرب، ولم تتصور أنها ستستمر هذه السنين. فقد بدأت فى سبتمبر ١٩٦٢ ولم تنته إلا بعد عدوان ١٩٦٧. وكما ذكرت كان السادات هو الذى أوصى بالتدخل بالاتفاق مع صديقه عبد الرحمن البيضانى.

ولقد نتج عن هذه الحرب والحملة العسكرية المصرية، تداعيات فى غاية الأهمية والخطورة من النواحى الاقتصادية والسياسية والإقليمية والدولية. أما من الناحية الاقتصادية العسكرية فقد غطاها الاتحاد السوفيتى ولجأت فيها إلى خروشوف ثم

«بريجنيف وكاسيجين» بدعوى أن فى اليمن حرب تحرير فى منتهى الأهمية وأن أصداءها ستُسَمع فى شبه الجزيرة العربية كلها. كما ستساعد على التخلص من الاحتلال الإنجليزى لميناء «عدن» ومضيق باب المندب، وهما من أهم المناطق الاستراتيجية ومدخل للأساطيل الحربية والتجارية من وإلى البحر الأحمر وجنوب وشرق آسيا وشرق إفريقيا. هذا علاوة على التخلص من حكم الإمام أحمد المتخلف الرجعى وإقامة جمهورية بدلا من نظام ملكى يحكم بأساليب القرون الوسطى.

ولكن التداعيات الأخطر فى المدى البعيد كانت وقوعنا فى عداء مع المملكة السعودية إلى حد قيام عمليات عسكرية على الحدود معها.

وجعل هذا الغرب يستشعر الخطر الكبير المحتمل من الحملة العسكرية المصرية فى اليمن. فقد كان نقل قوات بهذا الحجم وبهذا الكم الهائل من كافة أنواع الأسلحة والطيران والبحرية من مصر إلى اليمن يعنى أن مصر لها ذراع طويلة، وتستطيع أن تنقل قوات مسلحة لها إلى أماكن بعيدة عنها، على الأقل حول شبة الجزيرة العربية.

كل هذا يعنى خطرا حقيقيا على منابع البترول فى الخليج وتهديد عصب الحياة بالنسبة للغرب. كذلك اعتبر الغرب أن الوجود المصرى يحمل فى طياته وجودا سوفيتيا ويعنى ذلك احتمال تهديد سوفيتى لبترول الخليج.

أما بريطانيا فقد كانت خطتها استنزاف مصر حتى الموت فى اليمن وإطالة الحرب فيها أطول مدة ممكنة لشغل عبد الناصر وتحطيم قوة مصر اقتصاديا وعسكريا وهو ما حدث بالفعل.

أما بالنسبة للسعودية، فقد وقفت الولايات المتحدة بجانبها تساندها، مهددة مصر إذا اتسعت رقعة وجودها فى شبه الجزيرة العربية. وجعل هذا الغرب، وخصوصا أمريكا، يقرر التخلص من النظام المصرى فقد كان استنزاف مصر مقدمة لضربها فى ٥ يونيو ١٩٦٧.

ويفسر هذا لنا أنه بينما وقف العالم معنا فى العدوان الثلاثى على مصر ١٩٥٦ بما فيهم حزب العمال البريطانى بقيادة «جيتسكيل»، لم تقف دولة واحدة فى الغرب كله ضد عدوان ١٩٦٧، بل إن دوله أيدت إسرائيل ووقفت تدافع عنها.

ثالثا: موقف الأردن والملك حسين

فبينما كان الشارع العربى كله يدق طبول الحرب، إذ بالملك حسين يأتى لمقابلة

عبدالناصر فجأة فى ٣٠ مايو قبل الهجوم الإسرائيلى على مصر فى ٥ يونيو ١٩٦٧. وطلب الملك حسين تعيين قائد مصرى للجبهة الأردنية، وكان هو الفريق عبد المنعم رياض وبعض كبار الضباط من معاونيه. وبدا وكأن الطوق قد اكتمل حول إسرائيل وكأنهم يقولون للرئيس عبد الناصر ماذا تنتظر «اضرب». وفى واقع الأمر فإن هذا الطوق كونته إسرائيل نفسها عن عمد، وهى التى أثارته حتى تظهر للعالم وكأنها قد حوصرت وأصبح الوجود الإسرائيلى فى خطر داهم، واستطاعت أن تقنع العالم وخصوصا أمريكا التى لم تكن فى حاجة إلى ذلك لعلمها أن كل ذلك من صنع إسرائيل. وهنا يحتاج الأمر إلى وقفة متأنية وفاحصة، فإن مجىء الملك حسين إلى مصر قبل هجوم إسرائيل مباشرة، يطرح الكثير من التساؤلات حول الدوافع التى أدت إلى هذه الزيارة، وهل كان الملك حسين يريد الاشتراك فى معركة رآها قريبة من النصر للعرب. فها هى سوريا تهدد وتتوعد وتطلق رجالها فى شبه حرب على حدود إسرائيل. وها هى مصر تؤكد أن قواتها المسلحة هى الأقوى فى الشرق الأوسط كله حسب تصريح قادتها العسكريين ورياساتها السياسية والعسكرية، فلماذا يتخلف الأردن عن هذه الجبهة المصرية السورية فليكمل هو هذه الجبهة التى لم تتكون بهذا الشكل منذ حرب ١٩٤٨، حتى يكتمل الطوق حول إسرائيل ويحصل على نصيبه من النصر؟ ولكن هل كان هذا الطوق من صنع العرب أم صنعته إسرائيل عن عمد؟ هناك رأى آخر يقول إن الملك قد فعل ذلك لكى يدفع الرئيس عبد الناصر للبدء فى الهجوم، وهو يعلم جيدا أن إسرائيل هى التى ستنتصر وأن الزج بعبد الناصر فى حرب خاسرة سيؤدى للإطاحة به ويتخلص بذلك من عدو قوى يسيطر على شعبه هو شخصيا ويربض على عتبة داره.

لكن هل يثق الملك حسين بالوعود الإسرائيلية والأمريكية ويتفق معهم لكى يحفظوا له عرشه ويعيدوا إليه أرضه بعد غزوها وأطماع الإسرائيليين واضحة له بالنسبة للقدس والضفة الغربية؟ ألم تستطع الولايات المتحدة أن تمنعه من الذهاب إلى مصر؟ هل شجعته إسرائيل بعملاء لها داخل الأردن على اتخاذ هذا القرار؟ إنها مأساة تشبه المآسى الإغريقية. ومع ذلك أنا لا أرجح هذا الزعم. وأرجح عليه أن الملك حسين واجه ضغطا شعبيا كاسحا داخل بلاده. وخشى أنه إذا لم يشترك مع عبد الناصر فإن الشعب لابد أن يتخلص منه!!.

ثم أخذ التوتر يتصاعد فى المنطقة تارة بغارات إسرائيلية على الأردن وتدمير قرية السموع الأردنية، إلى استفزازات واعتداءات على الحدود السورية، ثم إسقاط ٦

طائرات سورية كما سبق ذكره، إلى أن وصلنا إلى قصة الحشود الإسرائيلية على سوريا، وسأتناول هذا الموضوع بالتفصيل فيما بعد وهكذا خلقت إسرائيل حلقة أخرى حولها.

أما عن الدور المباشر لأمريكا فى التجهيز لعدوان ١٩٦٧ فيستلزم مقدمة قصيرة عن ليندون جونسون رئيس الولايات المتحدة.

كان جونسون شخصية بارزة فى مجلس الشيوخ الأمريكى وفى الحزب الديمقراطى وله دراية واسعة فى التعامل مع الشئون الداخلية الأمريكية. وبدأ نشاطه من عهد الرئيس روزفلت واستعان به حتى « ايزنهاور» الجمهورى، ثم أصبح فيما بعد نائبا للرئيس «كيندى» ثم رئيسا لأمريكا بعد مقتله ١٩٦٣.

تربى «ليندون جونسون» فى رعاية عائلة «أدوين فايزل» اليهودية. وكان أدوين أحد كبار أثرياء يهود نيويورك ومن أكثرهم نفوذا وتأثيرا. وكان جونسون كثيرا ما يزورهم وينزل ضيفا عليهم ويقضى أياما فى بيتهم. ومن هنا أصبح أكثر المتعصبين لإسرائيل منذ أيام ايزنهاور. ووقف ضد ايزنهاور عندما أراد أن يعاقب بن جوريون لعدم انصياعه لأوامره بالانسحاب من سيناء فى ١٩٥٧ فى أعقاب العدوان الثلاثى على مصر.

ليس هنا مجال سرد تفصيلى للعلاقات بين أمريكا وإسرائيل وكذلك النفوذ الصهيونى اليهودى على جميع رؤساء الولايات المتحدة وحتى ايزنهاور نفسه لم ينج من الضغط عليه منهم، كذلك بالنسبة للكونجرس الأمريكى وكل صانعى القرار فى واشنطون وكذلك سيطرة كثير من المؤسسات المالية والثقافية والإعلامية، فهناك الكثير من المراجع التى تتناول هذه القضية.

لقد بلغ من نفوذهم أن جاء أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل فى شهر مايو ١٩٦٧ وقابل جونسون، وفى خلال الحديث أطلعه على وثيقة فيها بخط يد «دالاس» وزير خارجية أمريكا فى ١٩٥٧، وفيها تتعهد أمريكا لإسرائيل بضمان حرية المرور فى مضيق تيران بعد العدوان الثلاثى ١٩٥٦ وذلك فى مقابل انسحاب بن جوريون من سيناء. وذُهل جونسون من المفاجأة لأن هذه الوثيقة كانت خافية على وزارة الخارجية الأمريكية نفسها!!

كيف حصلت إسرائيل على هذه الوثيقة؟ الإجابة على ذلك نصل إليها إذا عرفنا أن علاقة المخابرات المركزية الأمريكية كانت وثيقة الصلة بالموساد الإسرائيلى. وكانت تعد

فى مستوى العلاقات مع المخابرات البريطانية إن لم تزد عنها. وكان يقوم بهذه المهمة ممثل الموساد فى أمريكا «إفرام ايفرون» وكان يعرف باسم إيبى فينبرج وكان يقول إن فى مكان ما من دماء جونسون كرات دم يهودية.

أما عن الأوضاع الدولية التى كانت سائدة فتتمثل فى:

أولا: الوضع فى الولايات المتحدة

لاشك أن الولايات المتحدة كانت فى وضع سيئ ومهين فى حربها فى فيتنام. ولكى تلتف حول هذه الحرب وتحرز انتصارات تعوضها عن خسارتها قامت بتجهيز المسرح العالمى بانقضاضها على زعامات حركة التحرير فى العالم الثالث توطئة للتفرغ لحسم موقفها فى الشرق الأوسط ومع مصر وزعامة جمال عبد الناصر بالذات. وبدأت بالتخلص من سوكارنو، وبعد سلسلة من الانقلابات جاءت بسوهارتو وذلك فى ١٩٦٥. ثم تخلصت من نكروما وبعده موديبو كيتا ثم سيكوتورى.

وبدأت الولايات المتحدة فى محاولات لخلخلة نظام الرئيس عبد الناصر. ففى ١٩٦٥ أخذت تسوف فى تجديد اتفاقية المساعدات الاقتصادية وأهمها الغذاء إلى أن استنزفت مصر ما لديها من مخزون القمح الأمريكى، ولم يكن قد اكتمل بعد نضج محصولها المحلى من القمح. وأعلنت فى أبريل ١٩٦٥ أنها لن تجدد هذه الاتفاقية ووضعت مصر فى موقف غاية فى الحرج.

فى هذه الأثناء كان «إجناتى نوفيكوف» نائب رئيس الوزراء ووزير الطاقة السوفيتى يزور مصر لإطلاع جمال عبد الناصر على مشروع متكامل لتوليد الطاقة من جميع القناطر المقامة على النيل بواسطة توربينات أفقية خاصة. وعاد إلى موسكو واستقبلته فى المطار، وطلبت أن يُسرَّ إلى بما شاهده ولاحظه على مقابلته لجمال عبد الناصر.

فقال: كنت أتكلم وأشرح بينما الرئيس كان بعيدا عن التركيز، وكان مستغرقا فى التفكير بعيدا عن حديثى. وأخيرا قطع هذا الحديث وقال فجأة هل يستطيع الاتحاد السوفيتى أن يموننا بالقمح فى أسرع وقت ممكن؟ يارفيق نوفيكوف ليس لدينا ما يكفينا لأكثر من أسابيع معدودة؟ فقد أوقفت أمريكا عنا القمح. وذكر نوفيكوف أنه أبلغ القيادة السوفيتية بذلك، وفعلا كانت هناك سفن تحمل القمح الذى اشتراه الاتحاد السوفيتى من الغرب واستراليا، فحول هذه السفن المتجهة إلى موانى البحر الأسود وأمر بتوجهها إلى موانى مصر. وأُنقِذت مصر من موقف كان من الممكن أن يؤدى إلى كارثة.

كانت كافة المساعدات العسكرية والمعدات الحربية الخاصة وكافة وسائل الاتصال التى لم تخرج من أمريكا إلى أى دولة تستطيع إسرائيل أن تحصل عليها وذلك من خلال علاقة ايبى وأنجلتون فى المخابرات الأمريكية، بل واستطاع ايبى هذا أن يكون علاقات شخصية وحميمة مع جونسون نفسه، ويتصل به مباشرة ولا يستطيع جونسون أن يرفض له طلبا. وقد تم التنسيق التام بين إسرائيل وأمريكا من خلال أجهزة المخابرات فى البلدين وتناقشوا فى جميع تفاصيل العدوان الإسرائيلى على الدول العربية فى ١٩٦٧، وكذلك الأسلحة والمعدات اللازمة لتنفيذ العملية.

واجتمع أبا إيبان فى ٢٦ مايو ١٩٦٧ بالرئيس جونسون فى وجود ماكنمارا وزير الدفاع. وادعى إيبان أن هجوما عسكريا مصريا وشيكا على إسرائيل. ورد عليه ماكنمارا قائلا إن جميع مخابراتهم أكدت أن الهجوم ليس وشيكا أو عاجلا وأنه إذا حدث فستسحقونهم إلى جهنم.

طلب جونسون أن ينتظروا حتى يقنعوا جمال عبد الناصر بإعادة فتح مضيق تيران وشرم الشيخ، وأنه يجهز مع كل من انجلترا وهولندا واستراليا سفنا حربية مشتركة لفتح المضيق بالقوة وعليهم أن ينتظروا عدة أيام. وقال جونسون إنه يود أن يرى النجمة الزرقاء «نجمة داود» أى العلم الإسرائيلى وهو يمر فى المضيق.

وأعتقد أن كلام جونسون لم يقصد منه فتح مضيق تيران بالقوة بقدر ما كان يرمى إلى إشغال مصر بهذه القضية حتى تستكمل إسرائيل استعداداتها.

وعند عودة أبا إيبان إلى إسرائيل، أرسل برقية يوم ٣٠ مايو ١٩٦٧ لجونسون يقول فيها إن إسرائيل أجلت العمليات العسكرية لفترة محدودة فقط. وأعتقد أيضا أنها تأجلت لمزيد من الاستعداد. وعُين موشى ديان وزيرا للدفاع أثناءها. ولكن بينما كان جونسون فى اجتماع حزبى مهم فى نيويورك يوم ٤ يونيو ٦٧، حضر أيبى وكان من كبار زعماء الحزب الديمقراطى، وأسر إليه أنه لا يمكن التأخير أكثر من ذلك. وسيبدأ الهجوم الإسرائيلى خلال ٢٤ ساعة. وعندئذ قام جونسون وألقى خطابا حماسيا كان كله حول وجود إسرائيل وضرورة حمايتها وتأييدها بكافة الوسائل.

وقد سبق كل هذا الخديعة الكبرى. فقد اتفق الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة على تحذير كل من مصر وإسرائيل من البدء فى العمليات العسكرية. وصدق السوفيت ذلك. وبينما كانت أمريكا تعرف على وجه اليقين أن إسرائيل سوف تبدأ الهجوم، حذرت الحكومة السوفيتية مصر من أن تبدأ الضربة الأولى وستأتى تفاصيل ذلك فيما بعد .

كذلك تظاهر جونسون بأنه يريد السلام وأوحى لعبد الناصر بأنه سيرسل هيوبرت همفرى نائب جونسون إلى القاهرة لإجراء محادثات سلام. كما أن عبد الناصر أبلغه بأنه سيرسل السيد زكريا محيى الدين إلى واشنطون. وكان من المفروض أن يسافر يوم ٧يونيو١٩٦٧. ولكن الحرب بدأت ٥ يونيو٦٧. وكان جونسون يقوم بالتمويه الاستراتيجى لزيادة استرخاء مصر، حتى تكون ضربة إسرائيل قاضية، فهو يعلم جيدا أن إسرائيل ستقوم بعملياتها العسكرية حول هذا التاريخ.

وهنا أود أن أكرر ما سبق أن قلته من أن الطوق الذى كان يبدو كأن العرب هم الذين أقاموه حول إسرائيل هو فى واقع الأمر طوق سعت إلى إنشائه إسرائيل نفسها عن عمد باعتداءاتها المتكررة على سوريا وضرب قرية السموع فى الأردن. ثم جاءت قصة الحشود العسكرية على سوريا كما سيأتى ذكرها بعد وماتبعتها من حشود مصرية على حدودها. وقفل مضيق تيران وإبعاد قوات الطوارئ الدولية عن الحدود الإسرائيلية المصرية واستفزاز العرب ومصر خاصة لكى تتصيد التصريحات العدائية التى لابد أن تحدث ولكن كان هدف إسرائيل من ذلك هو.

١ـ أن تبين أنها مطوقة ووجودها فى خطر داهم، وأن على العالم أن يساعدها وأن يبدو هجومها وكأنه ضربة وقائية ومبررة.

٢ـ حشد العرب قواتهم المسلحة على حدود يسهل القضاء على الجيوش العربية وتدميرها.

٣ ـ إغلاق مضيق تيران ينتهك تعهدات أمريكا، واتفاقية «دالاس» بن جوريون كما سبق ذكره. وعلى أمريكا أن تتدخل بنفسها لتنفيذ وعدها لإسرائيل.

وأخيرا كان من السهل اتهام مصر بأنها هى التى بدأت هذه الحرب وفعلا ركزت إسرائيل على ذلك.

ثانيا : الوضع فى الاتحاد السوفيتى

كانت الأوضاع داخل الاتحاد بعد إخراج خروشوف فى ١٥ سبتمبر ١٩٦٤، غير مستقرة. فقد ورث عهد خروشوف ما سمى بالقيادة الجماعية وعلى رأسها «الترويكا»، وتعنى الثلاثية وهى فى الأصل العربة التى يجرها ثلاثة جياد. وكانت مكونة من بريجنيف وكاسيجين وبادجورنى، الأول سكرتير عام الحزب والثانى رئيسا للحكومة

أما الثالث فرئيسا للدولة وهو أضعفهم.

ثم حدث خلافات داخل هذه القيادة الجماعية، وانتصر فيها عجائز الكرملين الذين ذكرتهم، وكانوا من المحافظين على شباب المكتب السياسى. وكان «التنزيل» فى المركز من نصيب شيلبين وسيمتشاسنى وغيرهم، أى مجموعة الكومسومول «منظمة الشباب» فى المكتب السياسى واللجنة المركزية. وقد أثرت هذه الخلافات على اتخاذ القرارات التى ركزت على المشاكل الاقتصادية والمواقف المتحفظة. سأكتفى بهذه المقدمة فالمذكرات ليس مهمتها التأريخ المفصل ولكن سرد الأحداث المهمة وهنا سأتناول قضية الحشود العسكرية الإسرائيلية على سوريا.

لغز الحشود الإسرائيلية على سوريا

كنت فى حفل لوداع الوفد البرلمانى برئاسة أنور السادات فى أوائل الأسبوع الثالث من مايو ١٩٦٧، عندما أبلغنى سيميونوف أن هناك حشودا إسرائيلية على سوريا، ولما استفهمت منه عما يقترحه لمواجهة ذلك قال نحن نبلغكم فقط!!

ذهبت إلى الرئيس السادات وأبلغته بالمعلومات، واقترحت عليه أنه مادام سيغادر موسكو باكرا صباحا، فيمكنه توصيل هذه المعلومة للرئيس عبد الناصر. فرفض الرئيس السادات وقال عليك أنت إبلاغها فورا لعبد الناصر.

وقمت بذلك، وعلمت فيما بعد أن السوفيت أبلغوها القيادة العسكرية المصرية وطبعا علمت القيادة السياسية بذلك.

وقد أرسلت برقية عقب سماعى بخبر الحشود فورا، ولكنى أضفت إليها هذه الفقرة «وقد ترون عرض الموضوع على الأمم المتحدة» وذلك لخوفى من أن نجر إلى حرب.

ثم قام الفريق محمد فوزى ومعه مستشاروه العسكريون بزيارة سوريا. وزار هو والقيادة العسكرية السورية الجبهة بطائرة هليكوبتر. وعادوا يؤكدون أنه لا توجد حشود على سوريا.

أبلغت المارشال جريتشكو بنتيجة الزيارة، فأكد أن هناك حشودا إسرائيلية على وجه اليقين وأنهم يعلمون تفاصيلها حتى أسماء قادة الألوية، بل وأسماء قادة الكتائب وقال إنه يتعجب من كلام الفريق فوزى.

ثم تداعت الأحداث كما سبق أن ذكرت فى أكثر من موضع، وحشدنا نحن قواتنا المسلحة المصرية على الحدود. واستدعينا ١٠٠٠٠٠ من الاحتياطى كما سبق ذكره.

ووصل الموقف إلى منتهى التوتر وأغلقنا مضيق تيران، وأخرجنا قوات الطوارئ الدولية. وقد طلب الرئيس عبد الناصر إبعادها من الحدود بيننا وبين إسرائيل، ولكن «رالف بانش» مساعد «يوثانت» سكرتير عام الأمم المتحدة ثم يوثانت نفسه رفضا هذا الطلب وأصرا على سحب جميع القوات من الحدود ومن مضيق تيران وشرم الشيخ وخليج العقبة، مما مهد لمواجهة حقيقية بيننا وبين إسرائيل. ولم يجد عبد الناصر مفرا إلا قبول هذا القرار حتى لا يتهم أنه يختفى وراءها.

ثم طلب السفير السوفيتى «باجيدابيف» إيقاظ الرئيس جمال عبد الناصر الفجر وأبلغه بالاتفاق السوفيتى الأمريكى على انذار من يبدأ الضربة الأولى وتحمله ما يحدث من تبعات ذلك.

لم يسر هذا الانذار إلا علينا. فقد كان إحدى وسائل التمويه الأمريكية، لأن أمريكا كانت تعلم تماما أن إسرائيل سوف تبدأ العمليات العسكرية. ولم يكن هذا الإنذار لنا إلا لكى نزداد استرخاء. ويجعلنا نعتقد بأنه لن يكون هناك حرب. وفعلا كانت القيادة السياسية والعسكرية تعتقد أنه لن تحدث أى حرب بيننا وبين وإسرائيل، بل وأخذت القيادة العسكرية وكثير من كبار الضباط فى ترديد هذه المقولة.

وجرت مناقشة فى القيادة العسكرية المصرية طالب الفريق صدقى محمود قائد سلاح الطيران بأن تقوم مصر بالضربة الأولى. وعندما عارضه المشير عامر صاح أنه إذا لم يضرب أولا فستكون الكارثة. فقال له المشير إنك تريدنا أن نحارب أمريكا وإسرائيل وليس إسرائيل وحدها. والحقيقة أن النتيجة ستكون واحدة وهى الهزيمة الساحقة التى حدثت سواء ضربنا الضربة الأولى أو لم نضربها. والحقيقة أيضا أن قرار المشير عامر كان أكثر حكمة، رغم أن النتيجة واحدة فقد كانت ستصبح أسوأ لو بدأنا.

وكان كلام الفريق صدقى مبنيا على أساس أنه ليس لدينا دفاعات جوية ضد الطيران الواطى، ولم نقم دشما خرسانية لوقاية طائرتنا فى مطاراتنا الحربية. ولكن هذا لا يعفى قائد الطيران من المسئولية. فكان عليه بعد أن عرف بأن الهجوم سيحدث يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ أن يتم نشر طائراتنا بأشكال وأماكن مختلفة وعدم تركها بجانب بعضها فى شكل طابور عرض. ولم يتحسب لهجمات جوية، كما كان من المدهش أن يستقل المشير عامر طائرة مروحية ومعه القيادات العليا للقوات المسلحة للتفتيش على قواتنا فى سيناء فى يوم ٥ يونيو بالذات، وهو يعلم أن هناك معلومات تقول باحتمال بدء العمليات العسكرية فى نفس هذا اليوم، إلا إذا كان لديهم اقتناع بأن الحرب لن تحدث

أصلا كما سبق ذكره.

وبدأت الحـرب فى هذا اليـوم ٥ يونيـو ١٩٦٧. وبدا واضـحـا - ودعـونا أن نكون صريحين وأمناء مع أنفسنا - أن التخطيط الإسرائيلى كان غاية فى الكفاءة والدقة وأنهم كانوا يعلمون كل صغيرة وكبيرة عن قواتنا المسلحة. والأهم من ذلك دراسة سلوكيات الجنود والنظام المتبع وعلموا بدقة إن موعد الإفطار للجنود يبدأ الساعة التاسعة صباحا، وأن هذا هو الموعد الذى تترك فيه قوات الدفاعات الجوية أماكنها ورقابتها بعد عمل مرهق يستمر طول الليل، وضربوا ضربتهم فى هذا الوقت بالذات. وبات واضحا أنهم خططوا لكل شىء، فكان لديهم قنابل خاصة فائقة الاختراق والقوة لضرب ممرات الطائرات وتخريبها وتحطيم خرساناتها بحيث لاتصلح لهبوط الطائرات مما حدا بأن تهبط طائرة المشير فى أنشاص.

كذلك أتت طائراتهم من الشرق والغرب والشمال مما أدى إلى التصريح الخطير بأن الولايات المتحدة دخلت الحرب بجانب إسرائيل. واستشاطت أمريكا غضبا من هذا التصريح الذى أعلنه كل من عبد الناصر والملك حسين. فقد أفقدنا آخر ذرة عطف داخل أمريكا نفسها، خصوصا فى وزارة الخارجية الأمريكية لأنه قد يؤدى إلى ثورة عربية ضد المصالح الأمريكية والفتك بالرعايا الأمريكيين فى جميع أنحاء العالم العربى.

كذلك كان التمويه التكتيكى والاستراتيجى على جانب كبير من الذكاء والخداع. وقام به جونسون شخصيا كما سبق ذكره، كذلك موشى ديان حين أعلن تسريح جزء من القوات المسلحة الإسرائيلية قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ مباشرة، مما يوحى بأن الحل السياسى للموقف بأكمله هو الأرجح ولم يكن هذا قد حدث بل العكس هو الصحيح.

والأدهى من ذلك أن الطيارين الإسرائيليين من أصل عربى، كانوا يحادثون طيارينا باللغة العربية أثناء الاشتباك ويحثونهم على القفز بالبراشوت من طائراتهم مدعين بأنها تحترق وكان هذا غير صحيح.

عموما كانت حرب يونيو مأساة بمعنى الكلمة. وكانت نتيجتها كما نعرف ساحقة، فقد احتلت سيناء والضفة الغربية للأردن والقدس وقطاع غزة ومرتفعات الجولان. وأصبحت إسرائيل على بعد ٥٠ كيلو من دمشق، ومزقت الجيوش العربية كلها فى ثلاث دول عربية. وحطمت بذلك الروح المعنوية والروح القتالية لديها ومازلنا نعانى منها حتى الآن.

التساؤلات التى فجرتها حرب يونيو ١٩٦٧

ثم نأتى إلى التساؤلات الكثيرة التى فجرتها هذه الحرب.

نبدأ بما يقال عن الرئيس عبد الناصر

يقول معارضو عبد الناصر إنه زج بالقوات المسلحة فى حرب وهو يعرف مسبقا أنها ستقضى على القوة الرئيسية فى الجيش، وبذلك تسنح الفرصة للتخلص من المشير عامر ورجاله وسيطرتهم على الجيش وتهديدهم لعبد الناصر نفسه وعصيان أوامره وإظهار أنفسهم بأنهم القوة الحقيقية وليس عبد الناصر. ويدعم هذا الرأى أن الرئيس كان فعلا يريد أن يتخلص من المشير.

ولكن جمال عبد الناصر كان على جانب كبير من الذكاء والدهاء، إذ كان مدرسا فى كلية أركان الحرب ويعلم جيدا أن من السهل البدء فى حرب ولكن من الصعب جدا التكهن بنتائجها.

ويرد على ذلك بأنه كان يتصور أن الحرب ستتوقف نتيجة للتدخل الدولى والأمم المتحدة، ولن يسمح لها بالاستمرار حتى تحطم القوات المسلحة المصرية كلها ولكنها ستهز القيادة العسكرية وتقضى على مكانتها وهيبتها مما يسهل التخلص من قيادتها وعلى رأسها المشير.

وهذا فى نظرى مغامرة غير محسوبة بدقة وخطرها مدمر. والأرجح أنه خدع من أمريكا «جونسون» وإسرائيل كما وقع ضحية لأخطاء السوفيت التى سأذكرها بالتفصيل. والأهم أنه هو الذى نبه القيادة العسكرية أكثر من مرة بأن الحرب ستقع فى ٥ يونيو، فكيف إذن ينبه القيادة العسكرية لهذه الأخطار وفى نفس الوقت يسعى لهزيمتها وتدميرها.

الموقف السوفيتى وأخطاؤه

ونبدأ بقصة الحشود الإسرائيلية على سوريا وماصاحبها من تأكيدات سوفيتية مدعمة بأسماء الضباط الإسرائيليين فى هذه الحشود. وما أكدته زيارة الفريق فوزى والعسكريين السوريين بعدم وجود أى حشود!! والأرجح أن السوفيت قد خدعوا وسُرب اليهم عن قصد هذه المعلومات عن طريق إسرائيليين عملاء مزدوجين للموساد وللسوفيت فى نفس الوقت. كانت الحشود الإسرائيلية أساسا على حدود مصر وليست على حدود سوريا كما دلت على ذلك مسيرة الحرب. وكان تسريب هذه المعلومات عن

عمد لأن الإسرائيليين متأكدون أن السوفيت سيبلغوننا وبذلك يصرفون نظرنا عن الحشود الأصلية على جبهتنا.

ثانيا، أن السوفيت صدقوا أن الولايات المتحدة وجونسون جادان فى إنذار من يبدأ العمليات العسكرية، فقاموا هم بإنذارنا بينما لم تفعل ذلك أمريكا بل كانت تعلم تمام العلم أن إسرائيل ستهاجم مصر.

تحذير من سوريا نفسها

وحدث أن أرسلت الجماعات القومية فى سوريا معلومات تؤكد أن النظام السورى سيجر مصر وعبد الناصر إلى حرب مع إسرائيل، وذلك فى شهر مايو ٦٧. وكان النظام كما سبق أن ذكرنا يصعد عدوانه على الأراضى الإسرائيلية على الحدود السورية. والحقيقة أن عبد الناصر اهتم بهذه المعلومات وأرسل الكثير من النصائح للنظام السورى لكى يوقف هذه الاستفزازات ولكن كان رد النظام السورى أنه يحارب حربا شعبية وأنهم واثقون من أنفسهم.

وهكذا استمرت الهجمات الفدائية من الأراضى السورية. وأدى ذلك إلى حشد إسرائيل لقوات لها على الحدود. وكانت إسرائيل تقوم بهذا الحشد بصورة متكررة حسب الأحداث. وجدير بالذكر أنه فى ١٤يوليو ٦٦، هاجمت إسرائيل سوريا. وبالرغم من إصابة بعض الأهداف العسكرية السورية إلا أن التركيز، كان على السد المقام على نهر وادى «بانياس» وكان هذا جزءا من برنامج إسرائيلى يرمى إلى الوصول إلى مصادر المياه السورية. هذا ويعتبر نهر «بانياس» من منابع مياه نهر الأردن الرئيسية.

وهناك رأى آخر يقول إن السوفيت هم الذين خدعوا مصر بهذه الخطوات التى ذكرتها، وذلك لكى تدخل مصر الحرب وتدمر قواتها المسلحة لكى تعود مصر إلى الاتحاد السوفيتى ذليلة راكعة ويملى عليها الاتحاد السوفيتى سيطرته ويعمل على تحويل مصر إلى دولة شيوعية. والحقيقة أن هذه النظرية لا يسندها ما حدث فى الاتحاد السوفيتى نفسه بعد هزيمة مصر. فقد صدم الشعب السوفيتى من هزيمتها بهذا الشكل الساحق المهين، واعتبروا أن أداء القوات المسلحة المصرية إهانة مخجلة للقوات المسلحة السوفيتية والأسلحة السوفيتية التى حارب بها الفيتناميون والصينيون والهنود وانتصروا على أعتى الدول. وقامت حملة واسعة بين الشعب تندد بسياسة الحزب الشيوعى السوفيتى الذى يقيم علاقات مع دول تهين العسكرية السوفيتية ولا تجيد استخدام السلاح والمحافظة عليه، كما أنها لا تستحق أى مساعدة من المساعدات

السخية التى أعطيت لها. وبلغ حد ثورة الشعب أن سائقى التاكسى كانوا يرفضون ركوب أى عربى فى سياراتهم !! وكان يغذى هذا الشعور بالمهانة الإذاعات ووسائل الإعلام الأجنبية، خاصة الإسرائيلية التى وجهت كل نشاطها وباللغة الروسية إلى الشعب السوفيتى.

واضطرت الحكومة السوفيتية والحزب الشيوعى إلى القيام بحملة مكثفة واسعة النطاق، ومعهما وزارة الخارجية للدفاع عن السياسة السوفيتية والعلاقات مع العرب، بل وأقاموا مؤتمرا ضخما ليهود الاتحاد السوفيتى نددوا فيه بسياسة إسرائيل العدوانية. وذهل الشعب من أن بين هؤلاء اليهود السوفيت علماء وأدباء وفنانون وكتاب يعتبرون فى القمة فى اختصاصاتهم ولم يكن يعلم أنهم يهود إلا من صورهم التى نشرت فى هذا المؤتمر اليهودى.

والذى يؤكد موقف السوفيت من هزيمة مصر فى حرب ٦٧، أن السوفيت كانوا فى منتهى السعادة فى حرب ٧٣، عندما عبر الجيش المصرى القناة وحطموا خط بارليف بأسلحة سوفيتية. ولما أحسوا بأن إسرائيل قد تعود إلى هجوم مضاد ضد العبور، جاء كاسيجين رئيس الوزراء بنفسه يوم ١٢ أكتوبر ومعه المارشال كوليكوف رئيس أركان حرب القوات المسلحة السوفيتية لمساعدتنا، كما سيأتى ذكره عند الحديث عن حرب أكتوبر ٧٣.

كنت أحد الذين أرسلوا إلى القيادة المصرية عن موعد الهجوم العسكرى الإسرائيلى على مصر. ففى يوم أول يونيو ١٩٦٧ كنت قد وجهت دعوة إلى السفير الأمريكى فى موسكو لويلين طومسون لحفل عشاء فى الخامس من يونيو.

ورد على بقوله: يا مراد، إننى قد لا أستطيع حضور هذا العشاء لأن أحداثا مهمة وخطيرة قد تمنعنى من الحضور. وعلى الفور بعثت بهذا المعنى إلى القيادة فى مصر، ولم أكن الوحيد الذى نبه إلى هذا الموعد، فقد تلقى الرئيس جمال عبد الناصر تحذيرات بذلك من مصادر أخرى. وقام هو بدوره بتحذير القيادة العسكرية، وقال لهم: عندى معلومات بأن إسرائيل ستهاجم يوم ٥ يونيو.

قامت الحرب فى يوم ٥ يونيو ٦٧ وفى خلال ساعات ضُرب سلاح الطيران المصرى بأكمله وقُضى عليه، واتضح أن الحشود الإسرائيلية كلها كانت على مصر وليس على سوريا. ولا داعى للدخول فى تفاصيل هذه الحرب، وكانت الهزيمة صاعقة بل هى من أكبر النكسات التى منيت بها مصر فى العصر الحديث. وبعد أن وجهت ضربتها

للقوات المسلحة المصرية، توجهت إسرائيل إلى الجبهة السورية واحتلت جبل الشيخ ومرتفعات الجولان ووصلت إلى القنيطرة التى تبعد خمسين كيلو مترا عن دمشق.

سارع الاتحاد السوفيتى بتوجيه إنذار إلى إسرائيل بوقف العمليات العسكرية وإلا فإنها ستتحمل مسئولية ما سيحدث لها.. وردت الولايات المتحدة بأن حذرت الاتحاد السوفيتى وتوتر الموقف الدولى بصورة لم يسبق لها مثيل.

ورغم الإنذار السوفيتى والمطالبة بوقف العمليات العسكرية فورا، فقد أسرعت إسرائيل إلى احتلال الجولان وجبل الشيخ لكى تضع السوفيت والعالم كله أمام الأمر الواقع.

أول لقاء مع السوفيت بعد الهزيمة

اجتمعت فى موسكو مع جيكوب مالك نائب وزير الخارجية وخبراء من اللجنة المركزية ومسئولين عن الشرق الأوسط منهم أوليانوفسكى، وكودراتسيف المسئول عن مصر وسوريا والمشرق العربى، وتكلمت معهم بوضوح. وقلت هل كنتم تعرفون أن إسرائيل ستهاجمنا ؟ وإذا كنتم تعرفون فلماذا لم تخبرونا؟ وإذا لم تكونوا تعلمون فهذه كارثة أعظم، فأنتم الذين طلبتم منا ألا نبدأ العمليات العسكرية، وبذلك تعرضنا لضربات الهجوم، فأنتم إذن مسئولون معنا. ولم يجيبوا على هذه التساؤلات ولاذوا بالصمت.

أعتقد أن سبب صمتهم هو أن السوفيت كانوا لا يريدون المواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية وأنهم كانوا يريدون أن يتفادوها بقدر استطاعتهم، واعتبروا أنفسهم أنهم «خلصوا ذمتهم» فى مقابلة شمس بدران - كاسيجين، فقد أوضحوا عدم مشاركتهم لنا فى المعركة. وطلبوا منا أن نحتوى الموقف ولا نعطى للإسرائيليين مبررا لأى هجوم من طرفهم.

ولقد ذكرت فى مكان آخر أنهم خدعوا من مصدرين فى منتهى الأهمية.

الأولـــى: من المعلومات التى وصلتهم عن الحشود مع سوريا.

الثـانيـة: الخداع الاستراتيجى الذى قام به الرئيس جونسون الذى طلب من السوفيت أن يوقظوا جمال عبد الناصر ليلا أو فجرا ليطلبوا منه ألا يكون البادئ فى الحرب.

وفى يوم ٦ يونيو الساعة العاشرة صباحا. قابلت رئيس الوزراء كاسيجين بناء على طلبى. وقبل ذهابى للموعد وصلتنى برقية من القاهرة نطلب فيها من الاتحاد السوفيتى

إرسال ٦٠ طائرة «تى يو ١٦»، وهى طائرة قاذفة قنابل ثقيلة وتستطيع أن تضرب أهدافا عن بعد من مسافة تتراوح بين ٣٠ و٦٠ كيلو مترا على أن تكون الطائرات بكامل تسليحها وأن تدخل المعركة مباشرة.

والعجيب أن يأتى هذا الطلب ومطاراتنا قد تم تخريب ممراتها، فكيف ستهبط طائرات من هذا النوع فى هذه المطارات، إلا إذا كان المطلوب هو ألا تهبط فى أى مطار من مطاراتنا، وتأتى وتهاجم القوات الإسرائيلية وتعود إلى الاتحاد السوفيتى وهذا ضرب من الخيال خصوصا أنه لابد من تأمين حماية جوية لها.

وذهبت إلى موعدى، وانتظرت مع مدير مكتب كاسيجين لمدة خمس دقائق قبل اللقاء فبادرنى بقوله: أين كلام شمس بدران، وأين زحف القوات المصرية على ثلاثة محاور فى اتجاه بئر سبع وتل أبيب وإيلات؟

وكان ردى عليه أننى سمعت منه مثلما سمعت أنت تماما، لكن الوضع اختلف الآن.

ودخلت لمقابلة كاسيجين بعد خمس دقائق واستقبلنى بشىء من العزاء، وما إن جلست حتى قال هل عرفت؟ لقد سقطت العريش صباح اليوم، قلت له، لا.. لم أسمع.

أردف قائلا : لقد سهرنا طوال الليل فى القيادة السوفيتية ندرس الأحداث والهجوم الإسرائيلى عليكم، ونحن نبحث عن وسيلة نساعدكم بها على وجه السرعة، ومازال الاجتماع مستمرا حتى الآن فى القيادة السوفيتية.

أما بالنسبة لطلبكم ٦٠ طائرة «تى يو ١٦» كاملة التجهيز، فهذا مطلب صعب تنفيذه، فهذه الطائرات والأسلحة التى تجهز بها فى حال وصولها ستكون مكشوفة تماما تحت نظر الأسطول السادس فى البحر المتوسط الذى يراقب عن كثب كل ما يجرى فى المنطقة بأجهزة إلكترونية ورادارات حديثة. وستكشف الولايات المتحدة بهذه المعدات، أن هذه طائرات للهجوم لأنها طائرات هجومية، وسوف يعتبرون ذلك تدخلا سافرا وعسكريا من الاتحاد السوفيتى، وأن معناه أن الاتحاد السوفيتى دخل المعركة بجانب مصر. وهذا من شأنه أن يثير كثيرا من المشكلات التى تهدد السلام فى المنطقة وفى العالم.

وكنا قد طلبنا من السوفيت أسلحة أخرى عديدة مثل ألوية دبابات ومدفعية وغيرها، وكان ردهم أننا سننظر فيها بمنتهى الرعاية، لكن إرسالها لكم لابد أن يستغرق الكثير من الوقت.

وخرجت من اللقاء مع كاسيجين وأنا أشعر بأننى محبط للغاية.

وفى أثناء العمليات العسكرية جاءنى سفير كوبا فى موسكو لمقابلتى فى الساعة الثانية صباح يوم ٦ يونيو بناء على طلبه. وقال لى: لقد ترككم السوفيت لقمة سائغة للإسرائيليين، وهؤلاء الناس ليسوا محل ثقة، قلت له: ليس أمامنا سوى الاتحاد السوفيتى، صحيح أنه لم يقدم الدعم الذى يضاهى دعم الولايات المتحدة لإسرائيل أو يتوازن معه، إلا أننا فى وضع ليس لنا فيه خيار آخر غير الاتحاد السوفيتى.

وبعد انتهاء العمليات العسكرية، قابلنى سفير فيتنام فى موسكو وقال: الآن وقد نزلت بكم هذه الهزيمة وقضى على أسلحة القوات المسلحة المصرية، فماذا أنتم فاعلون؟ أجبته بنفس ما سبق أن قلته لسفير كوبا، وأضفت أنه رغم ما جرى فنحن لا نستطيع أن نستغنى عن الاتحاد السوفيتى.

قال لى: هذا صحيح، لكن أنصحكم نصيحة مهمة جدا، وهى ألا تتركوا القرار فى يد السوفيت، وعليكم أنتم أن تمسكوا بقراركم بين يديكم، هذه هى تجربة فيتنام.

الهجوم على الأردن و سوريا وزيادة التوتر الأمريكى - السوفيتى

كان الهجوم الإسرائيلى على سوريا قد بدأ مساء يوم ٥ يونيو ١٩٦٧، وأدعت إسرائيل أنها تعرضت لهجوم بالمدافع من الفيلق العربى الأردنى. واستمر الهجوم على سوريا حتى تمكنوا يوم ٩ يونيو من بلوغ قمة مرتفعات الجولان، وكان هناك بعض القادة الإسرائيليين الذين يريدون التقدم إلى دمشق.

وفى يوم ١٠ يونيو اتصل كاسيجين بالخط التليفونى الساخن بالولايات المتحدة، وطلب أن يكون الرئيس جونسون شخصيا على الطرف الثانى من الخط الساخن. وقال كاسيجين لجونسون بوضوح شديد: إذا لم يتوقف هجوم الإسرائيليين على سوريا، فسوف يتخذ الاتحاد السوفيتى من الأفعال ما يناسب هذا الموقف لإيقافهم بما فى ذلك الأفعال العسكرية.

وصدم جونسون لأول وهلة عند سماعه بهذا الإنذار، ولم يرضخ فى الحال، فمازالت أمامه تجربة فيتنام، وإذا تراجع فسيكون هذا بمثابة تراجع آخر لأمريكا. لكن إسرائيل وافقت فى اليوم نفسه على وقف إطلاق النار من خلال مفاوضى الأمم المتحدة، وطوال هذا اليوم واصل جونسون وكاسيجين المكالمات التليفونية المتبادلة على الخط الساخن منعا لاندفاع الأحداث إلى حرب عالمية ثالثة. كان الأسطول السادس فى البحر المتوسط على مسافة ٣٠٠ ميل غرب سوريا، وصدرت إليه الأوامر بالتوجه مباشرة إلى سوريا،

فقد تصور الأمريكان بعد قصف السفينة «ليبرتى» أن سوريا قد تكون هى التى قصفتها.

كان الإسرائيليون قد حشدوا قواتهم على شمال الأردن، وفى النتوء الداخل إلى القدس الشرقية.

وقد كشف الجنرال مردخاى جور رئيس الأركان فى كتابه، الذى صدر بعد الحرب، عن أن التخطيط الإسرائيلى لاحتلال القدس كان قد بدأ مبكرا جدا وعقب حرب ١٩٤٨. وقال: لقد أعددنا جميع المنازل المتاخمة للحدود مع القدس الشرقية، ووضعنا على أسقفها أمكنة للأسلحة، وزرعنا فيها عبوات ناسفة لكى نستخدمها فى هدم حائط المدينة القديمة، انتظارا ليوم من الأيام نقوم فيه بتفجير هذه العبوات.

وبعد العدوان، وهزيمة ١٩٦٧، شعر الشعب والقوات المسلحة فى الاتحاد السوفيتى بأننا سببنا لهم إهانة بهذه الهزيمة، وذلك بالأداء الهزيل فى الحرب، ونشطت الأجهزة والدعايات الغربية، وعلى رأسها الإذاعات الإسرائيلية الموجهة إلى الشعب السوفيتى، مركزة على أن الشعب السوفيتى قد سلح مصر كل هذا التسليح من عرق الشعب السوفيتى، وحرمه من لقمة العيش، وضيع المصريون والسوريون كل هذا هباء فى الصحراء، وأخذوا يركزون على إهانة العسكرية السوفيتية ونظام أسلحته.

كنت صديقا للفريق أول محمد فوزى الذى كان يمتاز بالشخصية العسكرية الصارمة، والانضباط التام، مع كونه إنسانا عطوفا على جنوده، لدرجة أن كثيرين من الضباط كانوا يقولون لى على سبيل المزاح والدعابة : لو أنك أخذته إلى موسكو لفترة من الوقت، لاستطعنا أن نلتقط أنفاسنا. وقد سألت الفريق أول فوزى عن دوره فى عام ١٩٦٧، وكان وقتها رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة، ومسئولا مسئولية مباشرة عن كل ما حدث من هزيمة، فقال لى: الذى عيننى رئيسا للأركان هو جمال عبد الناصر، أما المشير عامر فهو لم يعترف بهذا التعيين.

وكان شمس بدران وزير الدفاع معارضا أيضا لتعيين الفريق فوزى رئيسا للأركان. والحقيقة أن شمس بدران الذى جاء فى زيارته للاتحاد السوفيتى قبل حرب ٦٧ بعشرة أيام، ليعرض على الزعماء السوفيت الحالة المتوترة للغاية فى المنطقة، التى كانت تنذر بحرب شاملة ومدمرة، كان يقضى وقته فى موسكو مقسما بين المباحثات مع القادة السوفيت، وبين شراء أثاث لبيته المزمع بناؤه فى عمارة «تاجر» فى آخر طابق من هذه العمارة، وعلى السطح الذى يعلو مقر السفير المغربى. وقد فاتح السفير فعلا فى هذا الموضوع، والحقيقة أنه كان يحلم بهذا البيت، الذى يطل على منظر من أجمل المناظر

على النيل فى مدينة القاهرة.

وعندما عاد شمس بدران بعد هذه الزيارة إلى مصر، وتكلم فى مجلس الوزراء، ذكر أن السوفيت سيحاربون معنا، وأن الأسطول السوفيتى والقوات المسلحة السوفيتية سوف يدمران الأسطول السادس الأمريكى، وسوف «يشفيه» لحما وعظما، ولا أدرى من أين أتى بهذا الكلام الذى لا يخطر على بال إنسان عاقل.

وبعد الهزيمة سرت شائعة أو اعتقاد بأن شمس بدران مرشح أن يكون رئيسا للجمهورية، وفعلا تعامل شمس بدران مع سكرتارية الرئيس وكأنه الرئيس المقبل. والغريب أن الرئيس عبد الناصر هو الذى رشحه لهذا المنصب فى حديثه مع عبد الحكيم عامر، وأعتقد أنه لم يكن جادا فى ذلك وأنها مجرد بالونة اختبار أو إرضاء مؤقت لعبد الحكيم عامر. والمؤكد أن الرئيس عبد الناصر هو الذى زرع شمس بدران فى مكتب المشير ليكون عينا له، لكن بدران أنضم قلبا وقالبا إلى المشير. وكما سبق أن شرحت فقد كان المشير رجلا له طبيعته المحببة إلى أصدقائه، والذين يعملون معه، وكان شخصية جذابة، وحسن المعشر، يلبى أى طلب يتقدم به إليه أى فرد يعمل معه.

لكن شيئا من هذا لم يتحقق، واستطاع الرئيس جمال عبد الناصر بعد التأييد الشعبى العارم له فى ٩ و١٠ يونيو، أن يسيطر على الأمور، وأن يقضى على مجموعة المشير عامر من رجال الصاعقة وغيرهم الذين كانوا معتصمين فى بيته، وانتهت بالقبض على المشير وإيداعه فى دار بالهرم، ثم انتحاره.

أما شمس بدران فقد استطاع أن يخرج من مصر، حيث يقيم الآن فى بريطانيا.

أهداف إسرائيل من حرب ١٩٦٧

- كان الهدف الأول هو أن تقوم إسرائيل وحدها بالعمليات العسكرية على الجبهات الثلاث مصر والأردن وسوريا بعد تجربة العدوان الثلاثى ١٩٥٦ وتحقيق هزيمة لكل هذه الجبهات.
- أن تكون الهزيمة صاعقة ومدمرة لجيوش الدول الثلاث بحيث تجبرها على الاستسلام وطلب وقف إطلاق النيران.
- أن هذه الهزيمة - وبهذا الحجم - لابد أن تؤدى إلى إبعاد هذه الدول عن الاتحاد السوفيتى واللجوء للولايات المتحدة لحل مشاكلها مع إسرائيل.
- أن تؤدى هذه الهزيمة إلى إهانة الاتحاد السوفيتى وتحقير سلاحه والنيل من

الفكر والعسكرية السوفيتية فيوقف تعامله مع هذه الدول.

- أن الهزيمة لابد أن تؤدى إلى انهيار أنظمة هذه الدول وتكون نهاية لجمال عبد الناصر الذى كانت تستهدفه فى حرب ٥٦ ولم يتحقق هدفها.
- تعجيل الصلح مع إسرائيل وبشروطها.
- كذلك، كان من أهم أهداف إسرائيل، الاستيلاء على القدس العربية وتحويل القدس كلها إلى عاصمة أبدية لدولة إسرائيل كما كانت تطمع منذ حرب ١٩٤٨.
- الاستيلاء على منابع مياه نهر الأردن من المرتفعات السورية فى الجولان وجبل الشيخ، وكان غزو لبنان ١٩٨٢ لإتمام العملية.
- الاستيلاء على الضفة الغربية وتغيير اسمها إلى ياهودا والسامرا.

ولم تحقق هذه الحرب ما كانت ترمى إليه إسرائيل بالنسبة لأهدافها وهى:

١- القضاء على عبد الناصر.

٢- إبعاد المنطقة عن الاتحاد السوفيتى، ولكن حدث العكس.

٣- الصلح مع إسرائيل، وقد رفضته جميع الدول العربية.

٤- رفض العرب ومصر بالذات الاستسلام للهزيمة.

٥- التصميم على إزالة آثار العدوان وفق مبدأ ما يؤخذ بالقوة لايسترد إلا بالقوة.

ومن المفارقات العجيبة أن هزيمة ١٩٦٧ لم تؤد إلى صلح مع إسرائيل بينما أدى انتصار ١٩٧٣ إلى هذا الصلح.

الفصل السابع

عبد الناصر بعد الهزيمة

وصلت إلى القاهرة قادما من موسكو فى أواخر يونيو ١٩٦٧، بعد العدوان، وتم استدعائى لمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر.. جلست انتظره فى الصالون الخاص بالزوار.. وما إن دخل الغرفة حتى شعرت بأننى أرى شخصا آخر.. ليس هذا هو عبد الناصر.

كان منهكا واجما، تظهر عليه بكل وضوح آثار الهزيمة الساحقة، ومن الطبيعى أن يكون فى غاية الحزن والألم. فعبد الناصر كان الزعيم الذى يحرك الشارع العربى من الخليج إلى المحيط. وهو الرجل الذى رفع مع نهرو وتيتو لواء عدم الانحياز، وكان له دوره الهائل فى حركة تحرير الشعوب، بل أستطيع القول إنه لعب دورا فاعلا ومباشرا وأساسيا فى تحرير إفريقيا. وكان عبد الناصر زعيما له وجوده الملموس فى أرجاء العالم العربى. هذا الزعيم لابد أن يكون قد تأثر تأثرا بالغا بهذه الهزيمة.

جرت فى عينى هذه الخواطر، فى تلك اللحظة التى رأيته فيها لأول مرة بعد الهزيمة.

بادرنى الرئيس عبد الناصر بقوله: «شايف إيه اللى حصل لنا يامراد».

قلت حصل إيه ياسيادة الرئيس حتى أراك بكل هذا الحزن والألم؟ نحن هزمنا فى معركة، فليكن، لقد انهزمت دول وزعماء كثيرون قبلنا، لكن ألا ترى أن هذه المعركة بيننا وبين إسرائيل أدت على الأقل إلى عوامل إيجابية، مع عدم التهوين من فداحة الخسارة؟

قال لى: إنت هاتتفلسف؟! انتظر حتى أغلق جهاز التكييف. فالغرفة صارت شديدة البرودة.. وأغلق جهاز التكييف ثم جلس وقال: قل لى ما هى تلك النواحى الإيجابية التى تتحدث عنها؟

قلت: أولا: وهل كان ممكنا لنا التخلص من الانكشارية العسكرية التى حاولت السيطرة على مقدرات هذا البلد، وإدارته بطريقة فاسدة، وبما يقرب من عمل المافيا؟

فنظر عبد الناصر نحوى وبتركيز عميق لنظراته النفاذة المعروف بها ليستشف ما فى داخلى.

فقلت: بالطبع سوف تسألنى ياريس: لماذا لم أذكر لك هذا الكلام من قبل؟ وإجابتى أنك تعرف هذا وتفاصيله أكثر مما أعرفه أنا عشرين مرة.

فقال: ثم ماذا أيضا؟

قلت ثانيا: كان بطرس الأكبر قيصر روسيا، يردد دائما: إننا نحتاج أن يضربنا السويديون «علقة» من حين لآخر، لكى نفيق.

ثالثا: نحن هُزمنا فى معركة، لكن الصراع مازال مستمرا، ويجب علينا أن نركز على كيفية التعامل مع الوضع كما هو عليه الآن بروح التحدى، وأنا آسف لقولى هذا، فأنا على يقين بأنك القائد الذى يتسم دائما بروح التحدى.

وأخذت أشرح ما الذى يمكن أن نفعله الآن، وناقشنا ما الذى نستطيع أن نطلبه من الاتحاد السوفيتى فى هذه المرحلة، وبعد أن فقدنا معظم أسلحة القوات المسلحة.

وسألنى الرئيس: هل قلت كل ماعندك؟

وكنت فعلا قد انهيت كلامى.

فقال لى: إذن اسمع ما سأقوله أنا، وأخذ يشرح لى كيف يفكر فى إعادة تنظيم القوات المسلحة على أسس جديدة تماما، يراعى فيها الانضباط والروح العسكرية والتدريب الجدى والشاق بالنسبة لجميع فروع القوات المسلحة.

وقال: التدريب هو أهم شيء، ولاشك أن السلاح سيساعدنا، لكن المهم للغاية هو التدريب والإنسان المقاتل، وعلينا تجهيز الإنسان الذى يقاتل من أجل مبادئ ورؤية مختلفة تماما عن الرؤية التى سادت فى الفترة الماضية، والتى جعلتهم يتطلعون للمناصب المدنية البراقة، أى يجب أن تكون العسكرية هى أعظم ما يحلم به إنسان فى هذه المرحلة.

وقال: إننا بحاجة لعملية غسيل للعقول، سواء بين القوات المسلحة أو الشعب كله، لنزيل أى فهم بأن إسرائيل قوة لا تقهر، فإسرائيل حققت نجاحها الكبير فى حرب يونيو، بسبب أن القيادة العسكرية عندنا كانت مهلهلة وضعيفة. وقد انعكست صورتها على القوات المسلحة بكاملها، فصارت هى الأخرى مهلهلة، وكل سلاح فيها كان فى حالة استقلال عن باقى الأسلحة، وهذا شيء يحول دون وحدة القوات المسلحة، أو أدائها لعملها كفريق عمل.

وقال: كما رأيت فقد عينت الفريق أول محمد فوزى قائدا عاما للقوات المسلحة وأظنك تعرفه، قلت نعم أعرفه جيدا، وهو رجل عسكرى حازم وملتزم تماما بالانضباط العسكرى.

كما كان اختيار الفريق عبد المنعم رياض كرئيس للأركان اختيارا موفقا للغاية أيضا، فهو رجل فاضل، وعلى علم كبير فى مجالات العلوم العسكرية والفن العسكرى.

واتفقنا فى هذا اللقاء على ألا نتكلم وحدنا مع السوفيت. بل نشرك معنا الجزائر وسوريا، لإيجاد ضغط أكبر على السوفيت ليمدونا بأسلحة متطورة، تساعدنا على استعادة أراضينا.

وسألته: هل كان فى حسابه قبل الحرب أن يعتمد على السوفيت لو قامت الحرب؟

فقال: لا، لم يكن هذا فى حسابنا.

ثم سكت، ولم يذكر على من كان يعتمد.

ولم أشأ أن استزيده إيضاحا، فليس من اللائق أن أوجه سؤالا كهذا لرئيس الجمهورية.

لكننى من ناحيتى شعرت بارتياح لما كنت قد كتبته وأرسلته إليه عن محاضر الجلسات مع رئيس الوزراء السوفيتى كاسيجين، وتحليلاتى الشخصية عن الموقف قبل الحرب. وشعرت بأنه كان مقتنعا بما كنت أكتبه إليه، وأنه اهتم بقراءته، وتوصل إلى النتيجة المؤكدة وهى أن السوفيت لن يشاركوا فى الحرب، بعكس ما قاله شمس بدران.

ثم قال الرئيس يا مراد.. أنا تعبان، ولا أستطيع أن أستمر معك فى هذا اللقاء أكثر من هذا، وأحب أن أراك غدا.

وقد ذكر لى السيد سامى شرف عقب اللقاء أن الرئيس شعر بالارتياح للكلام الذى دار بيننا، وقال إنه يريد أن يراك غدا.

وللأسف فإنه كان متعبا فى اليوم التالى، ولم أتمكن من مقابلته.

الجنرال لاشينكو : تستطيعون عبور القناة فى أى وقت

بعد ذلك أرسل الاتحاد السوفيتى إلى مصر وفدا عسكريا برئاسة المارشال زخاروف، وكان رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة، يصحبه فريق من الخبراء العسكريين، وتقرر تغيير المستشار العسكرى السوفيتى، وعين بدلا منه الجنرال لاشينكو، وكان رجلا محاربا وعلى جانب كبير جدا من الشجاعة.

وقد روى لى الفريق عبد المنعم رياض أنه اصطحب معه الجنرال لاشينكو فى إحدى المرات التى كان يتفقد فيها وحداتنا التى تواجه مباشرة خط بارليف على ضفاف قناة

السويس. وفى أحد المواقع التى يكون فيها المجرى المائى للقناة فى أضيق نقاطه، ولايفصلنا عن المواقع الإسرائيلية سوى هذا المجرى، طالب لاشينكو بأن تطلق وحداتنا النار على المواقع الإسرائيلية التى ردت فى الحال بإطلاق النيران.

واستفهمت من لاشينكو عن غرضه من هذا الاختبار، فقال :كنت أود معرفة مدى الوقت الذى يمضى قبل أن يرد الإسرائيليون بإطلاق النار.

وقد عاد لاشينكو إلى موسكو فى عام ١٩٦٨ بعد صدور قرار تعيينه نائبا لرئيس أركان حرب القوات البرية، وقابلته وقتها وسألته هل تستطيع القوات المصرية عبور قناة السويس ؟ أجابنى مؤكدا طبعا تستطيع، لكن لا تنقل عنى هذا الرأى فى موسكو، وإلا أصابهم الذعر، فهم لا يريدون فى هذه المرحلة حدوث عمليات عسكرية واسعة النطاق، ويقولون إن القوات المصرية غير قادرة على مثل هذه العمليات.

ولم يكن الجنرال الذى أرسله السوفيت ليحل محل لاشينكو فى مصر على نفس مستوى كفاءته، وكان شخصية سياسية أكثر منه شخصية عسكرية مقاتلة. وشعرت بأن السوفيت لا يريدون لنا أن نقوم بعمليات عسكرية قد تؤدى إلى اندلاع حرب شاملة على ضفاف قناة السويس فى هذه الأثناء.

ولم تكن القوات المسلحة المصرية راضية عن الأسلحة السوفيتية التى وصلت إلى مصر، فقد كانت أسلحة عادية، ولدى مصر الكثير منها، بينما القوات المسلحة تحتاج أسلحة متطورة. فحدث استياء فى القوات المسلحة، وكان الفريق أبو العز أكثرهم مجاهرة باستيائه، وكان رجلا معتدا بنفسه جدا، ومنضبطا تماما، ولدية كفاءة إدارية عالية، ولم يرضه هذا الحال فقدم استقالته من منصبه.

وقد تحدث معى بعض الضباط الذين كانوا يدرسون فى موسكو، بخصوص الأسلحة السوفيتية، وكيف أنها ليست من نوعية الأسلحة المطلوبة، فى هذه المرحلة، وأنها أسلحة تقليدية حاربنا بها فى ٦٧، وبدأوا يطرحون تساؤلات حول ما هى الضرورة إذن من وجود الخبراء السوفيت فى الجيش المصرى؟

وتكلمت مع المسئولين السوفيت، ونقلت لهم هذا المعنى، وقلت لهم: إنهم إذا لم يطوروا تسليح القوات المسلحة المصرية، فسوف تزداد حالة عدم الرضا بين الضباط، وكذلك التساؤل حول جدوى هذا العدد الكبير من الخبراء السوفيت فى مصر، ولم أكن قد أبلغت الرئيس عبد الناصر بذلك.

لكن وصلتنى بعد عدة أيام برقية من السيد محمود رياض وزير الخارجية، بألا أتكلم فى هذا الموضوع على الإطلاق.

وكان واضحا لى أن مضمون البرقية صادر عن الرئيس عبد الناصرشخصيا، وشعرت أن السوفيت شكونى إليه.

وبدأت حرب الاستنزاف

بدأت إسرائيل عقب إنتهاء حرب يونيو مباشرة سلسلة من العمليات العسكرية المحدودة، وقمنا نحن من جانبنا ببعض العمليات، بالضرب بالمدفعية عبر قناة السويس، ومن أهم هذه العمليات «معركة رأس العش» فى شهر يونيو ١٩٦٧، والتى كبدنا فيها المهاجمين الإسرائيليين خسائر كبيرة، ثم اغراق المدمرة إيلات.

وهناك أشياء ترتبت على إغراق المدمرة إيلات الإسرائيلية. ففى يوم ٢٨ أكتوبر أغرقت البحرية المصرية المدمرة «إيلات» بزورق سريع مسلح بصواريخ شديدة الانفجار تنفذ فى جسم المدرعات. وهلل السوفيت لهذه النتيجة التى اعتبروها انتصارا لهم، لأنها المرة الأولى فى تاريخ الحروب التى يدمر فيها زورق صواريخ صغير الحجم، مدمرة كبيرة كإيلات، والمرة الأولى أيضا التى تستخدم فيها الصواريخ فى ضرب سفينة حربية، وليس ضربها بطوربيد. واستلزم هذا تغييرات عالمية فى أساطيل الدول المتقدمة، لاستيعاب هذه النتيجة، وتوجه الاهتمام العالمى إلى الزوارق السريعة لتطويرها وزيادة سرعتها بصواريخ أقوى وأبعد مدى.

وقام الإسرائيليون أيضا بعدة عمليات عسكرية كان لها **هدفان أساسيان هما**: تحطيم الروح المعنوية للقوات المسلحة المصرية، والحيلولة دون دخولها مرحلة عسكرية تؤهلها لعمليات عسكرية واسعة، والهدف الآخر إضعاف ثقة السوفيت فى أى احتمالات لصحوة جديدة للقوات المسلحة المصرية.

واحتدمت حرب الاستنزاف والتراشق المتبادل بالمدفعية على نطاق واسع وقوى، وزادت عمليات الكوماندوز من الطرفين، مما استوجب تهجير كل سكان القناة.

كان السوفيت يخشون أن يندفع المصريون إلى عمليات ضخمة بعد أن أشتدت حرب الاستنزاف، وقد شعرت فعلا بعدم رغبتهم فى التوسع فى حرب الاستنزاف، والهجمات العسكرية، خشية أن تؤدى إلى حرب كاملة على ضفاف قناة السويس فى هذه الأثناء.

وشهدت الفترة ـ مابعد٦٧ـ محاولات أمريكية وسوفيتية لحل المشكلة سلميا. وكان

الاتحاد السوفيتى بكل صراحة يفضل الحل السياسى، فقد اهتزت ثقته فى القوات المصرية بعد حرب ٦٧. وكان المسئولون السوفيت يرددون أن الهزيمة فى الحرب تحتاج إلى عشر سنوات حتى تمحى آثارها بعمليات عسكرية ناجحة، ومع ذلك كانوا يزودوننا باستمرار بسلاح دفاعى أكثر منه هجومى.

لكن الرئيس عبد الناصر طلب أكثر من مرة تزويد القوات المسلحة المصرية بأسلحة الردع، أى السلاح الذى يطول إسرائيل ويصل مداه إلى داخل أراضيها. وفى كل مرة كان رد الاتحاد السوفيتى أنه على استعداد لتقديم سلاح الردع، لكن ذلك تواجهه صعوبات فنية كثيرة. فعلى سبيل المثال، فإن الطائرة تحتاج إلى تدريب طويل وشاق جدا، وكان يذكر باستمرار أن الصواريخ طويلة المدى التى تطول إسرائيل هى صواريخ نووية. وفى الوقت نفسه يتقدم بمقترحات لحلول سياسية ناقصة متفق عليها مع الولايات المتحدة، ولم تكن تحظى بموافقة إسرائيل، وكان عبد الناصر يرفضها كلها، ويقول قولته الشهيرة: «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة»، وأن هذا هو الشىء الوحيد الذى سيجعل إسرائيل تأتى إلى مائدة المفاوضات، لتتفاوض ونحن على قدم المساواة.

وقد فشلت جميع محاولات الحل السلمى، لأن إسرائيل كانت تظن ـ كما سبق أن أشرت ـ أن مصر سوف تستسلم وهو ما صرح به موشى ديان بأنه ينتظر مكالمة تليفونية من عبد الناصر للتفاوض على السلام، وظل الموقف مجمدا إلى أن صدر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧.

وهناك الكثيرون ممن تشككوا فى جدوى حرب الاستنزاف، وأننا قد خسرنا أكثر بكثير مما خسرته إسرائيل وهذا صحيح. ولكن كانت حرب الاستنزاف ضرورية فقد بلغت خسائر إسرائيل ٥٠٠ قتيل وحوالى ٢٠٠٠ جريح، وفى بعض المراجع ٧٠ قتيلا كل شهر. وذكر لى الصديق الشاعر الفلسطينى الشهير محمود درويش وكان يعيش فى إسرائيل فى ذلك الوقت أن كل جندى يذهب إلى جبهة القناة كانت عائلته تعتبره مفقودا.

والأهم من ذلك أن الجنرال «بوفر» الاستراتيجى الفرنسى المعروف، ذكر لى أن حرب الاستنزاف هى معمل تفريخ للقادة والضباط المحاربين، وأحسن وسيلة لتدريبهم على الحرب الفعلية. وعليكم تطوير حرب الاستنزاف لكى تتلاءم مع أهدافكم فى خلق جيل محارب جديد.

ولحرب الاستنزاف أهداف أخرى كثيرة وليس هنا مكان تحليلها.

الفصل الثامن

أحاديث الأيام الأخيرة
فى حياة عبد الناصر

أثـــــرت هزيمـة ١٩٦٧ تأثيـرا شـديدا على الرئيس جمـال عـبـد الناصـر، وأعـتلت صحته، خصوصا الآلام المبرحة التى كان يشكو منها فى ساقيه، والضعف الشديد فى الدورة الدموية فى الأطراف والتهاب الأعصاب.

وفى سبتمبر ١٩٦٩ أصيب بأزمة قلبية، وكان السيد صائب سلام رئيس وزراء لبنان فى القاهرة، ينتظر مقابلة الرئيس عبد الناصر، الذى لم تكن حالته تسمح له بمقابلته، فتعللت له رئاسة الجمهورية بأسباب أخرى، يتعذر معها إتمام المقابلة، والحقيقة أنه كان يعانى فى تلك الأيام من جلطة فى القلب، علاوة على مرض السكر الخبيث الذى اشتد عليه أيضا.

ومن المعروف أن هذا المرض يدمر الأنسجة، وقد تفاقمت حالته، ومع أنه استطاع الخروج من نوبة المرض، إلا أن الآلام ظلت تلازمه، ولم تتوقف شكواه منها. وأخذ يتردد على الاتحاد السوفيتى للاستشفاء فى سخالطوبا بالقوقاز، وهى مشهورة بالمياه المعدنية التى تبث إشعاعا يساعد على تحسين الدورة الدموية، وتخفيف الآلام. وفعلا لاحظنا أنه كان يشعر بارتياح بعد هذه الجلسات، لكنه لم يكف وهو فى شدة المرض عن مطالبة السوفيت بسلاح الردع، الذى كان يعتبره مهما للرد على أية ضربة إسرائيلية فى العمق.

ونظرا لأنه ظل مهموما بسلاح الردع وهو مريض، فقد كان السوفيت يرسلون إليه وهو يتلقى العلاج للاستشفاء الكثيرين من الخبراء الفنيين والعسكريين والمهندسين ليناقشوه فى هذا الموضوع. وكان يؤكد إيمانه بأنه من الممكن أن نحارب إسرائيل ونتفوق وننتصر عليها فى أية حرب شاملة. وكان يقول إن الإسرائيليين ليس معروفا عنهم الشجاعة، وإن تفوقهم لا يظهر إلا إذا كان لديهم تفوقا كبيرا فى السلاح. وضمن رحلة علاجه أدخله السوفيت ـ فى آخر زيارة له عام ١٩٧٠ـ المصحة وأدخلوه غرفة مخصصة لرواد الفضاء بها أوكسجين تحت ضغط عال، وأجروا كشفا شاملا خصوصا على القلب. ثم جاءنى البروفيسور شازوف ـ وهو الطبيب الخاص بالكرملين ووزير الصحة فيما بعد ـ وأسر لى بصفتى زميلا طبيبا، بأنه سوف يطلعنى شخصيا على حقيقة الحالة الصحية للرئيس، مشترطا ألا أردد هذا الكلام لأى شخص.



الرئيس السادات فى لقاء مع الرئيس بادجورنى
رئيس الاتحاد السوفيتى وكان رئيسا لمجلس الشعب

وقال: كنا نأمل أن تتسع الدورة الدموية الفرعية فى القلب، لكى تعوض انسداد الشرايين، لكن للأسف لم يحدث هذا، وأنا أبلغك بذلك لتعرف الحالة، ولكى تنقلها بشكل غير مباشر - دون ذكر الأسباب - للناس المحيطين بالرئيس حتى يريحوه. ويعملوا على أن يجنبوه التوتر والإثارة، وهذا شىء مهم جدا لحالته، أما عمره فلا أحد يستطيع أن يقرر أى شىء بخصوصه، لكن المؤكد أن ما وجدناه لديه يمثل علامة خطيرة. بعد أن عرفت هذه الحقيقة المؤلمة، لم أستطع أن أبوح بها لأى إنسان ولا حتى للرئيس عبد الناصر، وإن كنت اعتقد أنه كان يعلم بهذا، لذلك لم يكن خبر موته مفاجأة لى.

ولسوء الحظ أنه عاد إلى القاهرة، وحضر اجتماع المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى الذى أعلن فيه قبوله مبادرة روجرز، وتعرض للكثير من حملات الهجوم

البشع والرخيص فى كثير من الدول العربية التى استخدمت فيها أساليب ساخرة ومهينة، خاصة أنه كانت لديه حساسية واضحة لرجل الشارع، ونظرته إليه، وثقته به، مما أثر على صحته كثيرا.

كانت زيارة عبد الناصر الدورية للاتحاد السوفيتي للاستشفاء، تشمل إلى جانب المباحثات العسكرية، إجراء مباحثات مهمة حول الحل السياسى. ورغم استعراضه للجهود الدبلوماسية، فإنه كان يدرك مايحدث من تلاعب أمريكى وتأييدها الأعمى لإسرائيل. كانت إسرائيل لا تكف عن إظهار تمسكها باحتلال الأرض، وكانت الولايات المتحدة تواصل تسليحها الذى بلغ مداه بتصعيد الطيران الإسرائيلى مهاجمة مراكز القوات المسلحة المصرية، ومراكز صناعية، ومنشآت تعليمية (مثل مدرسة بحر البقر ومركز الصناعات المعدنية فى أبو زعبل).

وكان الرئيس نيكسون قد أصبح رئيسا للولايات المتحدة فى عام ١٩٦٨، واتسمت سياسته فى الشرق الأوسط بالسلبية، وكان مستشاره للأمن القومى هنرى كيسنجر مقتنعا بسياسة الانتظار، وعدم تحريك الموقف، ويراهن على أن السوفيت لن يستطيعوا حل المشكلة، وفى المدى البعيد سييأس عبد الناصر منهم.

جاءت أهم زيارة للرئيس عبد الناصر إلى موسكو - وهى الزيارة السرية - فى ٢٢ يناير ١٩٧٠. وفى جلسة مباحثاته مع القادة السوفيت تحدث عن حرية الطيران الإسرائيلى، خصوصا الطائرات الفانتوم، فى ضرب أى أهداف فى مصر. وحسب نص عباراته: إن إسرائيل تضرب المراكز العسكرية، بالشكل الذى كنا ندرسه فى الكلية الحربية، فهى تبدأ بضرب إدارات القوات المسلحة، ثم تموين الجيش، ومراكز التدريب، ومراكز الاتصال، ومعنى هذا أنها تستهدف إحداث شلل للقوات المسلحة.

الكرملين يوافق على طلبات عبد الناصر بعد تلويحه بالاستقالة

وقال الرئيس للسوفيت: إذا استمرت إسرائيل فى غاراتها بهذا التخطيط الكلاسيكى للحروب، فإن هذا يعنى التسليم، وليس جمال عبد الناصر هو الذى يستسلم، ولا هو الذى يتفاوض مع إسرائيل أو الأمريكان فى ظل ما يحدث من عدوان لا نستطيع الرد عليه.

وإذا كان لابد من التفاهم فسوف أترك مكانى لزكريا محيى الدين ليتفاوض معهم، وسأبقى أنا أحارب، وأدافع عن بلدى كفرد عادى تماما. وبعد أن استمع القادة

السوفيت إلى ماقاله الرئيس عبد الناصر، قال بريجنيف اتسمحون بتركنا بعض الوقت، وكانوا يكنون للرئيس عبد الناصر كل الاحترام، والاعجاب بصلابته.

وغادرنا القاعة، حيث اجتمع المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى، وبعد انتهاء اجتماعهم عدنا مرة ثانية برئاسة الرئيس عبد الناصر لاستئناف الجلسات مع القادة السوفيت ليبلغونا بقراراتهم. كانت القرارات على جانب كبير من الأهمية، وهى تسليح قوات الدفاع الجوى بصواريخ لإسقاط الطائرات التى تأتى على ارتفاعات منخفضة. وكذلك إرسال هذه الصواريخ بأطقم سوفيتية، للتصدى للطيران الإسرائيلى المنخفض، وهذه أول مرة يرسل فيها الاتحاد السوفيتى قوة عسكرية بهذا الحجم إلى بلد أجنبى. وقال بريجنيف أرجو أن يكون وصول هذه القوة محاطا بالسرية، وقال إن الرفيق كاسيجين رئيس الوزراء سيتصل بالرئيس الأمريكى، ويشرح له أننا لن نترك إسرائيل تعربد فى سماء مصر وسوريا، وأن الغرض من وجود هذه القوة السوفيتية دفاعى وليس هجوميا.

وقال لنا كاسيجين ونحن على مائدة المباحثات نحن سنتصل بالولايات المتحدة ونتكلم معها بحسم، لوقف الغارات الإسرائيلية فى العمق المصرى، وفعلا وصل التحذير السوفيتى إلى الأمريكيين، لكنه قوبل بازدراء من نيكسون فى أول الأمر، ولم يعره أى اهتمام بناء على تحليلات مضللة من المخابرات الإسرائيلية شككت فى أن السوفيت سيقدمون أى مساعدات حقيقية لمصر.

وفى ١٧ مارس ١٩٧٠ وصلت شحنات من الأسلحة السوفيتية تتكون من الصواريخ سام ٣ (حسب التسمية الأمريكية) وصواريخ «إس - إس - ٢٥».

وقرروا أيضا تسليم مصر طائرات ميج ٢٣ للطيران الليلى، وإرسال وحدة من طائرات الميج ٢٤ المصنوعة من الستنلستيل، وقد خشوا أن تقع فى أيدى الإسرائيليين فأرسلوها ومعها طياروها السوفيت. وقد ذكر بريجنيف أن تدريب المصريين على هذه الطائرة سيستغرق وقتا طويلا، لأنها تحلق على ارتفاعات شاهقة، وأن الطيار الذى يقودها يفقد ٤ كيلو جرامات من وزنه بعد كل طلعة قتال للطائرة.

ولقد انزعج الرئيس نيكسون للغاية من هذه التطورات، وأقلقه الوجود السوفيتى الذى أصبح كثيفا فى مصر، حيث بلغ عدد الخبراء السوفيت فى مصر فى ٤ أبريل ١٩٧٠ عشرة آلاف خبير، بالإضافة إلى الوجود البحرى لهم فى مرسى مطروح من أسطول وطائرات تقوم بالاستطلاع عن قرب لتحركات الأسطول السادس فى البحر

المتوسط. وأدرك نيكسون أن تحذير السوفيت كان جادا، مما أدى إلى وقف إسرائيل (فى ٢٣مارس١٩٧٠) لغاراتها فى عمق مصر.

وعندما كان الرئيس عبد الناصر فى زيارة لموسكو فى يوليو ١٩٧٠، أى قبل وفاته بشهرين، اسقطت الصواريخ المصرية فى يوم واحد فقط سبع طائرات إسرائيلية وصرخت إسرائيل من تآكل سلاح الطيران الإسرائيلى.

قبول مبادرة روجرز بهدف تحريك حائط الصواريخ

هنا تقدم نيكسون بمبادرة روجرز الثانية، نسبة إلى وزير خارجيته ويليام روجرز، وقدم المشروع إلى مصر وإلى إسرائيل، وكان ينص على وقف إطلاق النار لمدة ٩٠ يوما، والدخول فى مفاوضات جادة لحل المشكلة وقبلت مصر المشروع.

كان الرئيس عبد الناصر فى موسكو أثناء تقديم هذا المشروع، ومعه الفريق أول محمد فوزى وزير الدفاع، والقائد العام للقوات المسلحة، والسيد محمود رياض وزير الخارجية. كان الرئيس عبد الناصر يسير فى حديقة المصحة التى يستشفى بها، وعلى يمينه الفريق فوزى، وعلى يساره أنا، فالتفت عبد الناصر إلى الفريق فوزى، وقال له بالنص: فوزى.. كم تحتاج من الوقت لتتقدم بحائط الصواريخ إلى ضفاف قناة السويس؟ وأجاب الفريق فوزى: خمسة وأربعين يوما يا أفندم.

قال الرئيس: لأ. سأعطيك ٩٠ يوما.

كان هدف عبد الناصر إذن من قبول مبادرة روجرز، أن يتحرك بحائط الصواريخ حتى تتمكن القوات المسلحة من عبور قناة السويس تحت مظلة هذه الصواريخ، وتستطيع بذلك إسقاط الطائرات على مسافة أكثر من ١٥ كيلو مترا داخل سيناء.

كان حائط الصواريخ قبل ذلك بعيدا عن ضفاف قناة السويس، وبنيت لهذه الصواريخ حظائر، بالأسمنت المسلح الذى يقاوم اختراق القنابل الثقيلة، بما يوازى المواد الأسمنتية التى استخدمت فى بناء السد العالى، ونفذته شركات المقاولات المصرية. وكانت طائرات إسرائيل تشن غارات متصلة ليل نهار على العمال الذين رفضوا ترك مواقعهم، واستمروا فى بناء الحظائر. وكانت دمائهم تنساب على ما تحطم من هذه الحظائر ولكنهم أصروا على الاستمرار.

ثم قبلت إسرائيل وقف إطلاق النيران، ولكنها أصرت على ما يسمى بالصورة الفوتوغرافية للمواقع، بما يعنى كأننا التقطنا صورة فوتوغرافية لهذه المواقع، وبحيث يسهل رصد أى تغيير يحدث فيها بعد ذلك.

ودارت المفاوضات مع الولايات المتحدة لتنفيذ هذه المبادرة، وكان يقوم بالمفاوضات مع الولايات المتحدة الأستاذ محمد حسنين هيكل، الذى كان وزيرا للإعلام فى هذه الفترة، لأن السيد محمود رياض وزير الخارجية كان يحضر اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، وأدار هيكل المفاوضات بمهارة، وأخذ «يناكف» الأمريكان لمدة ٤٨ ساعة، قبل أن يوقع على الاتفاق. وكان الهدف من هذه «المناكفة» إدخال هياكل خشبية على شكل الصواريخ براداراتها إلى ضفاف القناة فى المواقع التى اختيرت مسبقا لتوضع فيها الصواريخ الحقيقية فيما بعد، وحتى يبدو الأمر وكأنه لم يقع أى تغيير.

وفعلا تم تحريك الصواريخ إلى مواقعها المرسومة على ضفاف القناة، وقد عزز هذا من قدرتنا على عبور القوات المسلحة قناة السويس فى حرب ٧٣، بل ولولا ذلك لما استطعنا العبور.

ثم تقدمت إسرائيل بشكاوى عديدة عن خرقنا للاتفاقية، ورفضنا هذه الادعاءات، وكذلك رفضها السوفيت، وكنا نعلم نحن والسوفيت أننا خرقنا الاتفاقية فعلا بتحريك الصواريخ إلى ضفاف القناة.

لم تكن الجهود الدبلوماسية تنبئ بأى نجاح، ولم يكن الموقف الإسرائيلى يعكس أى تغيير فى اتجاه الحل. وجلب روجرز على نفسه السخط الشديد من جانب إسرائيل، لأنها اعتبرت أنه يميل لأن يكون متوازنا فى محاولة حل النزاع بينها وبين العرب. وفى يوم ٦ سبتمبر ١٩٧٠ أعلنت إسرائيل رفضها لاستمرار استقبالها للمبعوث الدولى للأمم المتحدة جونار يارنج، الذى كان يقوم بمهمته بعد صدور القرار ٢٤٢، ولم ينجح فى مهمته. وكانت إسرائيل هى التى أفشلتها.

وكان ٨٥ عضوا بمجلس الشيوخ الأمريكى قد تقدموا بمشروع بتزويد إسرائيل بـ ١٢٥ طائرة مقاتلة إضافية، واتجه نيكسون للموافقة من أجل استمالة اللوبى اليهودى. ووافق على تزويد إسرائيل بأسلحة متطورة، أكثر من أى وقت مضى، وعين لهذا الغرض زميله فى مكتب المحاماة لينارد جارمنت مشرفا على عملية تسليح إسرائيل، وحلقة اتصال مع اللوبى اليهودى، وهو ما دفع إلى سباق محموم للتسلح فى الشرق الأوسط.

والحقيقة أن قبول الرئيس عبد الناصر لمبادرة روجرز كان مرتبطا بنظرته المستقبلية، وتحرير سيناء، واستخدامها كما ذكرت لتحويل حائط الصواريخ، وحماية قواتنا المسلحة أثناء عبورها قناة السويس. فى هذا الوقت كان السادات فى القاهرة، وبصفته نائبا للرئيس فقد أعلن رفضه مبادرة روجرز، معتقدا أن عبد الناصر لابد سيرفضها.



مع الرئيس السادات أثناء زيارة الكرملين

للأمم المتحدة جونار يارنج، الذى كان يقوم بمهمته بعد صدور القرار ٢٤٢، ولم ينجح فى مهمته. وكانت إسرائيل هى التى أفشلتها.

وكان ٨٥ عضوا بمجلس الشيوخ الأمريكى قد تقدموا بمشروع بتزويد إسرائيل بـ ١٢٥ طائرة مقاتلة إضافية، واتجه نيكسون للموافقة من أجل استمالة اللوبى اليهودى. ووافق على تزويد إسرائيل بأسلحة متطورة، أكثر من أى وقت مضى، وعين لهذا الغرض زميله فى مكتب المحاماة لينارد جارمنت مشرفا على عملية تسليح إسرائيل، وحلقة اتصال مع اللوبى اليهودى، وهو ما دفع إلى سباق محموم للتسلح فى الشرق الأوسط.

والحقيقة أن قبول الرئيس عبد الناصر لمبادرة روجرز كان مرتبطا بنظرته المستقبلية، وتحرير سيناء، واستخدامها كما ذكرت لتحويل حائط الصواريخ، وحماية قواتنا المسلحة أثناء عبورها قناة السويس. فى هذا الوقت كان السادات فى القاهرة، وبصفته

إذا كان السادات قد أصيب فعلا بنوبة قلبية أو أنه تظاهر بذلك.

بقى أنور السادات فى قريته إلى أن صالحه الرئيس عبد الناصر ودعاه «لتغيير الجو» فى الإسكندرية، وفعلا سافر السادات وأقام فى دار الضيافة فى ستانلى.

وكنت فى الإسكندرية خلال هذا الشهر «أغسطس ١٩٧٠» ولما علمت بوجود السادات بها ذهبت لزيارته والسؤال عن صحته. وتصادف أثناء وجودى أن حضرت السيدة حرم الرئيس عبد الناصر وابنتها منى لزيارته أيضا، وبَقَيتْ بعض الوقت ثم انصرفت. كان السادات متجهما طوال الزيارة وصامتا ولكن عندما انصرفت حرم الرئيس نظر خلفها وقال « آل جاية آل تطمن على آل يعنى بيحبونى قوى».

وشعرت بمدى المرارة التى يحس بها السادات، ولم أعر الأمر اهتماما إلى أن قابلت جمال عبد الناصر فى المعمورة.

المقابلة الأخيرة للرئيس جمال عبد الناصر ورياح التغيير التى لم تتم

كان الرئيس يقضى شهر أغسطس فى الإسكندرية فى استراحة المعمورة، وهى استراحة متواضعة الأثاث. وكنت أتطلع إلى هذه المقابلة بعد ما ذكره «البروفيسير شازوف» اخصائى القلب فى الكرملين، والذى أسر لى عندما كنا فى موسكو بأن حالة قلب الرئيس غير مطمئنة وأن شرايين القلب الفرعية لم تنفتح وما زالت مسدودة، رغم كافة الأدوية وتزويده بالأوكسجين المخصص لرواد الفضاء.

وجدت الرئيس بادى النشاط وفى حالة استرخاء ومعنوياته عالية ولم يكن يعرف شيئا عن حالة قلبه وطبعا لم أذكر له شيئا عنها.

تركز الحديث حول المرحلة المقبلة وأهمية تحريك حائط الصواريخ وكان هذا الموضوع بالغ السرية. وفى لقائى مع الرئيس شرح متطلبات تنفيذ أهداف المبادرة ومطالبة السوفيت بتصعيد مساعدتهم فى كافة الأسلحة، خصوصا بالنسبة لدعم حائط الصواريخ الذى سيتقدم إلى ضفاف القناة. ثم شرح الرئيس رأيه فى الحل السلمى ولم يكن متفائلا، وأخيرا انتهت المقابلة. وهممت بالانصراف وإذا به يقول « لا... انتظر أنا عايزك فى مسألة مهمة » ولما استفهمت عنها قال « أنا عايزك ترتب عدة مقابلات مع الزعماء السوفيت بريجنيف وكاسيجين وبادرجونى وجريتشكو وجروميكو... الخ.» مع السيد عبد اللطيف البغدادى الذى سيزور موسكو قريبا فلما قلت له « إيه ده يا ريس ده الحكاية كبيرة»، قال لى «بلاش لماضه» إنت فاهم كويس ! روح نفذ اللى قلتلك عليه».

وخرجت من عند الرئيس ومعى كل الخلفية التى ذكرتها من قبل. وفهمت ما يرمى إليه الرئيس، وذهبت مباشرة إلى بلاج «عايدة» فى المنتزة، وكانت هناك مفاجأة غريبة تنتظرنى. فقد وجدت «البغدادى» فى كابينة الصديق المشترك سليمان جميعى فى بلاج «عايدة». فسألنى أين كنت!! انتحيت به جانبا وذكرت له إننى جئت توا من لقاء مع الرئيس، وأخبرته بما ذكره الرئيس بالنسبة لزيارته لموسكو ومقابلة الزعماء السوفيت ولم يكن الرئيس قد أبلغه بعد. واستفهمت منه عن تطور علاقته مع الرئيس فأجاب بأنها تغيرت تماما، وهو يتصل به بالتليفون عدة مرات فى اليوم، كما يرسل له الكثير من التقارير وبدأنا نتزاور. أما ما ذكرته الآن فهذا يدفع الأمور فى اتجاه جديد. وقلت له ألا تشعر بأن هذا يعنى أنك نائب الرئيس القادم؟ قال إن الرئيس أشعرنى بهذا ولكنه لم يقلها صراحة؟

وعلمت فيما بعد أن الرئيس كان ينوى إعلان هذا الخبر فى اجتماع خاص باللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى!!

ولكن طغت أحداث الأردن والصراع بين الملك حسين والفلسطينيين ومانعرفه جميعا عن أحداث «أيلول الاسود». وتوفى جمال عبد الناصر وهو يودع أمير الكويت. وهكذا شاء القدر أن يظل أنور السادات هو نائب الرئيس، وتسير الأمور بعد ذلك كما نعرفها. وتبقى قصة تعيين عبد اللطيف البغدادى نائبا للرئيس معروفة فى أضيق الحدود. ولم يثرها البغدادى، فقد كان حريصا على كرامته وعزة نفسه إلى أقصى الحدود. كما أن وفاة عبد الناصر منعت الإعلان عنها. وهكذا انفتح الطريق على مصراعيه لكى يصبح أنور السادات رئيسا للجمهورية. وكان رجال عبد الناصر يفضلونه على البغدادى ظنا منهم أن السادات ألين عريكة وأسلس قيادة، كما أنه والحق يقال منسجم مع الشرعية، فقد كان السادات نائب رئيس الجمهورية الرسمى والتف حوله الكثيرون من كبار رجال الدولة مثل المهندس سيد مرعى والدكتور عزيز صدقى والأستاذ هيكل.

وفاة عبد الناصر

فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، دعا الرئيس عبد الناصر لقمة عربية فى القاهرة، للنظر فى الأحداث الدامية التى دارت فى الأردن، بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينية، وذلك فى وقت كانت فيه الحالة الصحية للرئيس عبد الناصر منهكة إلى حد كبير.

ولبى جميع القادة العرب الدعوة، وحضر الملك حسين بنفسه ليشرح أسباب المعارك الدامية وتداعياتها. وأمكن حصار المعارك فى الأردن، لكن عن طريق جهود شكلت

حملا ثقيلا على الرئيس عبد الناصر، ومعروف أنه توفى بعد أن عاد إلى بيته من وداع أمير الكويت فى المطار.

كنت فى موسكو أثناء الوفاة وحضر لتقديم العزاء بالسفارة جميع القادة السوفيت وعلى رأسهم كاسيجين رئيس الوزراء، وكانوا فى شدة التأثر لوفاته، وحضرت شخصيات سوفيتية من جميع الأنشطة السياسية والعلمية والاجتماعية، وأعضاء السلك الدبلوماسى الأجنبى، وكان منهم السفير الأمريكى جيكوب بيم، ولم تكن بيننا علاقات دبلوماسية.

وبعد أن قدم العزاء وسجل اسمه فى سجل المعزين اقترب منى ليودعنى، فقلت له: ما الذى جاء بك؟ ولكننى نطقت السؤال بلهجة ودية، فأجابنى بكلمة لا أنساها وقال: لقد كنا نحترمه.

وعلمتنى هذه الكلمة أشياء كثيرة، وهى أن الإنسان حتى ولو تخاصم مع إنسان آخر، فعليه ألا يلغى من نظرته إليه، احترامه لقدراته وإمكاناته.

كانت لوفاة الرئيس عبد الناصر آثار واسعة فى كثير من الدول، ويكفى للدلالة على هذا أن نيكسون كان موجودا فى نابولى بإيطاليا لمشاهدة مناورات الأسطول السادس فى البحر المتوسط، وحين علم بوفاة عبد الناصر، أمر بإيقاف المناورات وسافر على الفور إلى يوجوسلافيا ليقابل الرئيس تيتو وسأله: ما الذى سيحدث فى مصر بعد وفاة عبد الناصر؟

وبسبب هذه الزيارة المفاجئة والعاجلة بطلب من نيكسون، لم يستطع الرئيس تيتو أن يحضر الجنازة، وأوفد نائبه كارديل لحضورها نيابة عنه.

وتصادف وجود السيدة أم كلثوم فى موسكو، ومعها وفد كبير من الصحفيين، والإذاعيين، والموسيقيين وداهمتهم المصيبة، وهم فى موسكو لإحياء حفلات من أجل المجهود الحربى، وبكت أم كلثوم بكاء حارا وقد سيطر عليها الحزن بصورة واضحة وحادة وصلينا جميعا على روح عبد الناصر فى جامع موسكو، وصلت معنا أم كلثوم.

وأقام أحد أعضاء السفارة المصرية - السفير وفاء حجازى - لقاء فى منزله، لجميع مرافقى أم كلثوم باختلاف تخصصاتهم. وكنت معهم وتحدثت إليهم، وشرحت لهم أن موت الرئيس عبد الناصر ليس مفاجأة، وأنه قد أصيب بنوبة قلبية فى السنة الماضية، ولم يكن أحد منهم على علم بهذا من قبل، وشرحت لهم ما ذكره البروفسير شازوف عن حالة قلبه.

لقد حزنا جميعا لوفاة عبد الناصر، فقد كان زعيما وطنيا وقوميا عربيا، وأحد قادة ثورة تحرير الشعوب، بل كان أبرزهم جميعا، وكانوا يعتبرونه زعيم حركة التحرير فى إفريقيا كلها.



توقيع أحد الاتفاقات العسكرية بين المشير عبدالحكيم عامر
والمارشال مالينوفسكى وزير الدفاع السوفيتى

أيام عصيبة تجتاح المنطقة قبل وفاة عبد الناصر

توترت العلاقات بين منظمة التحرير الفلسطينية وبين جمال عبد الناصر بعد قبوله مبادرة روجرز واتهموه بالتواطؤ وبيع القضية، الخ. ثم قاموا بزيارة عبد الناصر الذى أوضح الفوائد الكثيرة فى هذه المبادرة ويأتى على رأسها الحصول من إسرائيل على الجلاء عن كل الأراضى المحتلة تقريبا.

وبعد هذه المقابلة وابتداء من يوم ٦ سبتمبر، تدفقت الأخبار المفزعة من تفجير الطائرات بواسطة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين : طائرة بوينج من «پان أميريكان» فجرت فى مطار القاهرة، وحولت طائرتان سويسريتان إلى مطار صغير قرب الزرقا فى الأردن وتم حجز الركاب. وفى يوم ٩ سبتمبر حولت طائرة بريطانيا «V.C,10» إلى مطار الزرقا أيضا وبلغ عدد الرهائن ٦٠٠، وطالب الفلسطينيون بعدة طلبات منها الافراج عن «ليلى خالد».

وتكهرب الجو تماما إقليميا وعالميا. وأصبح الملك حسين فى موقف حرج وبدا كأنه غير مسيطر على الأحوال فى بلاده.

اضطر الملك حسين للتحرك، ففى ١٦ سبتمبر أى قبل وفاة عبد الناصر بـ ١٢ يوما أعلن الأحكام العرفية وعين رئيس الأركان اللواء محمود داود رئيسا للحكومة. وبدأت معركة شرسة لتصفية الفلسطينيين من الأردن وشَنَّ الجيش الأردنى هجوما على المخيمات الفلسطينية، وفى خلال ٤٨ ساعة استطاع أن يسيطر على عمان. ولكن «أربد» فى الشمال قاومت بعنف.

استدعانى نائب وزير الخارجية سيميونوف فى ٢٠ سبتمبر تقريبا وأبلغنى بخطورة الموقف الذى بلغ قمته بدخول المدرعات السورية شمال الأردن وطلب تدخل الرئيس شخصيا لتهدئة الموقف. ثم أضاف أن الملك حسين استغاث بإسرائيل والولايات المتحدة لضرب المدرعات السورية التى دخلت فى منطقة «أربد». وقال سيميونوف إنهم على اتصال بكافة الأطراف «سوريا ـ الأردن ـ أمريكا».

ثم وصل إلى موسكو تحذير من أمريكا بأن عليها أن توقف السوريين وأن ينسحبوا من الأراضى الأردنية فورا. ووضعت وحدات أمريكية محمولة جوا على أهبة الاستعداد كما أبدت إسرائيل الاستعداد للتدخل إذا ما وافقت أمريكا.

واستطاع الملك حسين أن يقضى على الوجود الفلسطينى فى المدن الرئيسية. وفى يوم ٢٧ سبتمبر طار إلى القاهرة لحضور مؤتمر القمة الذى طلبه عبد الناصر. وحدثت مشادة ساخنة بالغة العنف بينه وبين ياسر عرفات. وطلب الملك فيصل من كل منهما أن

يسلما أسلحتهما. واستطاع المؤتمر أن يفرض وقف إطلاق النيران تفاديا لأى انفلات فورا وتعيين كل من الباهى الأدغم رئيس وزراء تونس وجعفر نميرى رئيس السودان مراقبين لتنفيذ الاتفاق.

وهكذا استطاع عبد الناصر فى الساعات القليلة قبل وفاته مباشرة أن يُجنب المنطقة اندلاع حرب لا يعرف مداها أحد، فليس من المعقول أن تتدخل أمريكا ويقف الاتحاد السوفيتى ساكنا. وكان معنى اشتراك القوتين العظميين كارثة عظمى للمنطقة ولكل المشرق العربى. ولكن لم يتحمل جمال عبد الناصر كل هذا التوتر المفزع ومات شهيدا من أجل القضايا العربية.

أضواء على شخصية عبد الناصر

لاشك أن عبد الناصر كان شخصية شامخة وزعيما من زعماء العالم الثالث وليس مصر فقط. وإذا كان من أهم أحداث القرن العشرين الحركة الكبرى لتحرير شعوب المستعمرات، فقد لعب عبد الناصر دورا بارزا كأحد أعظم زعماء هذه الحركة. وكانت له شخصية قيادية وحضور مميز فى أى مؤتمر أو اجتماع أو محادثات يشترك فيها. وكان السوفيت يقولون إن هناك اثنين من قادة العالم الثالث لهم حضور طاغٍ وهما عبد الناصر وفيديل كاسترو.

كان كثيرون يعتقدون أن عبد الناصر رجل يبعث الخوف فيمن يعملون معه ولا يعرف سوى إصدار الأوامر والطاعة العمياء، وهذا زعم لا أساس له.

كان تعاملى معه مريحا للغاية. فقد كان رجلا واضحا وصريحا ويعرف من يتعامل معه ما يريده بشكل مباشر. وفى بعض الأحيان يكون قاطعا حاسما ويطلب تنفيذ ما يقوله نصا وحرفا. وحدث أن كان هو وسيكوتورى رئيس غينيا فى حفل فى الكرملين وقمت بدور المترجم، وكان حديثه معه خال من كلمات المجاملة المعهودة. وعندما ترجمت كلام عبد الناصر لاحظ أننى أضفت بعض كلمات قليلة من المجاملة فقال لى بشكل حاسم أريدك أن تترجم ما أقوله دون مجاملة !! وبدا لى أنه كان مستاء من سيكوتورى لأمر ما.

لم يكن عبد الناصر ديمقراطيا بالمعنى الغربى أى يؤمن بحرية تكوين الأحزاب وتبادل السلطة... الخ. وفى زيارته للاتحاد السوفيتى فى يناير ١٩٧٠، كان يلبس «بدلة» أنيقة ولونها كان جميلا، فقلت له مازحا «إيه ياريس الوجاهة دى» فقال من «أبو الأناور طبعا ويعنى أنور السادات». وأردف قائلا «أنا ليس لى هواية خاصة فى

ملبس أو مأكل... الخ. وهوايتى الوحيدة هى السلطة!! فالسلطة هى التى تمكنك من تحقيق آمالك وأحلامك فى بناء دولة قوية متحضرة، فالسلطة ليست هى الغاية ولكنها الوسيلة والمشاركة فى السلطة لا تجدى».

ليس معنى هذا أن عبد الناصر كان يستلهم الوحى أو يصدر الأوامر دون دراسة أو الاستماع إلى آراء الآخرين. فقد كان من أهم صفاته قراءته لجميع التقارير المرفوعة للرياسة. وكان فى أحيان كثيرة يطلب تقارير فى مشاكل وقضايا معينة.

كان يجيد الاستماع. وفى كل مقابلة معه كان يبدأ بسؤالى عما جمعته من معلومات. كنت أعرض القضايا ساعة أو ساعتين لا يقاطعنى فيها إلا بالاستفهام عن اسم معين أو وظيفته المحددة. وبعد أن أنتهى يقول «خلاص قلت ماعندك؟» ثم يبدأ هو فى التعليق ثم نتبادل الآراء حول الخطوات المقبلة.

كان عبد الناصر يكره أن تخرج من عنده وتقول إنه قال لى كذا وكذا.. وأنا قلت له كذا... وتنتشر الحديث الذى يدور معه. وكنت معتادا على هذا فى تعاملى مع القادة السوفيت. فكنت أتحاشى أن أكرر ما قاله لى أحدهم أو أذكر اسمه أمام الآخر، وأعتقد أن هذا من أساسيات بناء الثقة والمحافظة على علاقات خاصة مع الزعماء.

كان عبدالناصر يتذوق النكتة ويضحك من قلبه عليها. وكانت اجتماعاته بعد نهاية العمل يملؤها بالقفشات والنوادر التى يصادفها. وكنا نشاركه فى تعليقاته وفى قفشاته. كان عبد الناصر بارعا فى تقليد من يقابلهم. وذات مرة كنا فى موسكو وأثناء المحادثات أوقف بريجنيف جروميكو وهو يتكلم وكان يشير بكلتا ذراعيه بشكل يدعو للضحك. وظل جروميكو فى هذا الوضع بضع ثوان قبل أن يسمح له بريجنيف باستئناف حديثه. وقلده عبد الناصر وهو فى هذا الوضع وأخذنا نتبادل التعليق والقفشات. وقال عبد الناصر ضاحكا اتعلموا كيف تتعاملوا مع رؤسائكم!!

كان رجلا سريع البديهة ذا شخصية جذابة آسرة ونظراته نفاذة كأنها تخترق مابداخلك. كان يريد أن يعرف كل شىء عن سلوك معاونيه وكل من يعمل معه وبالتفصيل. وكثيرا ما كان يواجه هؤلاء الذين يتمادون فى سلوكهم أو يؤثر على عملهم بمعلوماته عنهم، وكان يكره الإنكار ويتسامح مع من يعترف.

كان عبد الناصر شديد الحساسية لما يمس معيشة الشعب. وعندما زاد سعر كيلو الأرز من ٣.٥ قرش إلى ٤ قروش غضب من وزير التموين فقد كان المساس بالسلع الأساسية يؤلمه ويحزنه.



أثناء قيامى بالترجمة بين المشير عبدالحكيم عامر والرئيس كاسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى

كنت أعرض القضايا ساعة أو ساعتين لا يقاطعنى فيها إلا بالاستفهام عن اسم معين أو وظيفته المحددة. وبعد أن أنتهى يقول «خلاص قلت ماعندك؟» ثم يبدأ هو فى التعليق ثم نتبادل الآراء حول الخطوات المقبلة.

كان عبد الناصر يكره أن تخرج من عنده وتقول إنه قال لى كذا وكذا.. وأنا قلت له كذا... وتنشر الحديث الذى يدور معه. وكنت معتادا على هذا فى تعاملى مع القادة السوفيت. فكنت أتحاشى أن أكرر ما قاله لى أحدهم أو أذكر اسمه أمام الآخر، وأعتقد أن هذا من أساسيات بناء الثقة والمحافظة على علاقات خاصة مع الزعماء.

كان عبدالناصر يتذوق النكتة ويضحك من قلبه عليها. وكانت اجتماعاته بعد نهاية العمل يملؤها بالقفشات والنوادر التى يصادفها. وكنا نشاركه فى تعليقاته وفى قفشاته. كان عبد الناصر بارعا فى تقليد من يقابلهم. وذات مرة كنا فى موسكو وأثناء

ولم يكن عبد الناصر معاديا للولايات المتحدة فى أول الثورة. وحاول محاولات يائسة لكى تكون علاقته بها أحسن ما يمكن. وبدأ يطلب السلاح منها والمساعدات الاقتصادية، ولكن أمريكا كانت تنظر إلى مصر من خلال إسرائيل واللوبى اليهودى. كما كانت تسعى إلى إدخال مصر فى سلسلة القواعد العسكرية التى أقيمت حول الاتحاد السوفيتى. وليس هذا مجال الاستطراد فى سرد تفاصيل هذه العلاقة وتطورها، ولكنى أردت أن أؤكد أن لجوء عبد الناصر إلى الاتحاد السوفيتى أملته الضرورة الوطنية وتمسكه باستقلال مصر وعدم زجها فى أحلاف عسكرية.

كان عبد الناصر يعشق مصر وترابها. وكان يريد لها أن تكون فى مصاف الدول المتقدمة معتزة بكرامتها فخورة بمكانتها. كان ولاؤه للقاعدة الشعبية العريضة ولاشك أنه ولاء طبقى، كانت إنسانيته تتدفق نحو هذه الطبقة ويشملها برعايته. أذكر هنا واقعة مناقشة جرت بينى وبين أحد الفلاحين كان يعمل مشرفا فى مزرعة صغيرة لى ورأيت فى غرفته صورة لعبد الناصر وصورة أخرى للسادات، فقال لى وهو يشير إلى عبد الناصر «ده الراجل بتاعنا» أما هذا مشيرا إلى السادات فهو بتاعكم أنتم !! ولخص هذا الفلاح المصرى البسيط أى طبقة كان يرعاها كل منهما!!

وبوفاة عبد الناصر مات عملاق من عمالقة التاريخ وزعيم من زعماء حركة التحرير الكبرى لشعوب إفريقيا وآسيا. وأحدثت وفاته رجة فى العالم كله وبكته الجموع الحاشدة والأغلبية الساحقة للشعب المصرى وسارت وراءه تودعه. ونعته الشعوب فى إفريقيا وآسيا، وأشاد زعماؤها بتاريخه وإنجازاته، حتى أعداؤه اعترفوا بمكانته ومنزلته وشموخه واعترفوا بأنهم كانوا يحترمونه.

ولكن التاريخ لا يرحم فكل عملاق له إنجازاته العملاقة وله أخطاءه العملاقة أيضا.

وكما بكته الأغلبية الساحقة من الشعب، تعرض بعد وفاته لحملات الحقد والكراهية من الذين أضيروا فى ثرواتهم وأرضهم ونفسيتهم. ومنهم من سجد لله يدعوه أن يُهزم عبد الناصر فى حرب ١٩٦٧ ضد إسرائيل. ومعنى ذلك أن تنتصر إسرائيل. فهل يمكن أن يبلغ الحقد الأسود هذا الحد! وهل يمكن أن يتزعم من يطلق عليه إمام الدعاة من سجدوا لله لهزيمة مصر ! لا داعى للعب بالالفاظ وادعاء أنهم كانوا يقصدون عبد الناصر وحاشا لله مصر! وهم يعلمون جيدا أن هزيمة عبد الناصر هى هزيمة مصر، وهكذا أسدل الستار على عبد الناصر !!

الفصل التاسع

أجـواء انتـقـال السلطة للسـادات

انطباعات السوفيت بعد وفاة عبدالناصر

شارك الاتحاد السوفيتي فى جنازة الرئيس جمال عبد الناصر. وكان يمثله رئيس وزرائه إليكس كاسيجين، ومعه السفير فلاديمير فينوجرادوف، وكان قد استقر على تعيينه سفيرا فى القاهرة ولكن لم يعلن ذلك رسميا بعد.

قابلت كاسيجين بعد عودته إلى موسكو، وبدا عليه الإرهاق. وسألته عن جنازة عبدالناصر ومقابلاته فى مصر فذكر لى أن ملايين من الشعب المصرى جاءوا من جميع أنحاء البلاد ليلقوا نظرة أخيرة على جثمانه، وكانوا يبكون بحرقة وينادون عليه ولم أرى فى حياتى هذه الملايين الضخمة المتعلقة بزعيمها، ولم يستطع رجال الأمن السيطرة على الموقف، كما أن الجنازة لم تستطع أن تسير كما كان مخططا لها. وقابلنا حرم الرئيس عبد الناصر لتقديم التعازى وقابلتنا وهى فى قمة التأثر وقالت لنا لا تتركونا!!

أما عن مقابلتى للقيادة المصرية فقد أكدنا استمرار التعاون وتدعيم العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتى وكانت نصيحتى أن يتمسكوا بالوحدة فى هذه الظروف الصعبة.

أما فينوجرادوف فقد كان أكثر توضيحا وهو يجيد الوصف ويحشو وصفه بالتمثيل الكاريكاتيرى للأحداث. فذكر لى أنهم رأوا السادات محمولا على كرسى من شدة الزحام وهو مغمض العينين ويكاد يكون مغمى عليه. وكانت الجموع تتدافعنا من جميع الاتجاهات، وفجأة بحثنا عن السادات فلم نجده. وبعد التحرى والسؤال قالوا لنا إن على صبرى مدد على السرير لإصابته بالإغماء وإن السادات أصابه الإغماء أيضا وهما راقدان فى غرفة واحدة. فطلبنا رؤيتهما أنا وكاسيجين وذهبنا إليهما فوجدناهما كما ذكروا لنا وكل ينظر إلى الآخر فشكرا كاسيجين على هذه اللفتة. وأضاف فينوجرادوف ضاحكا أن كلا منهما وضع الآخر تحت الرقابة الصارمة!!

كان كاسيجين مشغولا وكذلك فينوجرادوف عن انطباعاتهما من الزيارة. فقال لى السفير إنه شعر بأن رجال عبد الناصر مرتبكون وليس لديهم رؤية واضحة عما سيفعلونه فى المستقبل. ولم أسمع أحدا يذكر السادات كرئيس بل لمست منهم عدم



مع المشير عبدالحكيم عامر ونحن نستقبل الادميرال جارشكوف
قائد البحرية السوفيتية

احترامهم له وهو رئيسهم الجدير بالاحترام اللازم المفروض فى مثل هذه الظروف. وأثناء اجتماع كاسيجين بالقيادة انبرى السادات وأخذ يكيل المديح لعبد الناصر وأكد أنه رئيسه وزعيمه وأستاذه وأنه سيسير على نوره وهدايته!!

أما انطباع كاسيجين فكان يرى أن مصر ستمر فى مرحلة انتقالية غير واضحة المعالم وأن مستقبلها لم يتحدد بعد، وأن على المرء أن يكون أكثر حذرا وأكثر عمقا فى تحليل الأحداث القادمة، ومن هنا تأتى أهمية المراقبة النشيطة للعلاقات الداخلية والقوى المختلفة.

حدث فراغ هائل بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر، وأخذت قوى عديدة تتكلم عمن سيخلفه؟ وتحدث البعض من أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين كانوا على قيد الحياة عن ضرورة عودة المجلس وهو ما رفضه السادات، كما رفضه رجال جمال

عبدالناصر *الذين كانوا* يسيطرون على *مواقع السلطة. ولكن هناك آخرين رجعوا تولى* السادات السلطة على أساس أنه الأضعف. والعجيب أن التغيرات الجذرية فى مسار التاريخ تتبع نفس الفكر والأسلوب. فقد كان اختيار خروشوف لأن زملاءه ظنوه هو الأضعف بينهم ويسهل السيطرة عليه، وكذلك اختير النحاس باشا ليخلف سعد باشا زغلول لأن خلفاءه من أساطين الوفد اعتقدوا أنه الأضعف.

وحدث أن ذهب إلى السيد أنور السادات كل من السادة أمين هويدى، وسامى شرف، ومحمد فائق، وأبلغوه أنهم يبايعونه رئيسا للجمهورية، ومعهم آخرون منهم شعراوى جمعة، وعبد المحسن أبو النور، والباقون. ونظر السادات إليهم وقال لهم: هل أنتم جميعا موافقون على أن أكون رئيسا؟

وكانت موافقتهم تعنى أن جميع أجهزة الدولة تؤيد أنور السادات. فقد كان هؤلاء مسيطرين على جميع أجهزة الدولة.. القوات المسلحة، والشرطة، والأمن، والمخابرات، والداخلية، والتنظيم السياسى، والمجلس النيابى، والإعلام. وفعلا أصبح السادات رئيسا للجمهورية، لكنهم كانوا هم أنفسهم الذين اختلفوا معه وقبض عليهم فى ١٥ مايو ١٩٧١.

وسارت الأمور بشكل هادئ فى الفترة التى كان فيها السادات قائما بأعمال الرئيس بعد وفاة عبد الناصر، إلى أن تم انتخابه رئيسا للجمهورية. ولكن كل الأنظار كانت متجهة إلى هذا الوضع الانتقالى فى مصر ومدى نجاحه فى إرساء قواعد الحكم واستقرار الأوضاع الداخلية وكيف سيتجه فى تعامله مع الصراع العربى الإسرائيلى وعلاقاته الدولية خاصة مع الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية.

ثم دعا الرئيس السادات فى هذه الفترة بعد وفاة الرئيس عبد الناصر، إلى اجتماع لمجلس الأمن القومى حضره الفريق فوزى وشعراوى جمعة وزير الداخلية وحافظ إسماعيل مدير المخابرات وسامى شرف وأمين هويدى كما حضره الاستاذ هيكل. وكما علمت كانت المناقشات مركزة حول تجديد العمل بمبادرة روجرز التى تنتهى الفترة الأولى لها فى ٧ نوفمبر ١٩٧٠ وهل القوات المسلحة المصرية جاهزة إذا كان القرار سيتخذ بعدم التجديد؟

ولقد انزعج السوفيت كثيرا من سماعهم أنه كانت هناك أصوات تنادى بعدم التجديد والبدء فى العمليات العسكرية. وأبلغونى أن هذا القرار يعتبر مغامرة عسكرية غير مأمونة العواقب. فلا يزال حائط الصواريخ الذى تقدمنا به إلى ضفاف القناة يديره

الخبراء والكتائب السوفيتية. ولا تزال الأطقم المصرية التى ستقوم مقام السوفيت تتدرب فى الاتحاد السوفيتى ولا يمكن اعتبارها مؤهلة لإدارة حائط صواريخ بهذا الحجم وبهذا المستوى الفنى والتكنولوجى.

والأخطر من ذلك أن المراكز الحيوية فى داخل البلاد لم تصلها صواريخ الدفاع الجوى بعد. وشدد السوفيت على الأهمية البالغة لحماية السد العالى والتى لم تتم بعد بشكل يدعو للاطمئنان ولكنهم تنفسوا الصعداء عندما جاء القرار إلى جانب تجديد العمل باستمرار مبادرة روجرز.

وكان الاتفاق على أساس أن تتولى قوات الدفاع الجوى المصرية التى تدربت فى الاتحاد السوفيتى إدارة حائط الصواريخ على ضفاف القناة، على أن يتولى السوفيت الدفاع عن المطارات والقواعد العسكرية وبعض المنشآت الحيوية فى الداخل.

وسارت الأمور هادئة وإن تخللتها بوادر خلافات بين السادات ورجال عبد الناصر ولكنها لم تكن حادة أو منذرة بالخطر.

وجاء شهر فبراير وتقدم الرئيس السادات بمبادرة من جانبه حضرت مناقشة حامية حولها بين الجانب المصرى والسفير السوفيتى بالقاهرة وكنت أقضى بعض أيام فى مصر للتشاور.

كان ملخص المبادرة أن تنسحب القوات الإسرائيلية من شرق القناة لمسافة ١٢ كم على ما أتذكر وتُفتح قناة السويس وتبدأ على الفور محادثات سلام لانسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء.

كانت المبادرة ترمى إلى تشجيع الدول الغربية والولايات المتحدة وكل الدول التى تمر سفنها فى قناة السويس على تأييد المبادرة، كذلك كان الهدف تحريك القضية التى جمدتها مبادرة روجرز وعدم استعدادنا لحرب وعبور قناة السويس واحتلال أو هدم خط بارليف.

ولكن المبادرة تضمنت ثغرات كثيرة. فمعنى انسحاب إسرائيل عدة كيلو مترات شرق القناة هو ترك خط بارليف والانسحاب وراءه، وليس من المعقول أن تفعل إسرائيل هذا دون ضمانات أكيدة ومعاهدة سلام بين الطرفين تضمنها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والدول الكبرى. كذلك فإن فتح قناة السويس بعد تطهيرها والانسحاب غربا معناه بالنسبة لنا منعنا من شن أى هجوم على إسرائيل عبر القناة إذا رفضت إسرائيل أن تنهى احتلالها لكل سيناء.

كذلك كان تطهير قناة السويس يحتاج لوقت طويل لكى تصبح صالحة للملاحة وهذا لا يتم إلا فى حالة سلام واستقرار أكيد حول قناة السويس.

على كل حال لم يتحقق الاتفاق ورفضه الجانب الإسرائيلى وكذلك أمريكا والاتحاد السوفيتى بل وصعدت إسرائيل من شروطها.

وكان شهر فبراير هو موعد تجديد العمل بمبادرة روجرز الثانية. وكما سبق أن أشرت قام السيد على صبرى بزيارة الاتحاد السوفيتى وبدا واضحا أنه ضد التجديد وكان السوفيت مع التجديد. كذلك استشعرت من موقف على صبرى أن هناك خلافات بخصوص هذا الموضوع بين أعضاء مجلس الأمن القومى، فكان يرى الكثيرون منهم أن استمرار تجديد العمل بالمبادرة معناه تجميد الموقف وتجميد حل القضية الأساسية وهى تحرير سيناء، وأن إسرائيل هى الرابحة فما زالت تحتل الأراضى العربية وتستخدمها رهينة لفرض شروطها، وأن الزمن فى مصلحة إسرائيل لأنها تستغل عامل الزمن لفرض واقع جديد فى الأراضى المحتلة من بناء مستوطنات وإنشاء طرق ومطارات جديدة. أما فى الضفة والقطاع والجولان فإن إسرائيل تعمل بجهود مضاعفة لتصعيد وجودها فى هذه الأراضى والإسراع فى بناء المستوطنات واستنزاف المياه ومصادرة الأراضى وهدم المنازل والاستيلاء على المزارع. وتقوم الولايات المتحدة بحماية إسرائيل وخططها باستخدام الفيتو لوقف أى إجراءات ضدها فى مجلس الأمن، وكذلك الضغط على حلفائها الغربيين لعدم شجب تصرفات إسرائيل أو التنديد بأعمالها.

ولكن فى نفس الوقت فإن عدم التجديد كان يعنى بدء العمليات العسكرية من جديد، ولا أحد يعلم كيف ستتطور هذه العمليات وما نوع هذه العمليات أصلا؟ هل ستكون حول قناة السويس أو ستتسع إلى حرب شاملة لعبور القناة والبدء فى تحرير سيناء؟ وما مدى استعداداتنا لبدائل محتملة للعمليات العسكرية؟ وعموما حسم الموقف بتجديد مبادرة روجرز وسط خلافات واضحة ومتزايدة بين السادات ورجال عبد الناصر، وأخذ الموقف بينهما يزداد توترا.

بدأ الخلاف بين الجانبين يظهر علنا فى اجتماع للجنة المركزية لمناقشة قضية مهمة وهى الوحدة مع ليبيا، وكان الرئيس السادات متحمسا لقيام هذه الوحدة أما معظم رجال عبد الناصر فكانوا ضدها. وكان السيد على صبرى نائب رئيس الجمهورية وقتئذ أشد المعارضين، وهاجم الرئيس السادات بشدة. كما انتقد فكرة الوحدة بدعوى أن الدولتين والشعبين ليسا جاهزين لها. وضرب أمثلة عديدة، واستشهد بأقوال بعض الليبيين أنفسهم الذين أكدوا أنهم لايريدونها.

وتوترت العلاقات بين الجانبين إلى درجة تنذر بصراع حاد بين الطرفين. ونبتت فكرة تخلص كل منهما من الآخر. وفى ٢٨ مارس أصدر الرئيس السادات قرارا رئاسيا بعزل على صبرى دون إبداء أى مبررات أو أسباب.

انعكس جو الخلافات على السيد ممدوح سالم عندما عينه الرئيس السادات وزيرا للداخلية بدلا من السيد شعراوى جمعة. فقد كان ممدوح سالم يرهب الموقف وقال أنا كان مالى ومال هذه الشغلانة.. فأنا ضابط بوليس محترف ومحافظ للاسكندرية وكان كل شىء واضحا ومسيطرا عليه أما هذا الموقف فأنا لا أعرف شيئا عنه.

لقد شهدت مرحلة عبد الناصر والسادات استقطابا حاد للتوجه السياسى فى الأمة العربية والشارع العربى وانقسامات حادة بين دول عربية تقدمية وأخرى رجعية، وبين ملكية وجمهورية، وبين من صُنفوا مع الاستعمار والامبريالية وآخرين يتبعون الاتحاد السوفيتى. ووصلت الاتهامات إلى حد الاتهام بالخيانة والعمالة لأجهزة المخابرات المختلفة كما كانت هناك انقسامات أخرى حول من هو رأسمالى ومن هو اشتراكى.

والحقيقة أن هذه الاتهامات كانت تلقى جزافا وولدت الكثير من صور الحقد والكراهية ومن العنف والتطرف الذى وصل إلى حد الاقتتال.

ففى مصر حدث تصنيف لرجال الثورة. ووجهت الاتهامات لمجموعة على أنها أمريكية وأخرى سوفيتية. تم تقسيم الشخصيات بين اشتراكيين ورأسماليين. والحقيقة أنهم جميعا وطنيون مخلصون وكانوا ينظرون لمصلحة بلادهم من زوايا مختلفة.

لم يكن على صبرى شيوعيا على وجه اليقين، بل كان من أوائل المتصلين بالسفارة الأمريكية وبالملحق الجوى الأمريكى. وأوفده الرئيس عبد الناصر لطلب أسلحة من الولايات المتحدة ولكنها لم تُعرض عليه سوى أسلحة خفيفة ورُفضت طلبات عبد الناصر من قائمة الأسلحة التى حملها على صبرى. وتعلم على صبرى كما تعلمنا جميعا أننا لن تصلنا قطعة سلاح ذات قيمة من الولايات المتحدة الأمريكية.

لا داعى لتكرار الأسباب والدوافع العملية التى دفعتنا نحو الاتحاد السوفيتى فلقد سبق ذكرها بالتفصيل من قبل. وأدرك على صبرى، كما أدركنا، أن علاقتنا مع الاتحاد السوفيتى أصبحت لا مفر منها إذا أردنا أن نبتعد عن الأحلاف بقواعدها العسكرية وأن نمنع عودة الاحتلال مرة ثانية ولو بصورة مختلفة.

ولكن فى نفس الوقت كان للمساعدات الاقتصادية الأمريكية أهميتها ودورها فى تخفيف العبء عن الاقتصاد المصرى وتوفير مايوازى قيمتها لصرفها على مشروعات

التنمية. فمثلا كان السيد زكريا محيى الدين من أنصار إعطاء أولوية للقضايا الاقتصادية والتنمية. وكان يدرك أهمية العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية للأسباب التى سبق ذكرها. وهذا لا يعنى أنه كان يفضل علاقة على علاقه. وكان تصنيفه مع الجانب الأمريكى تبسيطا للأمور. وعلى كل حال كان الرئيس عبد الناصر يستفيد من هذا التصنيف، فقد نجح زكريا محيى الدين فى تجديد اتفاقية المساعدة الأمريكية عندما كان رئيسا للوزراء وكانت قد أوقفت.

كذلك كان موقف رجال عبد الناصر من الاتحاد السوفيتى قائما على اقتناعهم بأن المساعدات السوفيتية لها أهميتها الكبرى لأنها كانت تشمل التسليح والسد العالى والتصنيع وخطوط الكهرباء واستصلاح الأراضى.. الخ. ولاشك أنها كانت أضعاف المساعدات الأمريكية والغربية. لقد رأيت بنفسى كيف يتعامل رجال عبد الناصر مع السوفيت. فعندما كنت سفيرا فى موسكو توافد علىّ هؤلاء الرجال عدة مرات وكانوا لا يتركوننى إلا للنوم.

جاء على صبرى فى أوائل شهر فبراير ١٩٦١ كما سبق ذكره، وكان نائبا لرئيس الجمهورية وذلك للتشاور مع السوفيت بخصوص تطور الموقف العسكرى والسياسى بين العرب وإسرائيل. وكانت مبادرة روجرز لاتزال مطبقة وعلى وشك تجديدها أو إلغائها. وكان على صبرى من أنصار عدم التجديد. أما الاتحاد السوفيتى فكان يحبذ التجديد، وقابل على صبرى رئيس الوزراء كاسيجين لمناقشة هذا الموضوع، وحاول كاسيجين إقناعه بأهمية التجديد، وإعطاء الفرصة لمحاولات سوفيتية أمريكية جارية للوصول إلى اتفاق حول الحل. ولكن على صبرى رفض كل محاولات كاسيجين وتمسك برأيه لدرجة أن جو الحديث أصبح متوترا، وظهر ذلك على رئيس الوزراء السوفيتى.

لم تكن المناقشة بين تابع أو شيوعى والرئيس السوفيتى، بل كانت مناقشة الند للند. والحقيقة أننى كنت مع تجديد مبادرة روجرز. وكنت أعلم من العسكريين السوفيت أننا لسنا جاهزين للمعركة.

وكان تعامل رجال عبد الناصر مع السوفيت تحكمه المساواة والندية ولم أر منهم خضوعا أو مداهنة أو تملقا لهم، وكانوا يعاملون معاملة الأصدقاء ويحظون برعاية كريمة.

أما الشائعات التى ترددت عن سامى شرف بأنه جاسوس سوفيتى، فكانت بعيدة عن الحقيقة تماما. فقد كان الأستاذ سامى يتفانى فى خدمة الرئيس ويفضله على عائلته وأخوته أنفسهم. وكان سامى يعرف جيدا أن كل من يعمل مع عبد الناصر

مراقب مراقبة دائمة ودقيقة، فكان لا يمكن أن يقوم بأى اتصالات سرية أو خفية. حقيقة كان يقابل السفير السوفيتى وغيره من الوفود السوفيتية، ولكن كان هذا بعلم الرئيس وتوجيهاته. وكان يقدم إليه تقريرا مفصلا لكل نشاطاته ومقابلاته. وعلاوة على ذلك كان لسامى شرف أعداء يراقبونه وينتظرون منه هفوة.

لم يكن الأستاذ سامى شيوعيا فى يوم من الأيام. وكان يعمل فى جهاز المخابرات المصرية فى أول الثورة، وليس له أى تاريخ يوضح انتماءه لأى حزب أو تجمع سياسى. وكان يدير سكرتارية المعلومات بكل كفاءة وإخلاص، وكانت له ذاكرة حديدية فكان يمثل أرشيفا حيا أو الانسان الأرشيف.

وكنت أسأله عن بعض الأشخاص الذين قابلتهم ووجدته يعرفهم ويعرف تفاصيل مذهلة عنهم وكان حاضر الإجابة على أى استفسارات للرئيس.

أما الرجال المقربون لعبد الناصر مثل محمد فائق وشعراوى جمعة وأمين هويدى والفريق فوزى، فكانوا من أكثر المخلصين للرئيس، وعلاقاتهم كانت طيبة مع السوفيت كل فى دائرة اختصاصه. ولا أريد أن أذكر جميع رجال عبد الناصر فهم كثيرون وكلهم وطنيون مخلصون لبلدهم وللرئيس عبد الناصر.

وكانت علاقتى برجال الرئيس عبد الناصر المقبوض عليهم فى ١٥ مايو، علاقة وثيقة للغاية، وكنت صديقا لهم، وكنت فى وقت القبض عليهم مازلت سفيرا فى موسكو، وفى رأيى أنهم كانوا فى منتهى التفانى والإخلاص للزعيم الراحل جمال عبد الناصر، وكان كل منهم فى منصبه كفاءة نادرة وشعلة نشاط وجلد على العمل من النادر أن تجده فى أشخاص آخرين. وقد دأبوا على تلقى التعليمات وتنفيذها، وبمرور الزمن أصبح كل منهم منفذا ممتازا للأوامر التى تصدر من أعلى. لم تكن تعوزهم الرؤية الخاصة بكل منهم، لكن لم يعتادوا على استخدامها أو ممارستها، ولهذا فعندما جاءت مواجهتهم مع الرئيس السادات، آثروا اللجوء إلى الحلول السلبية، وهى تقديم الاستقالات.

ربما كان هدفهم إحداث شلل عام فى الدولة لا يستطيع السادات أن يتعامل معه. لكن الرئيس السادات كان على علم تام بنشاطاتهم واجتماعاتهم من خلال تسجيل المكالمات التليفونية واللقاءات بينهم. وكان مستعدا لأى خطوة من جانبهم. وبمجرد أن قدم شعراوى جمعة استقالته كوزير للداخلية أتى الرئيس السادات بممدوح سالم ليحل محله، وبعث بالفريق محمد صادق لكى يتسلم القيادة العامة للقوات المسلحة من الفريق أول محمد فوزى وهكذا.

والحقيقة أنه كان هناك صراع بين الطرفين. فقد اكتشفت هذه المجموعة أن الرئيس السادات يسير فى طريق يخالف معتقداتهم ورؤيتهم، بينما أخذت على بعضهم أقوال تدل على الرغبة فى التخلص من الرئيس السادات. وكان سلوك بعضهم فى ممارسته للسلطة قد جلب عليه الكثير من عدم الرضا الشعبى، وإن كانت لبعضهم شعبيته كمحمد فائق وشعراوى جمعة وغيرهما. لكن عندما وقعت الواقعة استطاع الرئيس السادات أن يقبض عليهم جميعا، ويسيطر على زمام الأمور.

وعندها أصيبت القيادة السوفيتية ببلبلة فكرية، وعدم وضوح رؤية، وقابلت أندريه جروميكو وزير الخارجية فى مكتبه بالخارجية وقال لى : إن كاسيجين يطلب منك إيضاحات عما حدث فى مصر.

ورأيت من الواجب أن يحاط علما بكل ما حدث، وبالتفسيرات المختلفة لهذه التغييرات، وبمنتهى الأمانة فإن ما قلته لجروميكو كان كالتالى:

ذكرت له أن يسار الثورة قد ضرب، وأن يمين الثورة هو الذى يسيطر الآن، وأن الرئيس السادات لا يريد أن يبقى أسيرا فى يد الذين أتوا به، ولم تقع إزاء ما قام به أية مقاومة ذات وزن، لأنهم فى نظرى كانوا متلقين ومنفذين للأوامر، وليسوا مبادرين من أنفسهم لحل القضايا، وكانوا دائما فى انتظار وصول الأوامر.

ثم إن العسكريين يعطون أهمية بالغة لمن هو أعلى منهم رتبة، وكان الرئيس السادات رئيسهم جميعا، ولكن هذا ليس معناه أن الرئيس السادات لا يريد علاقات طيبة مع الاتحاد السوفيتى، بل على العكس، فهو يؤيد العلاقات الطيبة معكم، ولا يوجد ما يدعو للانزعاج الشديد مما حدث. ولكنى كنت على ثقة بينى وبين نفسى أن كل شئ سيتغير، لأنى أعرف الرئيس السادات واقتناعه بأن أمريكا ستحل له القضية!! ولكن أى قضية : قضية مصر أم قضية العرب الآخرين الذين احتلت أراضيهم معنا؟

وعقد المكتب السياسى للحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى اجتماعا، قرر فيه إرسال بادجورنى إلى القاهرة ومعه مشروع معاهدة صداقة وتعاون بين مصر والاتحاد السوفيتى. ووصل بادجورنى على رأس وفد عالى المستوى، وحضرت معهم، لكنى لم أكن أعلم على الإطلاق، ولا حتى بمجرد إشارة ونحن فى الطائرة أى شىء عن مشروع المعاهدة هذه.

ووصلنا إلى القاهرة، واستقبلنا الرئيس السادات، وطلب بادجورنى رئيس الاتحاد السوفيتى اجتماعا منفردا مع الرئيس السادات، وتم الاجتماع وأبلغه خلاله بمشروع المعاهدة، ثم قال له لن أستطيع العودة إلى موسكو بدون توقيع هذه المعاهدة.

وخرج السادات من الاجتماع، وهو متجهم، وعلى وجهه انفعالات تعبر عن ضيق شديد، وعقد اجتماعا مع الجانب المصرى فى المباحثات يضم السيد محمود رياض وزير الخارجية، والسيد حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى وأنا، وأبلغنا بموضوع المعاهدة، وهو ما كان مفاجأة لنا جميعا.

وطلب من كل واحد منا أن يعرض رأيه، مركزا على أنه يريد أن يعرف رأيى شخصيا.

قلت له: هذا امتحان، وهم يريدون معرفة اتجاهك السياسى بشكل واضح، وهل ستستمر فى علاقتك مع السوفيت أو لا؟ خصوصا أنك أبعدت من كانوا على علاقة طيبة معهم، الذين كانوا يؤيدون وجود علاقة وثيقة مع الاتحاد السوفيتى. فقال الرئيس السادات: أى نعم، هذا امتحان لى، وأنا ليس عندى اختيار، وسوف نوقع المعاهدة.

وقع الرئيس السادات معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفيتى، وترتب عليها رد فعل سلبى بين طبقات الشعب المصرى. فى هذه الظروف أقام المشير أحمد إسماعيل - وكان مديرا للمخابرات العامة - عدة ندوات للجهاز بأكمله لمناقشة هذه المعاهدة، وطلب منى والصديق العزيز أشرف غربال أن نتحدث فى هذه الندوة كل على حدة. وفى كلمتى فى الندوة قلت:

إننى أعلم من أتكلم، وأمام من أتكلم، ولابد من الكلام بصراحة شديدة فى هذا المجال، ولو أنكم فتحتم قلبى، فإننى بكل وضوح ضد هذه المعاهدة، وتجربتنا سيئة للغاية مع مثل هذه المعاهدات بين دولة صغيرة كمصر، ودولة عظمى كبريطانيا أو كالاتحاد السوفيتى. وبالتالى فشعورى كله ضد هذه المعاهدة، لكننى فى الوقت نفسه ليس لدىّ مصدر نتسلح منه، وتتسلح منه قواتنا المسلحة، لكى نخوض معركة تحرير أرضنا من الاحتلال الإسرائيلى، وأنتم تعلمون جيدا أن جميع المساعى للحل السلمى قد فشلت، وليس مقدرا لها أن تنجح إلا إذا بلغت قواتنا المسلحة درجة من التسليح تؤهلنا، إما لنخوض الحرب، أو نخوض معركة السلام، فهى الأخرى لها نفس متطلبات المعركة العسكرية.

وأؤكد لكم أن هذه المعاهدة عبارة عن ورقة، ولدينا مثل على ذلك وهو معاهدة الصداقة والتعاون التى كانت موقعة بين ستالين (زعيم الاتحاد السوفيتى) وتيتو (زعيم يوجوسلافيا)، ثم أقدم ستالين من جانبه على إلغاء المعاهدة. وأضفت بأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لنحصل على الأسلحة اللازمة للقوات المسلحة، ونحن لدينا الحرية

لتجاهل المعاهدة أو إلغائها، والتاريخ يذكر لنا حالات عديدة ألغيت فيها معاهدات أو نقضت.

ودارت فى الندوة أسئلة واستفسارات وتعليقات كثيرة، بعد ذلك أصبح هناك اتفاق على مضض لقبول هذه المعاهدة، وكان هذا شعورنا جميعا.

وأذكر فى هذا السياق أننى قابلت الرئيس تيتو فى عام ١٩٧٢، وقلت له: إننى لم أفهم إصرار السوفيت على هذه المعاهدة، فهل يتصورون أنها قيد أبدى؟ فضحك تيتو - الذى كان يعرف الروس جيدا وعاش فى بلادهم فترة من الزمن - وقال لى: أنت تعرف السوفيت جيدا، وتتكلم لغتهم، إنهم لا يثقون إلا فى بوماجا Bumaga ومعناه بالروسية ورقة، أو وثيقة، وكان يعنى بهذا أن السوفيت روتينيون، يعتقدون بضرورة التعامل مع الغير ومع أنفسهم بورق مكتوب.

عدت إلى القاهرة وزير دولة للشئون الخارجية

مرت ثلاثة أشهر على توقيع هذه المعاهدة، ونقلت فجأة من منصبى سفيرا فى موسكو، إلى منصب وزير دولة للشئون الخارجية فى القاهرة، وعلمت من الشخصيات الجديدة من المحيطين بالرئيس السادات أنهم رشحونى لهذا المنصب. وكان رد الرئيس السادات : ياسلام مافيش أحسن من كده. لكن من جانبى شعرت أن هذه الخطوة مقصود منها إبعادى عن موسكو، وأن ذلك يمثل بداية لسياسة جديدة تماما.

وتعجلت فى مغادرة موسكو، مما جعل السفراء الأجانب بعد ذلك يقولون لى ما الذى يجعلك تسافر بهذه العجلة دون أن تحضر أية احتفالات لوداعك؟ فهل كنت على علم بهذا التغيير؟ وكان ردى: ببساطة أننى رجل يمارس مهنة السياسة، شعرت أن هناك اتجاها للتغيير، ورفضت أن أقول لهم عما كنت قد بدأت أفسره كبداية لهذا، من مقابلات الرئيس السادات مع الزعماء السوفيت، المشحونة بالغضب والتوتر والثورة.

وانتهت مهمتى فى موسكو وتركتها فى أكتوبر ١٩٧١ بعد أكثر من ١٠ سنوات قضيتها كسفير مصر فى موسكو. كانت فترة مملوءة بالأحداث وتدعمت العلاقات مع الاتحاد السوفيتى بشكل لم يحدث فى تاريخ هذه العلاقات. ولاشك أننى كنت محظوظا فقد عشت فى قمة نجاح التجربة السوفيتية، كما أننى كنت مدعما من رئيس الدولة الرئيس جمال عبد الناصر، بل كنت ممثلا شخصيا له وكانت كل علاقاتى ومراسلاتى معه مباشرة.

إن أى سفير هذا وضعه لابد أن تنظر إليه الدولة المضيفة باعتبار آخر وهذا ما حدث معى فى موسكو.

وهنا لابد أن أشيد بالمساعدات التى قدمها الاتحاد السوفيتى لنا فقد سلحنا فى أربعة حروب وعلى رأسها حرب أكتوبر ١٩٧٣ التى انتصرنا فيها بأسلحة سوفيتية أساسا، كما قدم القروض التى تقدر قيمتها الآن بـ ٢٥ مليار دولار على الأقل، فساعدنا فى بناء السد العالى وخطوط الكهرباء من أسوان للإسكندرية، وإقامة عشرات المصانع وفى مقدمتها مصنع الحديد والصلب فى حلوان والترسانة البحرية فى الإسكندرية ومصانع الكيماويات فى أبو زعبل، واستصلاح ٢٥٠ ألف فدان شمال غرب الدلتا بمحطات عملاقة لرفع المياه وقنواتها ومصنع الألومونيوم بنجع حمادى ومشروع الفوسفات فى الصحراء الغربية ومصنع الكوك فى حلوان. هذا علاوة على العلاقات التجارية وآلاف المبعوثين خلال هذه الفترة وهم الآن فى أرقى المراكز الصناعية. وكنا نسدد هذه القروض من إنتاجنا وبفائدة ٢,٥٪. ولابد أن أنوه هنا بأنى كنت محظوظا بمعاونة مجموعة ممتازة من الدبلوماسيين وعلى رأسهم السفراء سميح أنور وصلاح شعراوى ووفاء حجازى الذى كان أديبا وشاعرا. وأصبحت المجموعة الدبلوماسية الشابة الذين كانوا يعاوننى فى عواصم كبرى فى أنحاء العالم، أما رؤساء المكاتب فكانوا أصلا من كبار المتخصصين وأصبحوا فيما بعد وزراء وأصبح الدكتور صبحى عبد الحكيم رئيسا لمجلس الشورى.

وكان تقديرى أن قرار السادات تعيينى وزير دولة للشئون الخارجية كان لإثبات أنه يسير على نفس سياسة الرئيس عبد الناصر، بعد أن تخلص من رجال عبد الناصر فى ١٥ مايو ١٩٧١.

فهو وإن كان قد أنحنى أمام تمثال عبد الناصر فى مجلس الشعب، تعبيرا عن الإجلال والاحترام، لكننى سرعان ما اكتشفت أنه جاء إلى الحكم برؤية مختلفة تماما، وبسياسة تعتمد فى أساسها على الولايات المتحدة، وتبتعد عن الاتحاد السوفيتى. ولكنه بحكم طبيعته المتشككة بدأ يتصل بالولايات المتحدة وممثليها، فى الوقت نفسه الذى يظهر فيه الود للسوفيت. مثل قراراته تعيين الكثيرين من اليسار المصرى وزراء، كالدكتور فؤاد مرسى، والاقتصادى اللامع الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله، وأنا كوزير للخارجية.

كنت أعرف الرئيس أنور السادات معرفة وثيقة منذ قيام الثورة، وكنا نتزاور فى

بعض المناسبات، ثم توطدت علاقتى به عندما أصبح فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر مسئولا عن علاقاتنا مع الاتحاد السوفيتى. ولقد تعجبت من تعيينه لهذه المهمة، فالذى أعرفه عنه أنه لم يكن يحمل للاتحاد السوفيتى مودة خاصة، أو محبة كاملة، لكنه - أى السادات - كان بارعا فى التمويه، وإخفاء حقيقة مشاعره. وقد أخبرنى الكاتب الصحفى الكبير مصطفى أمين أنه سأل الرئيس عبد الناصر ذات يوم فى أول الثورة عن الرجل الثانى فى الثورة فقال له إنه أنور السادات. وأضاف جمال عبد الناصر إن رجل الشارع كان لايعرف أحدا من رجال الثورة سوى أنور السادات لعلاقته بقضية أمين عثمان وإخراجه من القوات المسلحة ومحاكمته.

وأعتقد من استقرائى لتاريخ أنور السادات أنه من خلال تمرسه الطويل بالعمل السرى قبل الثورة، قد تطبع بالمغامرة والتمويه والتآمر وهى صفات يعتقد الكثيرون أنها مهمة للرجل الذى يعمل بالسياسة، ودليل حنكة، وليست دليلا على شخصية متآمرة لا تؤتمن.

وقد تحرك الرئيس أنور السادات فى تاريخه الطويل بين حبه الشديد للألمان فى أثناء الحرب العالمية الثانية، وبين ابتعاده عنهم بعد هزيمتهم، والحقيقة أنه لو انتصر الألمان فى هذه الحرب، وانسحب البريطانيون، فربما دفع ذلك بالجيوش البريطانية المنسحبة إلى تدمير مصر. ولم يكن السادات ينفرد وحده بهذا الحب للألمان، إذ كان قطاع كبير من الرأى العام معجبا بهم نكاية فى البريطانيين.

كان السادات أيضا بارعا فى الاتصال بقوى مختلفة ومتعارضة فى الوقت نفسه: الإخوان المسلمين، السراى من خلال الدكتور يوسف رشاد، قيادة الضباط الأحرار، ومحاولات قتل النحاس باشا، واغتيال أمين عثمان وزير المالية.

لم يكن هذا يعيب السادات، من ناحية وطنيته، وحبه لمصر، فقد كنا جميعنا تقريبا نبحث عن مخرج من مأزق الاحتلال البريطانى، كيفية القضاء عليه، ولم نكن راضين عن التوافق الذى حدث بين القصر والأحزاب السياسية الكبرى، وعلى رأسها الوفد، وبين قصر الدوبارة (السفارة البريطانية).

فى هذا الجو كان السادات قد دخل عالم العمل السرى، فلجأ إلى التمويه والمغامرة وتدبير المؤامرات، وأكرر أن هذا ليس تشكيكا فى وطنيته، لكنه بهذه الصفات استطاع دائما أن يفاجئ أعداءه بحركة غير متوقعة أو محسوبة، ثم إنه كان يتميز أيضا بالشجاعة والإقدام.

وكانت كل انتصاراته تكمن فى استخدامه لهذه الصفات، وأعود فأقول إنها صفات تعجب الكثيرين. وقد يراها آخرون صفات غير أخلاقية، و يرد عليها مؤيدو السادات ومنذ متى كانت السياسة أخلاقيات؟

السادات ينفجر غاضبا : أنا لا أقبل مطلقا ما تقولونه

حين تولى الرئيس السادات مهام مسئولياته خلفا للرئيس عبد الناصر، كنت لا أزال سفيرا فى موسكو، وجاء فى أول زيارة له للاتحاد السوفيتى فى مارس ١٩٧١، على رأس وفد يضم الفريق أول محمد فوزى وزير الدفاع، والسيد محمود رياض وزير الخارجية، والسيد شعراوى جمعة وزير الداخلية. وعقدت جلسة المباحثات التى حضرها من الجانب السوفيتى بريجنيف السكرتير الأول للحزب الشيوعى، وكاسيجين رئيس الوزراء، وبادجورنى رئيس الجمهوريات السوفيتية، والمارشال جريتشكو وزير الدفاع، وغيرهم من كبار القادة والمسئولين.

وبدأت المباحثات كالعادة بعرض الموقف العسكرى، ثم الجهود الدبلوماسية والسياسية التى يبذلها الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة. وكرر السوفيت أنها لم تؤت أى نتيجة بالنسبة للوصول إلى حلول سياسية لاحتلال إسرائيل للأراضى العربية.

وجاء دور طلب الأسلحة، وأعدنا من جانبنا تأكيد حاجتنا لسلاح رادع، فقالوا سنعطيكم الطائرة « تى يو ١٦ »، وهى قاذفة ثقيلة تحمل صواريخ بعيدة المدى كسلاح للردع، على أن تظل فى موسكو وعند طلبها فى أى وقت ترسل لكم.

عندئذ ثار الرئيس السادات ثورة عارمة، وضرب المنضدة بيديه وقال: أنا لا أقبل هذا مطلقا، السلاح يجب أن يكون تحت يدى أنا.

ولما كنت أجيد اللغة الروسية وأتكلمها، فقد سمعت حديثا جرى بين بادجورنى وبريجنيف، من وراء ظهر كاسيجين الذى كان جالسا فى المنتصف بينهما، وكان مشغولا بالكلام مع الرئيس السادات، قال بادجورنى: «ما هذه الطريقة ؟ ما هذا الذى نسمعه؟ نحن لم نتعود على هذه الطريقة فى المباحثات، لقد كنا نتكلم مع عبد الناصر فى هدوء واحترام»، ولم يرد عليه بريجنيف، وربما لأنه يعرف أننى أجيد الروسية، والحقيقة أننى لم أترجم للرئيس السادات ما قاله بادجورنى.

وهنا تحضر فى ذهنى قضية تطرح سؤالا مهما: هل للسفير الحق فى أن يمنع بعض المعلومات عن رئيسه؟ ومتى يفعل هذا؟ هل يعتبر هذا خرقا للأمانة الواجبة؟

جالت بخاطرى كل هذه الأفكار، لكننى فضلت ألا أترجم هذه الكلمات وأنا أرى الرئيس السادات يشتعل غضبا، ولم أكن أريد أن أزيد الموقف اشتعالا.

وظل الرئيس السادات غاضبا حتى أثناء حضوره مأدبة الغداء الرسمية إلى أن غادر موسكو. وبعد ذلك استطعنا أن نحصل على هذه الطائرة، وكان للفريق أول فوزى والسيد شعراوى جمعة تفسير بأن السادات افتعل هذه المعركة مع السوفيت، وأنه أشعل ثورة غضبه عن قصد وهو يدق المائدة بيديه.

وفى أبريل ١٩٧٢ عاد الرئيس السادات لزيارة موسكو على رأس وفد كبير، وكنت وقتئذ وزيرا للخارجية وعضوا فى الوفد المرافق له. وفى هذه الزيارة طالب أيضا بسلاح للردع يكون كفيلا بتخويف إسرائيل، ومنعها من ضرب أهداف داخل مصر، وذلك بخلاف الطائرة التى حصلنا عليها والتى يمكن رصدها وهى محلقة فى الجو وضربها.

ورد بريجنيف على هذا الطلب بقوله: لدينا صاروخ يصل مداه إلى إسرائيل، لكنه يحمل رأسا نوويا، ونحن نجرى عليه الآن تجارب لتحويله لحمل رأس غير نووى، وبمجرد الانتهاء من هذه التجارب سوف نسلمه لكم، وسوف يكون قريبا فى حوزتكم.

ولم يظهر الارتياح أو السرور على وجه الرئيس السادات من كلام بريجنيف، لكن هذه الزيارة مرت دون غضب أو خلافات حادة. وعندما جاء الدور على كاسيجين فى الكلام عن الحل السياسى، أكد عدم حدوث تقدم فى هذا الاتجاه، ووصف موقف الولايات المتحدة بأنه لايزال مراوغا. وقال كاسيجين: اقترح عليكم أن نفعل مثلما سبق أن فعلنا مع شاسترى رئيس وزراء الهند، وأيوب خان رئيس باكستان، لإيجاد حل للاشتباكات بين بلديهما، فقد دعوناهما إلى طشقند فى أوزبكستان، وعقدت الاجتماعات، وانتهت بتوقيع اتفاقية مصالحة، فلماذا لا تأتى أنت وجولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل ونعقد اجتماعا هنا فى الاتحاد السوفيتى، وعليكم أن تشعروا بالأمان لأننا معكم.

هنا وجهت حديثى إلى كاسيجين باللغة الروسية، وقلت له: لا داعى لترجمة هذا الكلام، لأنه سوف يثير الرئيس السادات ثورة عارمة، واستجاب كاسيجين للنصيحة ولم يترجم كلامه.

مرة ثانية جال بخاطرى سؤال عما ينبغى للسفير أن يفعله فى مثل هذه المواقف، لكننى بعدها بأسابيع أبلغت الرئيس السادات بتلك الواقعة، فضحك ولم يعلق.

ومضت فترة وتلقيت اتصالا تليفونيا من الكاتب الكبير أنيس منصور وقالى لى: إن الرئيس السادات طلب أن تحكى لى ما حدث بين بادجورنى وبريجنيف، فقلت له : إننى لا أستطيع أن أروى جزءا مما دار من أحاديث، فإما أن أحكى كل الأحاديث التى جرت، أو لاأقول شيئا، فقال لى أنيس منصور:: كأنى لم أقل شيئا.

وقد حدث وأنا سفير فى موسكو أن دعا الاتحاد السوفيتى وفدا مصريا لحضور المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعى فى فبراير ١٩٧١، وكان على رأس الوفد كل من السيد سامى شرف والسيد عبد المحسن أبو النور، وطلب منى الاثنان مقابلة منفردة شخصية مع بريجنيف. وكان أبو النور على موعد مع طبيب فى انجلترا ولابد أن يسافر إليه خلال يومين، ومرض سامى شرف وسافر أبو النور فكانت المقابلة من نصيب سامى شرف. وفى هذه المقابلة قال سامى شرف: إن الرئيس عبد الناصر قد أوصاه هو وشعراوى جمعة والفريق محمد فوزى، بعلاقاتنا بالاتحاد السوفيتى، وطلب منهم المحافظة على حسن العلاقات معكم.

فرد بريجنيف ردا أصابنا بالذهول وهو: هل ضربك؟ فلما رآنا بريجنيف وقد حل علينا الذهول شرح ما يقصده فقال: كان هناك فنان عظيم انتهى من صنع فازة فى غاية الجمال والروعة، وقد صنعها خصيصا لأحد الأمراء، وطلب من ابنه أن يحملها ويذهب ويسلمها إليه، وقبل أن يعطيها لابنه ضربه علقة ساخنة، ثم سلمه الفازة. لقد ضربه ليحافظ عليها. واستطرد بريجنيف على أى الحالات نحن مقدرون لكم موقفكم وواثقون أنكم مستمرون فى علاقتكم معنا، وكذلك الرئيس أنور السادات.

وصلت إلى القاهرة لأتولى منصب وزير دولة للشئون الخارجية، وقد رشحنى لهذا المنصب الأستاذ محمد عبد السلام الزيات الذى كان من المستشارين السياسيين المقربين للرئيس السادات الذى رحب بهذا الترشيح ووافق عليه فى الحال.

ولقد كان شعورى عند تعيينى وزيرا للدولة أن السادات يستهدف إبعادى من موسكو، وقد دهش السفراء الغربيون فى موسكو، لسرعة مغادرتى لها. وسألنى أحد السفراء الأمريكيين - فيما بعد السفير سيلبرمان - عن كيف علمت أن السادات سيبتعد عن الاتحاد السوفيتى وغادرت منصبك بسرعة كانت غريبة؟ والحقيقة أننى شعرت بهذا بعد مقابلة الرئيس السادات للزعماء السوفيت فى موسكو فى مارس ١٩٧١ فى الفترة التى كنت فيها سفيرا هناك، وحدثت المقابلة الشهيرة التى افتعل فيها

أنور السادات ثورة غاضبة حول الطائرة تى يو ١٦ كما ذكرت من قبل وضرب مائدة المفاوضات بقبضة يده محتجا.

وبعد أن عُينت وزيرا للدولة للشئون الخارجية استدعانى الرئيس السادات لمقابلته فى القناطر الخيرية. وتصورت أن هذا اللقاء بمناسبة تعيينى فى المنصب الجديد. ولكنه كان أول احتكاك مع السادات حيث أبلغنى أن السفير السوفيتى «فلاديمير فينوجرادوف» سيحضر حالا وأردتك أن تكون معى. وسرعان ما جاء السفير وبدأ السادات بقوله « أنا لا أعرف كيف أتعامل معكم فأنتم تسوفون فى تلبية طلباتنا وقد جئت بالذى يعرف ذلك»، ودار حديثٌ مكرر وانصرف السفير وقلت للرئيس السادات «ليس من المعتاد أن يكون فى استقبال أى سفير وزير الخارجية مع رئيس الدولة !! ولكن السادات قال إنه لا داعى للنظر فى الشكليات المهم أننى أفهمتهم مع من يتعاملون».

وخرجت من المقابلة وأنا مُحبط وتساءلت بينى وبين نفسى هل كان استدعائى من موسكو من أجل هذه المهمة ؟ لقد كنت أقوم بها فى موسكو ولا داعى إذن لهذا المنصب؟ ثم إنها فى نظرى تحتمل الكثير من الشك فى تحقيقها بنجاح، فقد لمست من كلام الرئيس السادات وهجومه اللاذع على السوفيت وما أعرفه عن خلفيته أنه لا يحمل أى ود لهم. ولكن كان همى الوحيد أن أمامنا معركة وأن الاتحاد السوفيتى هو الوحيد الذى قبل تزويدنا بالسلاح.

وكنت متعجبا من سلوك أنور السادات ومدى كراهيته للسوفيت. وكان ذلك يجعلنى قلقا ومتوترا وليس لدى وضوح عن كيفية رسم سياستنا. وكنت بينى وبين نفسى أردد أن السادات لابد أن له اتصالات مع الولايات المتحدة وأنه على ثقة من أنها ستساعده وتقف بجانبه، ولم تكن تتوافر لدى على ذلك أدلة مادية، إذ كان الموقف الأمريكى يعكس شعورا معاكسا يؤيد إسرائيل تأييدا تاما فى كل المجالات بل ويساعدها فى تدعيم احتلالها للأراضى العربية.

فى عام ١٩٧١ دعا الرئيس أنور السادات إلى اجتماع مصغر لبعض الأعضاء الرئيسيين فى الوزارة، وكنا حاضرين فى هذا الاجتماع.. السيد محمود رياض وزير الخارجية وأنا كوزير دولة للشئون الخارجية، وذلك فى الظروف التى كان قد ذكر فيها قصة الضباب الشهيرة، وسنة الحسم.

طلب الرئيس السادات أن يعرض كل واحد منا رأيه فى الوضع وسنة الحسم.

وعرضت رأيى بصراحة تامة فقلت: إن الاتحاد السوفيتى قد ساعد الهند عندما هاجمت باكستان الشرقية، وساعد فى قيام دولة بنجلاديش، وكان أمامهم إما أن يركزوا على الهند، وإما أن يأتوا إلى منطقتنا ويضعوا فيها كل ثقلهم. صحيح أن منطقة الشرق الأوسط فيها مصالح عظمى، لكن أدواتهم فيها أضعف من أدواتهم فى الهند، حيث احتمالات نجاحها أكثر من احتمال نجاح أدواتهم فى الشرق الأوسط. وهذا يفسر لنا إلى حد كبير لماذا ساندوا الهند وأرسلوا أسطولهم إلى هناك ليقف فى مواجهة الأسطول السابع الأمريكى فى شرق آسيا. ولبوا للهند كل مطالبها، وليس هذا من أجل سواد عيون الهند، لكن لأن القضية هناك أوسع مدى تشمل علاقة الاتحاد السوفيتى مع الصين، وعلاقة الصين بالهند، وعلاقة باكستان بالولايات المتحدة، وقيام بنجلاديش التى تؤيدها الهند، وتأثير هذا كله على استراتيجيات القوى العظمى فى هذه المنطقة حيث تتشابك مصالح أكثر من ٢ مليار من البشر.

ودارت المناقشات لكنها لم تخرج عن حدود ما شرحته، وعندئذ ظهرت قصة الضباب، فالرئيس السادات كان يسأل بينه وبين نفسه: ما هو المخرج؟ ثم نظر الرئيس السادات نحوى وقال: لقد سبقتنى أنديرا غاندى، وكان يقصد أنها استفادت من هذه الظروف المحيطة بها، وبدأت العمليات العسكرية، وحلت مشكلتها بالطريق العسكرى.

ثم مضى عام ١٩٧١ـ سنة الحسم ـ ولم ينفذ الرئيس السادات ما وعد به، وهو ما كان له تأثير سلبى أحدث غضبة شعبية عارمة خصوصا بين طلبة الجامعة.

فى عام ١٩٧٢ عينت وزيرا للخارجية فى حكومة الدكتور عزيز صدقى.

وكانت شكوى الرئيس السادات من السوفيت تزداد، وأخذ يكيل لهم الاتهامات، ويتهمهم بالتواطؤ وعدم تلبية طلباتنا من الأسلحة، وذهبت لمقابلته فى استراحة القناطر، وشرحت له رأيى بكل صراحة، وأزعجته كثيرا صراحتى.

قلت له إن السوفيت لابد أن يتشككوا فى اتجاهك، فجميع مؤسسات الدولة الحاكمة والمؤثرة فى أيدى قيادات معروفة بعدم حماسها للعلاقات مع السوفيت ولا أقول بعدائها، من أمن إلى وزارة الداخلية، إلى مجلس الشعب، إلى الصحافة إلى الجيش، وعلى رأسه الفريق محمد صادق، الذى يكن كرها واضحا لهم، إلى الاتحاد الاشتراكى،... الخ. دون ذكر الأسماء، فرد على وهو يكتم غيظه وقال:

لا.. أنت لا تدرى شيئا! فقد كانت هناك اتصالات وتآمر بين السفير السوفيتى

والأجهزة السوفيتية فى مصر وبين «الولاد» اللى أنا قبضت عليهم يوم ١٥ مايو ووضعتهم فى السجن، ولولا هذا لكنت رأيت فى مصر انقلابا سوفيتيا.

عدت إلى منزلى وأنا اتعجب وأسائل نفسى : ما الهدف من تعيينى وزيرا للخارجية وهو يضمر كل هذا الشك والكراهية للسوفيت؟

كنت بعيدا وأنا سفير فى موسكو فى أثناء أحداث مايو ١٩٧١، فلم أشارك بالطبع فى أى اجتماعات «للولاد» إياهم، ويقصد: على صبرى، وسامى شرف، وشعراوى جمعة، ومحمد فوزى، ومحمد فائق، وعبد المحسن أبو النور، وأظن أن أمين هويدى لم يشترك معهم، واشترك كثيرون غيره معهم.

ولكنه فى ٧١ أبقى على محمود رياض وزيرا للخارجية، مع أنه كان صديقا حميما للفريق فوزى، ولجميع الأخوة الذى ذكرت أسماءهم، ولا أدرى حتى الآن لماذا أبقاه وسانده أيضا فى أن يكون أمينا عاما للجامعة العربية.

وكانت التراكمات التى تعوق علاقة السادات بالسوفيت تتوالى. وكان قد كلف محمود رياض فى يوليو ١٩٧١ بزيارة الاتحاد السوفيتى لمقابلة بريجنيف والزعماء السوفيت بعد أحداث ١٥ مايو، طالبا منه مفاتحتهم فى نقل السفير فلاديمير فينوجرادوف من القاهرة، واتهمه بأنه يتصل بسامى شرف وعلى صبرى والفريق فوزى وغيرهم.

ورد عليه بريجنيف قائلا: نحن ليس لدينا سفراء ينفذون سياسة مخالفة لسياسة الدولة، ثم إن الرئيس السادات نفسه قدمهم لى على أنهم زملاؤه وأصدقاؤه وموضع ثقته، فمن الطبيعى أن يتصل بهم، ورفض بريجنيف نقل السفير فينوجرادوف.

وكان الرئيس السادات قد أرسل فى مايو من العام نفسه طلبات لأسلحة جديدة، ماطل القادة السوفيت فى الرد عليها، وكانوا يعتذرون بأن بريجنيف يستشفى فى منطقة القرم، أو باعتذارات أخرى.

ومن ناحيتى أكدت للرئيس السادات أن المصدر الحاكم فى هذا الأمر هو بريجنيف شخصيا، وحكيت له كيف أننى كنت قد سألت جريتشكو عن بعض طلباتنا من الأسلحة المتطورة، وذكرت له أنكم تسوفون فى هذه الطلبات منذ فترة، فرد على بقوله: سأقول لك سرا لا تطلع أحدا عليه، وهو أنك إذا أردت لهذه الصفقة أن تتم، فأذهب إلى بريجنيف، فهو الوحيد الذى فى يده أن يقرر مصير هذه الصفقة. وأوضحت للرئيس السادات أن

بريجنيف هو الذى فى يده كل عمليات التسليح، بالتشاور مع جروميكو وزير الخارجية والمكتب السياسى.

مفاجأة طرد الخبراء السوفيت

وأوضح الرئيس لى شدة استيائه من معاملة السوفيت له، ثم هدد ـ فى كلامه معى ـ بأنه سوف يمسح الوجود السوفيتى مسحا، ليس فقط من مصر، بل من الشرق الأوسط كله.

ويبدو أنه تصور أننى سأنقل هذا الكلام للسوفيت، وهو بالطبع شىء لا يمكن أن يحدث بتاتا، وإلا لكانت كارثة على العلاقات بيننا وبين الاتحاد السوفيتى.

الخبراء العسكريون السوفيت وحقيقة دورهم

كما ذكرت من قبل أن الخبراء العسكريين الأجانب ليسوا موضع ترحيب فى أى قوات مسلحة، مهما كانت هذه القوات فى دولة خاضعة أو دولة صديقة أو حتى دولة من نفس المعسكر.

وهنا يحضرنى ما حدث فى ثورة بولندا فى ١٩٦٤ والتى أتت بجومولكا رئيسا لبولندا. وكان أول قرار للحكومة الجديدة عزل «المارشال روكسوفسكى» كوزير لدفاع بولندا وهو من أبطال الحرب العالمية الثانية وقاد الجيوش السوفيتية من شمال بولندا وبروسيا الشرقية وجمهوريات بحر البلطيق وهو من أصل بولندى. وكان السوفيت يتصورون أن البولنديين سيرحبون به وزيرا لدفاعهم، وذلك لأصله البولندى. ولكن حدث العكس تماما إذ اعتبروه رمزا للسيطرة والشوفينية الروسية وأن شغله لهذا المنصب إذلال للقوات المسلحة البولندية وكما هو معروف فالبولنديون وطنيون متطرفون.

كذلك ضربت مثلا بالبعثة العسكرية البريطانية وشعور الجيش المصرى تجاهها.

وبعد هزيمة ١٩٦٧ جاء المارشال زخاروف رئيس أركان حرب القوات المسلحة السوفيتية ومعه الكثير من الخبراء وكنا فى حاجة لهم فعلا كما أرسلوا العديد من الطائرات والدبابات والمصفحات... الخ.

أما قواتنا المسلحة فكانت تأمل فى أن يكون التسليح الجديد أحدث وأكثر فاعلية من الأسلحة التى حاربوا بها فى ١٩٦٧. ولكن السوفيت أصروا على أن نبدأ من أولى درجات التسليح واستيعاب الأسلحة استيعابا تاما قبل الانتقال إلى المرحلة التالية.

ورأت قواتنا المسلحة أن ما فى أيديها هو نفس الأسلحة القديمة التى حاربت بها فى ١٩٦٧.

كذلك فرض علينا السوفيت النظام المعمول به فى القوات المسلحة السوفيتية، وهو إلغاء استقلالية سلاح الطيران والسلاح البحرى والدفاع الجوى، واخضاعها جميعا لرئاسة أركان حرب القوات المسلحة.

حقيقة كان هناك قائد لكل سلاح من هذه الأسلحة على حدة، ولكنه يخضع فى النهاية لأوامر من رياسة القوات المسلحة. فهى التى فى يدها توجيه القوات إلى الأهداف التى تحددها هذه الرياسة. وقد أدى ذلك إلى الاحتكاك وعدم رضا من قواد الأسلحة القدامى واستقال اللواء مدكور أبو العز قائد القوات الجوية نتيجة لضغط السوفيت لإعادة تنظيم قواتنا المسلحة بأسلحتها المختلفة على النظام السوفيتى.

وعين الاتحاد السوفيتى، الجنرال «لاشنكو» كبيرا للخبراء السوفيت، وكان رجلا عسكريا على مستوى عال من الخبرة والعلم العسكرى. وسرعان ما اكتسب احترام الجميع وأشاد به الفريق عبد المنعم رياض الذى ذكر لى أنه استفاد من خبرته وشجاعته، كذلك كانت معه مجموعة ممتازة من الخبراء العسكريين. وبدأ تدريب جاد لقواتنا المسلحة.

كان هدف الخبراء السوفيت فى هذه المرحلة هدفا عسكريا بالدرجة الأولى. فقد كان الموقف يستدعى أن تقف قواتنا المسلحة على قدميها وتواجه تحرشات العدو الإسرائيلى ومحاولاته لكسب أرض جديدة خصوصا فى المناطق المؤدية لبور توفيق مثل رأس العش. كما كانت مهمتها الأساسية منع الإسرائيليين من القيام بغارات فجائية عبر قناة السويس رغم سريان وقف إطلاق النيران.

واستمر التدريب الجاد ولكن لم يقابله تطور فى نوعية السلاح الذى يمدنا به الاتحاد السوفيتى.

كان هناك تباين فى مواقف مصر والاتحاد السوفيتى بالنسبة لأهداف التسليح، وكذلك بالنسبة للمعركة التى يجرى الاعداد لها. كان الجانب المصرى يتعجل نوعية جديدة من التسلح لأنه يتعجل المعركة التى يريد أن يمحو بها هزيمة ١٩٦٧ والثأر لكرامته. وكان السوفيت يرون استحالة ذلك وأن هزيمة القوات المسلحة للخصم لاتحتاج إلى أقل من عشر سنوات لإعادتها إلى وضعها قوة عسكرية ضارية يؤتمن

على دخولها المعركة، خصوصا معركة ضارية ضد إسرائيل المؤيدة بالولايات المتحدة الأمريكية.

وكان أساس الموقف السوفيتي الآتي:

١ ـ تأجيل العمليات العسكرية الشاملة لأجل لم يحددوه، وبالتالى كان تسليحهم لنا منسجما من هذه الرؤية.

٢ ـ إعطاء الفرصة كاملة للحوار مع الولايات المتحدة الأمريكية لحل القضية حلا سلميا.

٣ ـ كانوا يتشككون فى مقدرة قواتنا المسلحة على إدارة عمليات عسكرية شاملة لتحرير سيناء.

٤ ـ كان السوفيت يتحاشون بقدر استطاعتهم المواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية.

وفوق كل ذلك كانت هناك حقيقة لا تغيب عن أعيننا وهى أن الصراع العربى الإسرائيلى يشكل إحدى جبهات المواجهة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة. وكانت مصر مركزا لهذه المواجهة. وكان الأمر يختلف تماما بالنسبة لأمريكا وإسرائيل، فإن إسرائيل تشكل امتدادا عضويا للولايات المتحدة نفسها وكيانا لا ينفصل عنها، وبالتالى فعلاقتنا مع السوفيت مختلفة ومتباينة عن علاقة أمريكا بإسرائيل.

هذا لا يعنى أن جبهة الشرق الأوسط ليست حيوية بالنسبة للاتحاد السوفيتى. فكما هو معروف كانت الحرب فى هذه المنطقة تحمل فى طياتها خطرا حقيقيا لمواجهة بين القوتين العظميين كما حدث فى حربى ٦٧ و ٧٣.

ولكن تبقى الحقيقة، وهى أن تحرير أرضنا هى مسألة حياة أو موت بالنسبة لنا بينما رغم كونها حيوية وخطيرة بالنسبة لتوازن القوى بين القوتين العظميين إلا أنها ليست مسألة حياة أو موتا للاتحاد السوفيتى.

سار تسليح الاتحاد السوفيتى لنا بشكل روتينى إلى أن جاءت زيارة الرئيس جمال عبد الناصر السرية لموسكو فى ٢٢ يناير ١٩٧٠.

وحدث تغيير أساسى فى نوعية السلاح السوفيتى كما سبق ذكره، والمهم أنه واكب ذلك مجىء مجموعة جديدة ومهمة من الخبراء السوفيت فى شئون الدفاع الجوى

الجديد وكذلك فى سلاح الطيران. وكان وجودهم لابد منه وقاموا بحماية سماء مصر والمرافق الحيوية فى الداخل، وإن ظلت الغارات الإسرائيلية مستمرة على ضفاف قناة السويس وتصاعد القصف خصوصا فى المنطقة بين القنطرة وبور سعيد التى ركزت القوات الإسرائيلية غاراتها عليها وحولتها إلى أرض تشبه القمر من كثرة الحفر كما وصفتها صحيفة الأهرام. وكنا نظن فى هذا الوقت أنهم يريدون عزل بور سعيد وبور فؤاد للاستيلاء عليهما.

ولكن سلاح الردع الذى يطول إسرائيل ظل بعيدا عن متناول أيدينا. وكان الرئيس عبد الناصر يأمل فى أن يزودنا الاتحاد السوفيتى به حتى وهو فى فترة العلاج فى «سخالطوبا». كذلك كان يأمل فى أن يتوالى تزويده لنا بالأسلحة على مستوى الأسلحة التى وصلتنا بعد الزيارة السرية. ولكن السوفيت كانوا يرون ضرورة تغاضى الولايات المتحدة عن وجود أطقم عسكرية سوفيتية تدير شبكة الصواريخ فى مصر إذ كانت هذه أول مرة يرسل السوفيت قوات لهم خارج المعسكر الاشتراكى. بل وقالوا لنا إنها المرة الأولى التى يرسلون فيها هذا النوع من الأسلحة خارج الاتحاد السوفيتى. ولكنهم مع ذلك أرسلوا لنا الكثير من المعدات الإلكترونية مثل معدات التشويش والاستطلاع عن بعد.. الخ. كما ذكر من قبل.

كانت مشكلة الخبراء العسكريين السوفيت تختفى عندما تأتى أسلحة من نوعية جديدة من الاتحاد السوفيتى، وتعود للظهور إذا تباطأ السوفيت فى تزويدنا بالأسلحة وكان يتبع ذلك ويسير معه علاقة ضباطنا مع الخبراء.

وبعد وفاة الرئيس عبد الناصر وخلافة الرئيس السادات ظهرت بعد ١٥ مايو ١٩٧١ الخلافات المعروفة حول تزويدنا بالسلاح، وتفاقمت مشكلة الخبراء السوفيت. وللحق كان الخبراء السوفيت قد تحولوا إلى مايشبه القوميساريين السياسيين فى الجيش السوفيتى. فكانت نصائحهم وكلامهم يدور حول عدم التفكير فى المعركة وأن القوات المسلحة المصرية ليست مستعدة لها ولابد من إبعاد فكرة أن المعركة أصبحت قريبة. بل وذهب بعضهم وكانوا قِلَّة قليلة إلى معايرة ضباطنا المصريين بالادعاء أنهم لم يحاربوا فى تاريخهم الحديث، وكانوا دائما تحت قيادة الضباط الأتراك والشراكسة منذ أيام محمد على و قبل ذلك كان المماليك يحاربون نيابة عنهم. وعموما كانوا يقومون بعملية إشاعة الشك فى مقدرة قواتنا المسلحة على الحرب، وكان هذا متماشيا مع سياسة موسكو التى تحدثنا عنها من قبل وللأسباب التى ذكرناها عن الأساس الذى يقوم عليه الموقف السوفيتى.

ويمعنى آخر أصبح موقف الخبراء ومهمتم مهمة سياسية أكثر منها عسكرية. وأخذ التوتر يزداد بين الخبراء السوفيت وضباط القوات المسلحة. وكان يقود الحملة ضد الخبراء ويشجعها ويزيد من اشتعالها الفريق محمد صادق وزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة. وأخذ يهاجم الاتحاد السوفيتى وينتقد سياسته. وفى نفس الوقت اشتدت الحملة ضد السوفيت بين المستشارين المحيطين بالرئيس السادات. كما أعربت أوساط كثيرة من بعض الوزراء السابقين والسياسيين عن قلقها من الوجود العسكرى السوفيتى وخوفها من حدوث انقلاب شيوعى يقوده ويحركه الخبراء العسكريون.

كان للسوفيت مطارات فى داخل مصر لحماية بعض المناطق الحيوية. كذلك كانت لهم قاعدة عسكرية جوية وبحرية فى منطقة مرسى مطروح لمراقبة الأسطول السادس ورصد تحركاته. وكانت لديهم طائرة تشبه الأواكس لعمليات المتابعة والاستطلاع. ومما آثار حفيظة ضباطنا أن هذه القواعد كان غير مسموح لهم بدخولها ومحظورة عليهم. وفسر السوفيت ذلك بأن بها معدات سرية للغاية ويريدون أن يحافظوا عليها.

كذلك زاد التوتر بعد تفتيش بعض الخبراء العائدين إلى موسكو لقضاء عطلتهم أو لنقلهم بدعوى أنهم يحملون أو يهربون قطعا من الذهب. والحقيقة أن قرار التفتيش كان مستفزا ومهينا، ولا أدرى حتى الآن من الذى أمر به. وعندما زار المارشال «كوتاخوف» مصر طلب مقابلتى وأبدى أسفه واستياءه من تفتيش الخبراء، وقال لى «لقد كان الخبراء يشترون قطعا صغيرة من الذهب كهدية من مصر لزوجاتهم وبناتهم أو شقيقاتهم». وكان هذا مصدر سعادة لهم وامتنان لوجود أزواجهم أو آبائهم فى مصر فهم اعتبروها هدية من الشعب المصرى لهم ولو حسبتم قيمة الذهب المصادر لما تعدى بضعة آلاف من الجنيهات ولا أدرى ما هو الهدف وراء هذه العملية.

ولكن كان السبب الأساسى لحضور المارشال «كوتاخوف» إلى القاهرة هو أن الإسرائيليين أسقطوا ٤ طائرات سوفيتية يقودها طيارون سوفيت. فكانت العادة أن تأتى الطائرات الإسرائيلية من الشرق ويقابلها الطيارين السوفيت من الغرب إلى أن تقترب المجموعتان ثم تستدير كل مجموعة عائدة من حيث أتت. ولكن حدث أثناء إحدى هذه المواجهات أن استمرت الطائرات الإسرائيلية فى اتجاهها نحو الطيارين السوفيت، وأسقطت ٤ طائرات سوفيتية وقفز الطيارون السوفيت، بالباراشوت ولم يصابوا. ولكن كان هذا الحادث مهينا للطيران السوفيتى وجاء المارشال لكى يوبخهم وينذرهم بعدم تكرار هذا الحادث وأن يكون الطيارون السوفيت أكثر يقظة وانتباها.

ولكن أخذ التوتر يزداد داخل القوات المسلحة. كما تكرر تباطؤ السوفيت فى تزويدنا بأسلحة متطورة خصوصا سلاح الردع مما آثار الرئيس السادات الذى زاد من حدة هجومه عليهم، ودخلنا فى دائرة مفرغة: هجمات ونقد عنيف من جانب السادات يؤدى إلى تباطؤ سوفيتى بالنسبة للأسلحة وهذا يزيد من غضب السادات... الخ.

وحدث أن طلب الرئيس السادات عقد اجتماع لكبار ضباط القوات المسلحة وبحضور الفريق محمد صادق وزير الدفاع. وكان الاجتماع مظاهرة استياء من الخبراء السوفيت وبعض الأوضاع فى القوات المسلحة التى ترتبت على تدخلهم. وأحس السادات بأن الاجتماع كان مرتبا وما قيل من كلمات ونقد كان موحى به من وزير الدفاع. كما أحس بتأييد الضباط وترديدهم لما يقوله وزير الدفاع الذى أصبح يُنظر إليه كزعيم الوطنية المصرية، والرجُل الذى يحافظ على كرامة مصر وكرامة قواتها المسلحة.

كما استاء السادات استياء شديدا عندما لاحظ أن الساتر الترابى الإسرائيلى قد زاد ارتفاعه عن ساترنا الترابى وأصبح الإسرائيليون فى مواقعهم يشرفون على قواتنا المسلحة وتحركاتها ويرصدون تفاصيل عنها بينما حجبت الرؤية عنا بارتفاع ساترهم الترابى. واختزن السادات كل هذه التطورات فى نفسه وأخيرا قرر طرد الخبراء السوفيت وسحب السجادة من تحت أقدام محمد صادق وأفقده القاعدة التى يقف عليها ويقدم منها نفسه كبطل وطنى.

اتخاذ القرار

فوجئت باستدعاء من الرئيس السادات للذهاب إلى اجتماع عاجل فى قصر الطاهرة فى يونيو ١٩٧٢، وذهبت إلى القصر فى ساعة متأخرة من الليل فى نحو الحادية عشرة مساء، ووقفنا فى حديقة قصر الطاهرة والظلام يسود المكان إلا من أضواء تنبعث من القصر نفسه ولكن من بعيد، وكان معى الأخ العزيز حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى، والسيد ممدوح سالم وزير الداخلية، والفريق محمد صادق وزير الدفاع والدكتور عزيز صدقى رئيس الوزراء.

وجاء الرئيس السادات ليتحدث معنا فى وسط هذا الوجوم والسكون التام، وقال:

> إننى أجتمع بكم لأننى اليوم «طربقتها» على دماغ الروس، وعلى دماغ الكل، وطردت الخبراء السوفيت، وغدا سيعقد اجتماع للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى ونود إبلاغها بما حدث.

وجاء دور كل منا ليتحدث ويقول رأيه.

وحين جاء دورى قلت: المهم كيف نُخرج الآن هذا الموضوع؟ وما الذى سنقوله للجنة المركزية؟

واتفقنا على أن يتكلم حافظ إسماعيل وأنا بنفس المعنى أمام اللجنة المركزية، وهو أن الخبراء السوفيت قد أدوا واجبهم ونحن سعداء بهذا الأداء. ونحن نود أن تستمر علاقتنا طيبة مع الاتحاد السوفيتى، لكن على أن نتحمل فى المرحلة المقبلة مسئوليتنا بدون الخبراء السوفيت.

وذهبنا فى اليوم التالى إلى اللجنة المركزية، وفوجئنا بأن الرئيس السادات هو الذى سيتكلم ولسنا نحن، وبدا واضحا أن هذا التغيير جاء بعد مناقشة مع مستشاريه الآخرين. والقى كلمته وكانت هجوما عنيفا على الاتحاد السوفيتى، وأنه طرد خبراءهم، وحدد لهم موعدا يوم ٨ يوليو لمغادرة البلاد. وأخذ يردد بعصبية شديدة، الحديث عن مماطلة السوفيت فى تزويدنا بالأسلحة اللازمة، وأن الخبراء السوفيت ليس لوجودهم ضرورة، ثم قال ولقد أمرت بإخراجهم من مصر.

ساد القاعة وجوم كثيف، وفى النهاية أعلن أنه سيرسل د. عزيز صدقى رئيس الوزراء ومعه مراد غالب، لإبلاغ السوفيت بالموضوع، ولكى نقول لهم إن هذه وقفة مع الصديق، وليس لها أى تأثير على العلاقات.

وصلنا إلى موسكو لكى نؤكد لهم معنى هذه الوقفة مع الصديق، وأن علاقاتنا الطيبة مستمرة، وألحقنا بها طلبات جديدة من الأسلحة.

واجتمعنا مع القادة السوفيت، وحضر بريجنيف وكاسيجين وبادجورنى، وكانت لهم علاقات طيبة واحترام للدكتورعزيز صدقى. وعندما عُرضت مسألة إخراج الخبراء السوفيت من مصر، ظهر التأثر الشديد على بريجنيف، وقال: ما الذى فعلناه لكم لكى توجهوا لنا هذه الإهانة؟ لقد قاتلنا معكم، وسالت دماؤنا مع دمائكم على ضفاف القناة، وفى غيرها من الأماكن، وكنا نقتسم لقمة العيش معكم. واغرورقت عيناه بالدموع وهو يقول : لقد كنا نخفى عن الشعب السوفيتى موتانا الذين قتلوا على أرضكم، حتى لا نوجد لديه أى نوع من الضغينة، أو الكراهية للشعب المصرى ولكم.

رد الدكتور عزيز صدقى بكلام طيب به خاطره، وقال: إن علاقتنا طيبة وستستمر، هذا خط استراتيجى نحن متمسكون به، ولن ننسى مساعداتكم لنا. وتساءل كاسيجين:

هل تستطيع أن تفسر لنا سبب هذا الإجراء الذى جاء يحمل الكثير من الحدة، وكيف سنفسره للشعب السوفيتى؟ إننا غير قادرين على استساغة هذا العمل.

قلت له: هذا الإجراء قد يكون حادا، لكن الذى استشعره أنكم لم تستجيبوا لطلباته من الأسلحة، ونحن سنبذل كل جهدنا لكى تعود العلاقات طبيعية كما كانت.

والحقيقة أنه لم يكن لدى كلام كثير أقوله.

وقال الزعماء السوفيت للدكتور عزيز صدقى: أما عن طلباتكم للأسلحة فسوف نبحثها، وسنرد عليكم، وشعرت بأنهم ضبطوا أعصابهم، وأقاموا حفلا كبيرا فى الكرملين للوفد المصرى.

أما من ناحيتى فقد كنت متأكدا من أن ما حدث كان لابد أن يحدث يوما ما، فالسادات كانت له اتجاهاته المضادة للعلاقات مع الاتحاد السوفيتى، والتحول نحو العلاقات مع الولايات المتحدة.

وبالنسبة لموضوع الخبراء السوفيت، فقد زارنى وفد من الكونجرس الأمريكى وكنت وزيرا للإعلام فى مايو ٧٣، وطلبوا منى إيضاحا حول دوافع الرئيس السادات من طرد الخبراء السوفيت، وقلت لهم: اسألوا الرئيس السادات، فهو الذى اتخذ القرار، وأبلغنا به دون التشاور.

قالوا: لقد تعجبنا كثيرا وأخذنا نقول لبعضنا البعض: لقد قدم لنا خدمة ولم يحصل على ثمن، وكان يستطيع أن يحصل على ثمن مناسب لخطوة كهذه. وذكر لى أحد هؤلاء الأعضاء أن انقساما حدث فى الكونجرس، فالبعض أكد ضرورة تقديم مكافأة كبيرة للسادات لأنه قدم لأمريكا خدمة عظيمة بطرد الوجود العسكرى السوفيتى، بينما كان لفريق آخر منهم رأى يقول: ولماذا نعطيه ثمنا أو مكافأة؟ لقد قطع علاقاته العسكرية مع السوفيت، وأصبح بلا سند، وسوف يأتى إلينا راكعا، وعندئذ نحن الذين نملى عليه ما نريد. وللأسف - كما قال عضو الكونجرس - فإن الرأى الأخير هو الذى انتصر بدعم من اللوبى اليهودى.

وفى الفترة نفسها أيضا زارنى السفير البولندى فى القاهرة وقال لى: لماذا طردتم الخبراء السوفيت؟ كان عليكم أن تبدأوا عملياتكم وهم على أرضكم، لتوريطهم فى هذه العمليات.

فى أواخر أغسطس ١٩٧٢، قمت بزيارة لدول أمريكا اللاتينية، فى مناسبة حضورى

قمة عدم الانحياز فى جيانا بأمريكا اللاتينية، وكان الغرض من هذه الزيارة إحياء المشروع اللاتينى الذى سبق تقديمه للجمعية العامة للأمم المتحدة، الذى يتميز كثيرا عن قرار مجلس الأمن ٢٤٢، ولم يكتب له النجاح فى الجمعية العامة ولم توافق عليه الولايات المتحدة وإسرائيل. ولم يكن هدفنا من إحياء هذا المشروع هو التنفيذ، لكن أن يكون خطوة للضغط على مجلس الأمن لتنفيذ القرار ٢٤٢.

قبل هذه المرحلة مباشرة فى أواخر أغسطس ٧٢ وقبل سفرى لحضور قمة عدم الانحياز، زارنى فى بيتى بالقاهرة، مستر جرين رئيس مكتب رعاية المصالح الأمريكية فى مصر، أسمعنى الآتى بكل صراحة ووقاحة:

أولا : أنه لا يوجد حل إلا بمباحثات مباشرة وجها لوجه مع الإسرائيليين.

ثانيا: أن المهزوم عليه أن يدفع ثمن هزيمته.

ولما استفسرت منه عما يقصده بدفع الثمن قال لى: لابد من إعطاء إسرائيل ميزات فى أية محادثات قادمة. وقد أبلغت هذا الحديث تليفونيا للصديق العزيز حافظ إسماعيل، وقال إنه سيبلغه للرئيس السادات.

وعند عودتى من رحلة إلى أمريكا اللاتينية، تلقيت اتصالا من مبعوث الأمم المتحدة للسلام فى الشرق الأوسط السفير جونار يارنج لمقابلتى فى جنيف فى طريق عودتى لمصر، ليطلعنى على جهوده الدبلوماسية.

ويارنج سبق أن كان سفيرا للسويد فى موسكو، فى فترة عملى هناك، وقامت بيننا علاقة صداقة، وظللنا نتراسل بعدها، وفى إحدى المرات أبلغنى فى مقابلة فى وزارة الخارجية فى القاهرة بأن أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل يريد أن يقابلنى سرا، ورفضت هذا العرض.

انتظرت يارنج هذه المرة فى الفندق الذى نزلت فيه خارج جنيف، وبينما كنت فى انتظاره (فى سبتمبر ١٩٧٢)، إذا باثنين من الصحفيين الفرنسيين يطلبان زيارتى وقابلتهما، وأبلغانى رسالة من موشى ديان فحواها إنه يريد مقابلة سرية للغاية معى. وكان واحد منهما هو الكاتب الصحفى «ماريك هالتر» وهو وثيق الصلة بالقيادة الإسرائيلية من أول جولدا مائير إلى موشى ديان...الخ.

وبعدها وصل يارنج، وسألته: بعد أن زرت إسرائيل، هل تعتقد أن المقابلة مع إيبان كانت ستظل سرية كما يقولون؟ هل كانت ستسفر عن شىء إيجابى؟

وبصراحة تامة قال لى يارنج: لا.. لن تبقى مثل هذه المقابلة سرية، والإسرائيليون لم يكونوا ليقبلوا المقترحات التى تتقدم بها.

وهذا يذكرنى بواقعة مماثلة حدثت فى عام ١٩٧١ (وكنت وزيرا للدولة للشئون الخارجية) تقدمت الولايات المتحدة بعرض بإجراء مفاوضات فى نيويورك بيننا وبين إسرائيل، بحيث يقيم المندوب المصرى فى أحد الفنادق، والإسرائيلى فى فندق آخر، أو يقيم الاثنان فى جناحين بعيدين عن بعضهما فى نفس الفندق.. وتجرى مفاوضات غير مباشرة وبوساطة أمريكية، وتحدثوا أيضا عن السرية.

وعرض الرئيس السادات هذه المقترحات على الدكتور محمود فوزى وكان فى ذلك الوقت مستشارا لرئيس الجمهورية، وحافظ إسماعيل، وأنا، وكنت أنا المرشح لإجراء هذه المفاوضات مع الإسرائيليين. ولم أمانع أو أرفض هذا، لكننى بينت بوضوح أن هذا الموضوع لن يبقى سرا، وأن الأمريكيين أنفسهم وكذلك الإسرائيليون سيفشون السر، لأن من شأن إفشائه أن يحدث وقيعة بيننا وبين الاتحاد السوفيتى، وبيننا وبين سوريا، وأيضا الدول العربية الأخرى خصوصا ليبيا، وأن علينا أن نبلغ الاتحاد السوفيتى وسوريا بهذا، وأن يكون موقفنا واضحا، ليس طلبا للموافقة، لكن لمجرد الإبلاغ حتى لا يتشككوا فى أن هذه مؤامرة من وراء ظهورهم.

والحقيقة أن السوفيت لم يرحبوا بهذه المفاوضات، لأنهم أرادوا أن تكون قضية الشرق الأوسط تحت الرعاية التامة للقوتين الكبيرتين.

ومع أنى وافقت على التفاوض، فإننى كنت أعلم علم اليقين، حسب تقديراتى الشخصية، أن إسرائيل لن تقبل هذا الشكل للتفاوض، وستصر على المفاوضات المباشرة وجها لوجه، وفعلا رفضت إسرائيل، وتلاشت هذه المبادرة الأمريكية.

وفى أواخر يناير ١٩٧٢ جاء لزيارة مصر « د. ب. دار» وزير التخطيط السياسى فى حكومة الهند فى زيارة رسمية. وكان «دار» صديقا لى حيث كنا نعمل سويا سفراء فى موسكو. وكان رجلا سياسيا وليس دبلوماسيا، وعُين فى هذا المنصب للعلاقات الحميمة بين الهند والاتحاد السوفيتى ولأنه قريب الصلة بالسيدة «أنديرا غاندى» رئيسة وزراء الهند حيث نشآ سويا منذ الطفولة فى كشمير.

وكان «دار» يحمل معه رسالة فى غاية الأهمية من «أنديرا غاندى»، وطلب مقابلتى على حدة. وكان ذلك فى أواخر يناير ١٩٧٢ وكنت قد عينت لتوى وزيرا للخارجية.

كانت الرسالة تطلب اعتراف مصر بدولة بنجلاديش وبالشيخ مجيب الرحمن رئيسا

لها. وكانت الهند قد غزت الباكستان الشرقية ومعظم سكانها كانوا من البنجاليين وأقامت دولة بنجلاديش، وأوقعت الهزيمة بالباكستان بقيادة ذو الفقار على بوتو واستقطعت الجزء الشرقى منها.

عرض «دار» على مصر الاعتراف بالدولة الجديدة «بنجلاديش» فى مقابل أن تفتح الهند مراكز أبحاثها فى المجالات الآتية:

١- الطبيعة النووية.

٢- الأبحاث الإلكترونية.

٣- الأبحاث الصاروخية والتوجيه.

ولا أخفى أننى سعدت بهذا الاقتراح سعادة بالغة فقد حاولنا ذلك مع السوفيت والصينيين وباءت مساعينا بالفشل.

وجاء اقتراح الهند ليجدد آمالنا القديمة ويحقق لنا ما كنا نحلم به دائما.

وذهبت للرئيس أنور السادات حاملا الاقتراح وكنت أتخيل أنه سيسعد به ويوافق عليه. وإذا به ينظر إلىَّ نظرة حادة ويقول: «إنت عايزنى أحط إيدى فى إيد جولدا مائير»!!. وفهمت فى الحال ما الذى يقصده، ولكنى تظاهرت بعدم الفهم وقلت له: «ياريس أنا لم ألمس فى كلامى أى شىء عن «جولدا مائير» فقال « يعنى أنت مش فاهم؟؟ لا.. لا أنت عارف قصدى كويس» وأخذت أشرح بالتفصيل مكاسب الاقتراح الهندى وكذلك ردود أفعال الباكستان والدول العربية مركزا على الآتى:

١ - أن الحرب الهندية الباكستانية حول بنجلاديش كانت حربا تمس أكثر من مليارين من البشر، لأنها تشمل أيضا المصالح الصينية وعلاقاتها بالباكستان ضد الهند، وكذلك المصالح الأمريكية المؤيدة للباكستان، ثم مصالح الاتحاد السوفيتى المؤيدة للهند. وكان السوفيت المصدر الرئيسى لتسليحها، وإذا كانت أنديرا غاندى قد سبقتنا وبدأت بمعركتها فإن احتمالات نجاحها كان أكبر من احتمالات نجاحنا مع إسرائيل.

٢- أن الباكستان لا تستطيع أن تبتعد عن تأييدها للقضايا العربية ضد إسرائيل فهى دولة مسلمة وتربطها بالدول العربية خصوصا الخليجية روابط وثيقة للغاية، وحتى لو غضبت الباكستان من مصر وقطعت علاقاتها معنا فسيكون لدينا علاقات مع بنجلاديش وهى دولة مسلمة مثل باكستان وسرعان ما ستعيد الباكستان علاقاتها بعد فترة.

٣ـ أن بنجلاديش أصبحت حقيقة واقعة وسيعترف بها جميع الدول إن عاجلا أو آجلا.

٤ـ حقيقة فضل الاتحاد السوفيتى الهند وأعطاها الأولوية عنا ولكنه كان يعتقد أن الهند أقرب للانتصار وهذا لا ينعكس بالنسبة لعلاقتنا مع الهند.

ولكن للأسف أصر «السادات» إلا يضع يده فى يد «جولدا مائير» (أنديرا غاندى) ومن المفارقات أنه فعل هذا مع جولدا مائير شخصيا عند زيارته لإسرائيل فى عام ١٩٧٧.

هذا وللعلم كان «السادات» قد زار الهند من قبل كرئيس لمجلس الشعب وطلب مقابلة أنديرا غاندى. ولكن لم تقابله بسبب غيابها عن نيودلهى واعتذرت السلطات الهندية للرئيس السادات لعدم اتمام المقابلة.

وبعد شهرين من زيارة «دار» وصل إلى القاهرة وزير خارجية الهند سنج وشملت محادثاتى معه الموقف الدولى عامة والعلاقات الجديدة فى جنوب آسيا بعد قيام دولة بنجلاديش وما صاحبها من مواقف القوى العظمى والصين والعلاقات مع الباكستان ثم تناولنا العلاقات الثنائية بالتفصيل.

طلب الوزير الهندى مقابلة الرئيس السادات الذى أجابه إلى طلبه وذهبت مع «سنج» لمقابلته ودهشت من أن السادات بدأ حديثه معه بهجوم شديد على الاتحاد السوفيتى الذى يتلكأ فى تلبية طلبات مصر من السلاح، ثم طلب من الوزير الهندى أن تمدنا الهند بهذه الأسلحة نظرا لأنها تُصنع الأسلحة السوفيتية وخصوصا طائرات الميج المتقدمة فى بلادها.

كان هذا الطلب فى غاية الحرج بالنسبة للوزير الهندى، فكما هو معروف دوليا لا تستطيع الهند أن تفعل ذلك دون إذن من السوفيت، وتململ الوزير الهندى من هذا الطلب وتمتم ببعض ألفاظ المجاملة ولكنه تجنب الرد على طلب الأسلحة.

ثم اصطحبت الوزير الهندى إلى المطار بعد مقابلة الرئيس السادات مباشرة وتحدثنا فى السيارة أثناء الطريق. وكان كلامه معى منصبا على الانفعال والحدة التى تكلم بها السادات عن السوفيت، وقال هل وصلت علاقتكم معهم إلى هذا الحد من التوتر؟؟ ثم أردف قائلا إن واجبك ليس سهلا!!

لقاء مع بومبيدو

وصلتني دعوة لزيارة فرنسا، وحدد لى الرئيس جورج بومبيدو الساعة الثالثة بعد الظهر يوم ١٦ مايو ١٩٧٢ لمقابلتى، وتناولت المقابلة عدة قضايا أهمها:

١ـ أن فرنسا عرضت اقتراحا بطلب عقد اجتماع لمجلس الأمن للنظر فى التعنت الإسرائيلى، وعدم تنفيذ إسرائيل قرارات الأمم المتحدة، وكان هذا يعنى طرح القضية على الأمم المتحدة.

لكن السوفيت والأمريكيين لم يوافقوا على ذلك، متمسكين بسياستهما فى أن تبقى مشكلة الشرق الأوسط مقصورة عليهما، وخارج نطاق مجلس الأمن، ولكن داخل إطار الحسابات العلوية للمواجهة العالمية التى تدور بينهما.

٢ـ أوروبا ومواقفها من النزاع العربى ـ الإسرائيلى ومدى مواءمة هذا الموقف لاعتمادها على ٧٠٪ من احتياجاتها من الطاقة من البترول العربى.

٣ـ العلاقات بين الاتحاد السوفيتى ومصر خاصة، والعالم العربى عامة، وركز بومبيدو على مدى استجابة السوفيت لطلباتنا من الأسلحة.

٤ـ العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا، وكانت علاقاتنا مقطوعة معها، وطلب بومبيدو أن نعيد العلاقات مع ألمانيا من أجل أن تقوم فرنسا بدور أكثر فاعلية فى المجموعة الأوروبية، وأن تساندها فيه ألمانيا، واقترحت عليه أن يتصل هو بألمانيا. بدعوى أنه هو الذى أقنعنى بعودة العلاقات معها، وتم ذلك فى خلال ساعات. وسارعت ألمانيا بأن أرسلت لى فى اليوم التالى مباشرة مدير إدارة الشرق الأوسط فى الخارجية الألمانية، للاتفاق على موعد إعادة العلاقات.

وساطة تشاوتشيسكو

وزار مصر تشاوتشيسكو رئيس جمهورية رومانيا وكان معه وزير خارجيته مانسكيو، لمباحثات حول العلاقات الثنائية وذلك فى فبراير ١٩٧٢، لكنها ركزت على النزاع العربى ـ الإسرائيلى، وعلاقاتنا بإسرائيل بالذات.

وطلب تشاوتشيسكو اجتماعا خاصا ثنائيا مع الرئيس السادات.

وطال الاجتماع، فقال لى مانسكيو: هل تعلم ما الذى يقوله تشاوتشيسكو للسادات؟

قلت: بالطبع لا أعلم.

قال: إنه يعرض عليه الآن أن يتوسط بينه وبين جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل.

وعلمت بعد نهاية الاجتماع من مانسكيو أن الرئيس السادات وافق على اقتراح رومانيا بالقيام بالوساطة، وأن تكون هناك حلقة وصل بين رومانيا ومصر، تنقل إليها باستمرار ما تتمخض عنه المحادثات بين إسرائيل ورومانيا.

وغادر تشاوتشيسكو القاهرة، وانتظرت أن يقول لى الرئيس السادات شيئا عن هذه المقابلة، لكنه لم يبلغنى شيئا، فاضطررت إلى أن أفاتحه فى الموضوع وقلت له: ياريس.. لقد علمت من وزير خارجية رومانيا بما دار بينك وبين الرئيس تشاوشيسكو.

فجز الرئيس على أسنانه، فسألته: من سيكون الواسطة بينك وبين رومانيا؟ فقال: لدينا هناك سفير، فليكن هو الذى يقوم بهذا الدور. وكان سفيرنا عثمان عسل رجلا هادئا كتوما ويصلح لهذا العمل.

محاولة الرئيس السادات الاتصال بالإسرائيليين

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يحاول السادات الاتصال بالإسرائيليين. فقد حاول من قبل وبعد وفاة عبد الناصر بأربعة أشهر عن طريق الأستاذ أحمد حمروش. ويصف «شارل أنديرلان» كيف تمت هذه العملية فى كتابه «سلام أو حروب» فيقول: تلقى «ناثان يلين مور» رسالة مستعجلة من صديق له فى باريس يدعوه للمجىء فورا وكان هذا الصديق هو «هنرى كورييل» الرئيس السابق للحزب الشيوعى «حدتو» فى مصر، وكان الاستاذ أحمد حمروش عضوا فى هذا الحزب. وعند وصول «يلين مور» إلى باريس انطلق إلى صديقه «كورييل» الذى قال له «يريد أحدهم أن يراك»، وفتح الباب وظهر الأستاذ أحمد حمروش الذى كان يعمل رئيس تحرير المجلة الأسبوعية القاهرية «روزاليوسف» والآن يتعاون مع الرئيس السادات.

طلب الأستاذ أحمد حمروش من «يلين» أن ينقل إلى حكومة جولدا مائير اقتراحا للتفاوض مع الرئيس السادات. فيجتمع موظفون كبار من كلا البلدين سرا على أرض محايدة ويتعهد الطرفان بألا يذيعا شيئا من محادثاتهما إن كتب لها الفشل!!

وقد نشر يلين هذه المقابلة فى صحيفة يومية فى تل أبيب. وعند وصول «يلين» تل أبيب قابل إيجال ألون الذى كان بصحبته «تسفى زامير» رئيس الموساد وسلمه الرسالة. ولكن جولدا مائير رفضت هذا الاقتراح وقام «ألون» بابلاغ هذا الرفض إلى «يلين».



تقديم أوراق الاعتماد إلى رئيس جمهورية يوغوسلافيا بالنيابة

الباب وظهر الأستاذ أحمد حمروش الذى كان يعمل رئيس تحرير المجلة الأسبوعية القاهرية «روزاليوسف» والآن يتعاون مع الرئيس السادات.

طلب الأستاذ أحمد حمروش من «يلين» أن ينقل إلى حكومة جولدا مائير اقتراحا للتفاوض مع الرئيس السادات. فيجتمع موظفون كبار من كلا البلدين سرا على أرض محايدة ويتعهد الطرفان بألا يذيعا شيئا من محادثاتهما إن كتب لها الفشل!!

وقد نشر يلين هذه المقابلة فى صحيفة يومية فى تل أبيب. وعند وصول «يلين» تل أبيب قابل إيجال ألون الذى كان بصحبته «تسفى زامير» رئيس الموساد وسلمه الرسالة. ولكن جولدا مائير رفضت هذا الاقتراح وقام «ألون» بابلاغ هذا الرفض إلى «يلين».

فى سبتمبر ١٩٧٢ حضرت آخر جلسة لمجلس الوزراء بصفتى وزيرا للخارجية، وشعرت من بعض تعليقات للدكتور عزيز صدقى رئيس الوزراء، أنها الجلسة الأخيرة لى.

وفى اليوم التالى اتصل بى الدكتور عزيز صدقى تليفونيا، وشكرنى على التعاون خلال فترة عملى معه، وقال: هناك تعديل وزارى وليس لك مكان فيه، وكان إخراجى هو التعديل الوحيد، فشكرته على هذا، وعينت سفيرا بوزارة الخارجية، لكنه كان منصبا على الورق لأنى لم أذهب إلى وزارة الخارجية.

ندوة بالأهرام فى غيابى بالخارج

ولقد حدث أثناء زيارتى ليوجوسلافيا - وكنت وزيرا للخارجية - فى عام ١٩٧٢، وكنت أتحدث مع الرئيس تيتو، فوجدته يفاجئنى بقوله: هل هناك تغيير فى سياستكم مع السوفيت. ولما استوضحته أجاب أنه عرف عن ذلك من الصحافة المصرية. هنا تدخل وزير خارجية يوجوسلافيا وقال موجها الكلام لى سنتحدث عن هذا فيما بعد. ولأول مرة أسمع منه عن ندوة عقدت فى صحيفة الأهرام وانتقد المتحدثون فيها الاتحاد السوفيتى بشدة. أبديت دهشتى لما قاله وزير الخارجية، وتذكرت حديثا دار مع الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل اقترحت فيه أن يكون هناك تعاون بين وزارة الخارجية والصحافة ووسائل الإعلام. واقترحت أن تعقد اجتماعات لتبادل وجهات النظر حول القضايا المهمة وهى كثيرة ووافق الأستاذ هيكل، غير أننا لم نحدد موعدا معينا أو الطريقة المناسبة لتنفيذ هذا.

وعند عودتى إلى القاهرة قرأت مانشر فى هذه الندوة بكاملها. وشعرت بالأسف لأن يكون من نبهنى إليها هم الأصدقاء اليوجوسلاف وأسفت لأن الندوة عقدت فى غيابى، واشترك فيها دبلوماسيون من وزارة الخارجية دون علمى ولا أدرى من الذى أذن لهم بذلك. وكان من الطبيعى أن أفتتح أنا وزير الخارجية والأستاذ هيكل أولى جلسات الندوة. أما أن تعقد الندوة وأنا غائب دون إذن حتى من الوزير المكلف بالإشراف على وزارة الخارجية فقد أدهشنى وآلمنى ذلك.

أما عن الندوة نفسها فكانت بعيدة كل البعد عن الخط الذى كنت أتصور أننا سائرون فيه، وقد وجه السيد إسماعيل فهمى وكيل وزارة الخارجية فى كلمته نقدا لاذعا للسوفيت وهم بطبعهم فى منتهى الحساسية للنقد، خصوصا إذا كان بهذه

الحدة. وعلمت أن الأستاذ هيكل نفسه قد خفف كثيرا مما قاله وكيل الوزارة إسماعيل فهمي، والسيد تحسين بشير مدير إدارة الصحافة بالخارجية، وكان معهما الدكتور أسامة الباز الذى كان موضوعيا فى حديثه. وادعى بعضهم أننى أذنت له بالمشاركة فى هذه الندوة، وهذا لم يحدث بتاتا لسبب بسيط لأننى كنت غائبا فى زيارات عمل لكل من فرنسا وبريطانيا ويوجوسلافيا، وقابلت «بومبيدو» في باريس فى ١٦ مايو ١٩٧٢ الساعة الثالثة بعد الظهر ومن السهل التحقق من ذلك. وقد علقت على هذه الندوة تعليقات غاضبة أثارت هيكل ثم ذهبت إلى الرئيس السادات فى القناطر وأطلعته على نتائج رحلتى ولم يكن متحمسا لسماع أى شيء عن هذه الزيارات ولم يهتم إلا بموضوع إعادة العلاقات مع ألمانيا، ثم فاتحته في أمر الندوة وجرت معه مناقشات متوترة، فقد وجدت تعليقاته على الندوة أقرب إلى ما ذكره السيد إسماعيل فهمي.

وهنا واجهته بشكل حاسم بأننى لا أقبل ما حدث، وأن يقوم برسم سياسة الوزارة شخصيات أخرى غير الوزير، ويؤسفنى أن أبلغ سيادتك بأننى سأتخذ الإجراءات المناسبة تجاه إسماعيل فهمي وتحسين بشير وسأوقفهما عن العمل، وأعطيهما إجازة مفتوحة لحين البت نهائيا فى أمرهما.

وكظم السادات غيظه لكنه قال أنت الوزير المسئول ولك أن تزاول مسئولياتك كما ترى.

وهنا لى وقفة فقد تأكدت من أن هذه الندوة كانت من العلامات المحورية المهمة التى تبين اتجاهات الرئيس السادات، ضد السوفيت، وبالنسبة للولايات المتحدة، وكان كل ما أخشاه أنه لاتزال أمامنا معركة تحرير أرضنا من العدوان الإسرائيلى، وأن إثارة غضب السوفيت بهذه الحدة فى عداواتهم ستؤثر سلبا على طلباتنا من الأسلحة. ولكنى تأكدت بعد مقابلتى للرئيس السادات ومن وقائع أخرى أنه يضمر للسوفيت كل الكراهية والبغض رغم أن الولايات المتحدة لاتزال تناور وتخادع وتؤيد إسرائيل تأييدا أعمى. وفعلا تحقق ذلك ووجد السادات نفسه مضطرا للعودة للسوفيت طالبا الأسلحة. و نجح المشير إسماعيل فى عقد صفقة ضخمة بشأنها فى مايو ٧٣ دخلنا بها حرب أكتوبر. وعاد الخبراء السوفيت مع صفقة الأسلحة وكان قد طردهم من قبل فى ٨ يوليو ١٩٧٢. وبعد مقابلتى للرئيس السادات تكلمت مع الأستاذ هيكل الذى كان فى أحسن مراحل علاقته مع السادات، واعتذرت له عما بدر منى من نقد تعدى حدود اللياقة، وأشرت إلى ضرورة الابتعاد عن الفرقة واستمرار العلاقات الطيبة فقد شعرت بأن المستهدفين للانتقام كثيرون!!.

وكان قد حدث قبل هذه الندوة أن طلبت لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشعب مشاركتى فى مناقشة حول سياستنا الخارجية، وكنت مضطرا للسفر فى مهمة رسمية وطلبت من إسماعيل فهمى وكيل الوزارة أن يذهب إليهم بدلا منى. وإذا بالعنوان الرئيسى فى أعلى الصفحة الأولى للأهرام يقول إسماعيل فهمى يصرح فى مجلس الشعب بكذا وكذا.. ثم أورد تصريحاته. كان هذا حوالى مارس أو أبريل على ما أتذكر سنة ٧٢. وقلت لنفسى وليكن إن إسماعيل فهمى رجل كفء، وإذا أراد هيكل تلميعه فلا بأس. ثم جاءت الندوة بعد ذلك وبدا الأمر وكأنه خطة مرسومة ومعهما الرئيس السادات الذى كان يخطط لسياسة بعيدة عن الجميع.

كان الأستاذ هيكل قد لعب دورا مهما فى اختيار الرئيس السادات وتدعيم سلطته والقيام بالحملة الدعائية اللازمة والمناسبة للرئيس الجديد. وكان له الدور الأكبر بل الوحيد فى اختيار رئيس وزرائه وهو الدكتور محمود فوزى، الذى كان يتمتع بسمعة دولية طيبة. وأصبح الأستاذ هيكل المستشار الأول والأوسع نفوذا بجانب الرئيس السادات.

وقد ساعد الأستاذ هيكل مساعدة أساسية فى التخطيط للتخلص من رجال عبد الناصر، ولم يكن يكن لهم الكثير من الود، وذلك فى ١٥ مايو سنة ٧١. أما المنفذ الحقيقى لعمليات ١٥ مايو ١٩٧١ فكان اللواء الليثى ناصف، وكان وثيق الصلة برجال عبد الناصر، ولكنه انضم إلى السادات وأصبح رئيسا للحرس الجمهورى، فقد كان رجلا منضبطا وآثر أن يكون مع الشرعية أى مع رئيس الجمهورية. وقصته ومادار حولها من شائعات معروفة للجميع. فالبعض قال إنه قتل عمدا، وكان يردد دائما أن رجال السادات وراءه يريدون التخلص منه والبعض الآخر يؤكد أنه انتحر.

كان الأستاذ هيكل يريد أن يكون أكثر نفوذا مع السادات مما كان عليه مع عبد الناصر. ولكن السادات صبر عليه حتى انتهت حرب أكتوبر وقال كلمته المشهورة عن الأستاذ هيكل «أنا لا أقبل ممن يعمل معى أن يعتقد فى نفسه أنه الملقن على خشبة المسرح».

وانتهت هذه العلاقة كما يعرفها الجميع فى ظروف مأساوية. وضم السادات الأستاذ هيكل إلى زمرة من خيرة المثقفين والسياسيين فى مصر وأودعهم السجن جميعا لا لشىء إلا لكونهم قد تجرءوا وعارضوه، وتحقق بذلك ما كان يقوله السادات دائما «أنه لا مفر لكل من يحكم مصر إلا أن يكون فرعونا».

دور الأستاذ هيكل

ولقد رأيت من الواجب أن أكمل الحديث عن الحقبتين الناصرية والساداتية بحديث عن الأستاذ محمد حسنين هيكل الذى لعب دورا مهما فى كلتا الحقبتين.

فكان الأستاذ هيكل أقرب إنسان إلى جمال عبد الناصر وفكره. وقد رأيتهما يجلسان معا مرات عديدة، ولمست بنفسى وعن قرب مدى ما يتمتع به الأستاذ هيكل من منزلة خاصة وحميمة لدى الرئيس.

يقولون إن جمال عبد الناصر هو الذى صنع هيكل. ولكن الحق يقال أن هيكل صنع نفسه بنفسه. فكان مراسلا فى اليونان أثناء الحرب الأهلية الدولية وكان مراسلا فى الحرب الكورية فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات كما زار الكثير من بؤر التوتر فى العالم ووصفها وكتب عنها.

سألت جمال عبد الناصر عن ظروف تعرفه على هيكل فقال أثناء انعقاد مؤتمر عدم الانحياز فى باندونج عام ١٩٥٥. كان كل الصحفيين يجلسون معا ينتظرون خروجى من الجلسات ويسألوننى عما دار فيها وما الذى قاله « شواين لاى» أو «نهرو» فكان اعتمادهم علىَّ فى كتابة تقاريرهم على ما أبلغهم به.

أما هيكل فكان يأتى منفردا ومعه الكثير من الأخبار ويطلعنى على مايجرى فى «المطبخ» الداخلى لكل وفد من الوفود المشتركة، وقد ساعدنى ذلك كثيرا. انظر الفرق بين الاثنين العشرات من الصحفيين جالسون يتسامرون معا يتلقون الأخبار جاهزة منى، وهيكل يسعى ويعمل ويقابل ويناقش أعضاء الوفود ومعهم صحفيوهم ويأتى بحصيلة كبيرة من الأخبار والتعليقات!!

حقيقة هيكل صنع نفسه ولكن اقترابه من الرئيس عبد الناصر أدخله مرحلة جديدة أهله لها ما يتمتع به من ذكاء وقدرة كبيرة على إدراك من أين تنبع الأحداث وكيف سارت وفى أى اتجاه سوف تسير.

بصراحة كنت أعتبر هيكل شريكا للرئيس Co. President. فقد كان قلم جمال عبد الناصر، وأحسن من عبر عن فكره. كان يجلس مع الرئيس بضع دقائق يكتب فيها بضع كلمات تعبر عما يريده الرئيس فى خطابه. وإذا بهذه الكلمات تتحول إلى خطاب متكامل رشيق الأسلوب يترجم الاتجاهات السياسية والاجتماعية التى يفكر فيها عبد الناصر بالضبط. كنت أراهما معا باستمرار فى زياراتهما لموسكو. وكان عبد الناصر

يحيط «هيكل» علما بما دار من محادثات وأحيانا كثيرة يطلعه على محاضر الجلسات التى كنت أكتبها. كذلك كانا يتشاوران معا فى كيفية تناول اللقاءات مع القادة السوفيت. وكنت معهما بطبيعة الحال ولكن كنت أحيانا أشعر بأن «هيكل» هو موضع أسرار جمال عبد الناصر وانطباعاته الخاصة. ولم يكن هذا يضايقنى بل اعتبرته راحة نفسية لى فلست فى حاجة إلى أن أحمل اسرارا أو انطباعات خاصة للرئيس فهى مسئولية لا داعى لها. أما عن الخط السياسى الذى كنت أسير فيه فقد كان منسجما مع فكر الرئيس لدرجة أنه لم يرسل لى أية تعليقات خلال عملى فى موسكو ١٠ سنوات كسفير. والحقيقة أنه أعطانى مطلق الحرية فى تحركاتى ومقابلاتى وكان يرتاح إليها.

ورث الأستاذ هيكل دار الأهرام من عائلتى تكلا والجميل، وكانت دارا ناجحة ولها مكانتها. ولكن هيكل حولها إلى مؤسسة متكاملة واستقطب معظم المثقفين والمفكرين وضم اليسار المصرى إليها وأفرد لهم مجلة الطليعة. وأصبحت دار الأهرام من أكبر مراكز الإشعاع الفكرى والثقافى فى مصر، علاوة على عملها الأصلى كصحيفة رزينة متزنة. ثم تطورت وأصبحت تعبر عن فكر جمال عبد الناصر بمقال الأستاذ هيكل «بصراحة» الذى كان القراء يعتبرونه معبرا عن سياسة الدولة. وإن كنت أعتقد أن الأستاذ هيكل كانت له حرية التصرف والتعبير عن أفكار ليس بالضرورة هى أفكار الرئيس بل هى رؤيته الخاصة ولكنها بالطبع لاتتعارض مع آراء عبد الناصر وكان لديه حِسٌ داخلى بما يريده الرئيس.

كثيرا ما كنت أزور الأستاذ هيكل فى مكتبه عند زيارتى القاهرة. وكان تليفون الرئاسة يطلبه عدة مرات أثناء زيارتى. وكنت أشعر من خلال الحديث مدى التقارب والعلاقة الوثيقة بين الرئيس والأستاذ هيكل. وكان تعدد أنواع المشاكل والقضايا موضوع المكالمة يدل على أن الأستاذ هيكل كان المستشار الأكثر قربا والأرفع منزلة عند الرئيس، ليس فقط فى العلاقات الخارجية ولكن فى كافة القضايا الداخلية والعربية والدولية والإعلامية بطبيعة الحال.

كان الأستاذ هيكل معروفا بعلاقاته مع الغرب والولايات المتحدة بالذات. وكانوا يعتبرونه نافذة عبد الناصر على هذه الدول. وكان يأتى إليه كبار الشخصيات ورجال الإعلام والفكر من دول الغرب الذين يريدون مقابلة عبد الناصر، وكانت الأهرام مركزا مهما للقاءاتهم.

ولكن كما رأيت بنفسى، لم تكن علاقاته مقصورة على الغرب وبل كانت علاقاته

متعددة ومتنوعة. ونظرا لقربه الشديد من عبد الناصر سعى الكثيرون من قارات مختلفة لمقابلته والتعرف على اتجاهات مصر الأساسية من خلاله. كما كان للأستاذ هيكل اتصالات مع السوفيت وسفرائه فى القاهرة وباقى الدول الاشتراكية.

وبهذا تمكن هيكل من أن يجعل من الأهرام أهم ملتقى سياسى وفكرى واجتماعى فى مصر وأصبح من أقرب الأشخاص للرئيس عبد الناصر، بل أقربهم على الإطلاق. وكنت أعتبره الشخص الثانى فى الدولة والأكثر تأثيرا على الرئيس.

جلبت هذه المنزلة الخاصة لهيكل الكثير من الغيرة والحقد. وكان رجال عبد الناصر لايكنون له الكثير من الود. وكان يبادلهم نفس المشاعر أو هكذا كنت أشعر، وفى بعض الأحيان كان هيكل يتعامل مع البعض منهم بشىء من التعالى. وأذكر مرة أن كنا فى منزل المهندس سيد مرعى فى الهرم، وكان السادات موجودا وكذلك الأستاذ يوسف وهبى وغيرهم، ودق جرس التليفون وجاء من يبلغ الحاضرين أنه اتصال تليفونى من الرياسة ! وأسرع هيكل إلى التليفون وذهب وراءه أنور السادات. فما كان من هيكل إلا أن أشار للسادات إشارة تعنى أن هذا التليفون لا يعنيك وخليك مكانك!! وعاد السادات إلى مكانه وكانت الرياسة تقصد هيكل فعلا!! وبدا السادات محرجا ومتضايقا!! ولكنه كعادته دائما استطاع أن يخفى حقيقة مشاعره.

أما هذه المكانة الفريدة للأستاذ هيكل فقد كان لها أثرها فى نفسيته وتضخم لديه الشعور بالذات. فقد حدث أن كان الرئيس عبد الناصر فى زيارة لموسكو ومعه الأستاذ هيكل وطلب هيكل إجراء حديث خاص مع كاسيجين رئيس الوزراء، فرفض ثم طلبت منه أنا شخصيا فرفض أيضا وكلمه الرئيس عبد الناصر ولكن كاسيجين رفض، بحجة أن هذا الإجراء ليس من عاداتهم. وفى المساء أقاموا لنا حفل عشاء ضيقا. وذهبت إلى بريجنيف وقلت له إن الأستاذ هيكل رجل له مكانته المرموقة فى الدولة ولدى عبد الناصر ورجوته أن يراعوا ذلك. فأخذنى من يدى وذهبنا سويا إلى الأستاذ هيكل وكنت أنا المترجم وتبادلا بضع كلمات من المجاملة وسأله بريجنيف عما إذا كان مسرورا من نتائج الزيارة فأجاب بالإيجاب.

وعندما كتب هيكل هذه الواقعة شرح كيف أن بريجنيف سعى إليه ودار بينهما حديث طلب فيه بريجنيف سماع رأى الاستاذ هيكل فى المباحثات... الخ.

عموما هذا لا يقلل من كفاءة الأستاذ هيكل أو مكانته وأعتقد أن أى إنسان وصل

إلى هذه المكانة المميزة لابد أن يتأثر وقد يصل إلى تضخم الذات أو ما هو أكثر من ذلك.

وكان هيكل من أوائل الشخصيات المهمة التى أيدت اختيار السادات، وكان هذا أمرا طبيعيا. فالسادات كان نائب الرئيس الرسمى، ثم إن جميع رجال عبد الناصر المسيطرين على جميع مرافق الدولة كانوا يؤيدونه. ومنذ اللحظة الأولى أصبح هيكل المستشار الرئيسى للسادات وإن فضل أن يكون غير ظاهر كما كان أيام الرئيس عبدالناصر.

وسارت الأمور فى مجراها الطبيعى إلى أن حدث الخلاف بين رجال عبد الناصر وبين السادات حول التوجه العام لسياسة الدولة، وبدا أن هناك صراعا على السلطة بين الطرفين.

ثم تصاعد الخلاف بين الطرفين. وكان السادات يريد أن يتخلص من رجال عبد الناصر حتى لا يكون لهم فضل عليه، وهم الذين أيدوه وساندوه واختاروه خليفة لعبد الناصر، ولولا هذا التأييد لكان من الصعب أن يوطد السادات أقدامه فى الحكم.

وباختصار شديد جاءت أحداث ١٥ مايو التى يعرفها الجميع وتمكن السادات من الانتصار فى هذه المعركة.

كان دور هيكل فى هذه الأحداث محوريا. فقد كان العقل المدبر وراء تطور الأحداث كما سبق أن أشرت. وكان هذا طبيعيا لأن على صبرى ورجال عبد الناصر لم يكونوا فى يوم من الأيام على وفاق معه. وكنت أسمع منهم نقدا لاذعا للأستاذ هيكل وتوجهاته السياسية وفى أحيان كثيرة ناصبوه العداء السافر.

كان هيكل يُطلع السادات - وكانا جارين فى السكن - على كافة المعلومات التى تصله عن نشاط رجال عبد الناصر وتوجهاتهم. وحذره قبل ١٥ مايو من أنه يواجه خطرا محتملا. وبعد نجاح السادات بدأ هيكل فى الاشتراك فى رسم خريطة النظام القادم وبدأ بتغيير الوزارة ورشح الدكتور محمود فوزى رئيسا للوزراء. وأخذ يقدمه للشعب على أنه الرجل العاقل المتزن ذو التجربة الدولية. والحق يقال أن الدكتور فوزى كان اختيارا مناسبا لهذه المرحلة، وركز السادات على تعيين وزراء للدفاع والداخلية والإعلام والمخابرات العامة من رجال يثق بهم.

كذلك كان حول السادات رجال مخلصون له وعملوا معه سنوات طويلة. ويأتى فى

مقدمتهم الأستاذ محمد عبد السلام الزيات الذى عينه السادات نائبا لرئيس الوزراء وهو الذى ذهب إلى وزارة الإعلام وحل محل الأستاذ محمد فائق وسيطر على الإذاعة والتليفزيون.

أما الذى قام بالدور الرئيسى فى أحداث ١٥ مايو فكان اللواء الليثى ناصف قائد الحرس الجمهورى الذى ألقى القبض على كل من كانوا فى السلطة ودوره معروف وكتب فى هذه الأحداث الشيء الكثير كما سبق أن أشرت.

نعود للأستاذ هيكل فكما سبق أن ذكرت أصبح هو المستشار الأول للرئيس السادات. وإذا كان دوره مع الرئيس جمال عبد الناصر معروفا لنا فلابد أن يكون دوره مع السادات أكثر تأثيرا وفاعلية. فكان السادات فى نظر جميع من تعاونوا مع جمال عبد الناصر أقل وزنا وحجما ومكانة دولية واستهان به الجميع وأعترف أنى كنت أحدهم.

وعندما عدت من موسكو لوزارة الخارجية لمست بنفسى ما يتمتع به هيكل من علاقات وثيقة مع السفراء الغربيين والمشرف على رعاية المصالح الأمريكية وكان من المخابرات الأمريكية. فقد كان هؤلاء السفراء يتصلون بى بصفتى وزيرا. وكنت ألاحظ أنهم يشيرون إلى أحاديثهم مع هيكل كمرجعية رئاسية. وأذكر أن أحد كبار هولاء السفراء طلب مقابلتى بعد يومين من مقابلتى مع «يارنج» مبعوث الأمم المتحدة. ودهشت عندما ذكر فى آخر المقابلة هل يعلم «هيكل» ماتم فى حديثك مع «يارنج»؟ فقلت له أظن أنه لا يعلم!! فما كان من السفير إلا أن أبلغ هيكل بما قلته من عدم معرفته. وغضب هيكل وشكانى للرئيس السادات الذى أبلغنى بدوره بغضب هيكل. والحقيقة أننى لم أقصد بتاتا الإساءة إلى هيكل ولكن الموضوع جاء عفوا وتلقائيا.

أما المشرف على رعاية المصالح الأمريكية دونالد برجيس، فقد جاء لمقابلتى عدة مرات. وأعتقد أن الغرض الرئيسى من هذه المقابلات هو تقييم هذا الذى جاء من موسكو بعد ١٠ سنوات من الإقامة فيها. وكان يركز فى أحاديثه على رأيى فى سياسة الولايات المتحدة وكنت أوضح له من جانبى أن بلاده تستطيع أن تلعب دورا أساسيا فى حل قضية النزاع العربى الإسرائيلى، ولكننا مازلنا نشعر أن إسرائيل واللوبى اليهودى لهما تأثير فعال وحاسم بالنسبة للسياسة الأمريكية. وسألته عن علاقته مع هيكل فادعى أنه صديق شخصى له ويتبادل معه الآراء حول حل قضية الشرق الأوسط. وغيرها وكذلك العلاقات بين البلدين... الخ.

وفى إحدى هذه المقابلات فاجأنى المشرف على المصالح بأنه يرى أننى مؤهل لإجراء مباحثات غير مباشرة مع إسرائيل. وعندما أبلغت الرئيس السادات بعد بضعة أيام بأن هناك من يرشحنى لهذا العمل ولم أقل له أنه المشرف على المصالح الأمريكية، رد السادات ردا ضايقنى. فقال أيوه مش قصدك المشرف على المصالح قالها بحدة وغيظ. ورددت عليه بحدة أيضا وقلت على كل حال ياريس من أبلغنى بالترشيح ليس سوفيتيا ولكنه استطاع أن يسيطر على أعصابه ويغير مجرى الموضوع.

وبعد حوالى أسبوع دهشت حين استدعانى السادات ليبلغنى أن هناك اقتراحا من الولايات المتحدة بإجراء محادثات عن قرب مع الإسرائيليين فى نيويورك. وكان حاضرا معه الدكتور محمود فوزى والأخ العزيز حافظ إسماعيل، وذكر أننى المرشح لإجراء هذه المحادثات كما سبق ذكره.

وقبلت أن أقوم بهذه المهمة بالشروط التى ذكرتها وقد ذكر ذلك حافظ إسماعيل فى كتابه. لقد قبلت هذه المهمة وكنت متأكدا من أنها لن تتم لأن الإسرائيليين مصرون على المحادثات المباشرة وأن أمريكا ستخضع فى النهاية للضغط الإسرائيلى. وكان هدفى أن يقتنع السادات بهذا ويخفف من هجومه الحاد على السوفيت فأمامنا معركة تحرير أرضنا ولن يقدم لنا السلاح سواهم وأمريكا مشلولة بالضغط الإسرائيلى.

وكان موقف الأستاذ هيكل هو توجيه النقد لى لقبولى هذه المهمة مع أنه يعلم عن تفاصيلها من السادات، وقد يكون من مصادره الخاصة، وتجاهل الشروط التى وافقت على أساسها وكذلك هدفى من قبولها.

ولا أريد أن استطرد أكثر من ذلك فليس المقصود هو سرد تاريخ الأستاذ هيكل. ولكنى أود أن أختم كلمتى عنه بأنه كان بالنسبة للسادات المستشار الرئيسى له. ولكن يلاحظ أن السادات لم يكلفه بكتابة خطبه أو رسائله. ولم يكن الأستاذ هيكل المُعبر عن فكر أنور السادات بل كان فى عهده يعبر عن فكره هو. وكان للسادات كتابه وأقلامه. ولكن الأستاذ هيكل استمر فى التعامل مع السادات من موقع صانع الملوك والرؤساء. وقد قبل السادات ذلك فى أول الأمر. ولكن بعد حرب أكتوبر وظهور كيسنجر على مسرح العمليات فضل أن يتعامل هو شخصيا معه.

وكان الأستاذ هيكل يعارض أن يقابل السادات كيسنجر مباشرة ومنفردا. واستشاط السادات غضبا عندما علم بذلك وقال كلمته المشهورة «أنا لا أريد أحدا

ينصب نفسه ملقنا على خشبة المسرح».

وانتهت العلاقات بينهما كما هو معروف فى خريف الغضب.

الفصل العاشر

شهدت أحداث الحرب والسلام

بقيت من سبتمبر ١٩٧٢، وحتى إبريل ١٩٧٣، فى بيتى سفيرا بالخارجية بدون عمل، إلى أن فوجئت باستدعاء من الرئيس أنور السادات لمقابلتى. كان هادئا فى هذه المقابلة ودودا، وهو فى الحقيقة شخصية مرحة لطيفة وجلسته جذابة. وقال : هل تعرف لماذا استدعيتك؟ أجبت: لا

قال : استدعيتك لتتوسط فى الخلاف بين العراق والكويت، وتكون ممثلى وممثل مصر فى محاولة إيجاد حل لهذا الخلاف.

وفعلا سافرت إلى العراق وقابلت الرئيس أحمد حسن البكر، ونائبه الرئيس صدام حسين. وتحادثنا طويلا فى موضوع الكويت، ووضعها بالنسبة للعراق وكذلك مع كثير من الأخوة العراقيين. ووجدتهم جميعا يعتبرون الكويت جزءا من العراق، وليس صدام حسين وحده.

وأقول إن جميع الأنظمة التى توالت على العراق منذ الملك فيصل الأول مرورا بنورى السعيد إلى الرئيس صدام حسين جميعها تعتبر الكويت جزءا لا يتجزأ من العراق.

ذهبت بعد ذلك إلى الكويت أحمل رسالة من العراق بأنهم لا يريدون حربا مع الكويت، ولكنهم لا يريدون أن تكون الكويت قاعدة لضرب النظام فى العراق، أو أن تهدد اقتصاده البترولى، كما أنه ينبغى للكويت أن تساعد العراق فى أن يكون له مخرج على الخليج، يسمح له بحرية التنقل، وبأن يشارك فى حماية الخليج. وقال لى الإخوة فى الكويت إننا وقفنا مع العراق عندما أمم البترول، ومددنا له يدنا دائما فى جميع قراراته.

ثم عدت إلى بغداد من الكويت، وسمعت عن الرئيس البكر قوله إن موقف الكويت معهم كان أخويا عندما أمم العراق البترول وهم يؤكدون أن حل الخلافات لابد أن يكون بالطرق السلمية وليس بالقوة العسكرية.

والحقيقة أن هذا الخلاف كان قد اشتعل أيام عبد الكريم قاسم، الذى هدد بالاستيلاء على الكويت، وفى هذا الوقت كانت العداوة محتدمة بين قاسم والرئيس عبد الناصر، فأرسلت مصر غواصتين وبعض القطع الحربية، إلى الكويت لحمايته من أى عدوان يقوم به عبد الكريم قاسم.

تعيينى وزيرا للإعلام

أثناء وجودى فى بغداد سمعت خبر تعيينى وزيرا للإعلام.

وكنت على وشك أن أرسل برقية بالاعتذار، ولكن جاءنى عدد كبير من الصحفيين المصريين الموجودين فى العراق وناقشونى فى هذا القرار وحاولوا إقناعى بالقبول، وفى النهاية رضخت لطلبهم وإن لم أكن مقتنعا برأيهم.

عدت إلى القاهرة، وقابلت الرئيس السادات، وكان الدكتور عبد القادر حاتم معه وكذلك يوسف السباعى الذى عين وزيرا للثقافة، ولم أكن مستريحا لهذا الوضع. فقد كنت أجمع بين وزارة الإعلام ومنصب الرقيب العام، وهو المنصب الذى سُحب منى بعد أربعة أيام فقط، وأُسند إلى د. حاتم. وبناء على ذلك رفضت أن أحضر أى جلسة لمجلس الشعب تخص مناقشة الإعلام، أو تتضمن أى استفسارات عنه.

وحين طلبت منى لجنة الإعلام بمجلس الشعب حضور جلسة لمناقشة الإعلام أحلتهم على الدكتور حاتم لأنه كان وزير الإعلام الفعلى.

السادات يرأس اجتماع حرب

وفى إبريل ١٩٧٣ رأس الرئيس أنور السادات اجتماعا لمجلس الوزراء حضره أيضا كبار المسئولين فى ديوان رئيس الجمهورية وعلى رأسهم السيد حافظ إسماعيل.

وسألنا واحدا واحدا عن رأى كل منا، فيما إذا كان لابد أن نحارب إسرائيل.

وتكلم الوزراء بدرجات متفاوتة عن الحماس للمعركة والتحفظ بشأنها، لكن أحدا لم يبد رأيا ضدها، وسأركز هنا على ماقلته.

فقد قلت : بينما كنت مع خروشوف على السفينة أرمينيا وهى متجهة إلى الإسكندرية فى عام ١٩٦٤، قال لى خروشوف. أنتم فى حاجة إلى السلام، وكذلك الفيتناميون، وعندما يكون وضع دولة عظمى فى الميزان، فعلينا أن نضع فى اعتبارنا حسابات كثيرة، وعلى أى الحالات عليكم العمل من أجل السلام.

وأضفت من جانبى أقول: ياسيادة الرئيس إن أى قوة من القوى العظمى، لن تطلب منك أن تخوض الحرب ضد إسرائيل، هذا القرار هو قرارنا نحن. وعلينا أن نقرر إذا كنا ندخل هذه المعركة أم لا، بصرف النظر عن أى قوة أخرى. وكنت أقصد أن الاتحاد السوفيتى لن يحبذ قيامنا بالمعركة، فهى فى الواقع معركة مصر وإننى أرى أننا

استنفدنا كل الطرق، من خلال استقرائى لكل الجهود التى بُذلت للتفاهم مع الولايات المتحدة، ومع إسرائيل من خلالها، ولا مفر من المعركة، ولا مفر من الانتصار فيها.

كيف ذهبت إلى ليبيا

فى شهر مايو ١٩٧٣ عقد مؤتمر قمة فى الجزائر، وبناء على تعليمات الرئيس السادات تم ضمى إلى عضوية الوفد المرافق، وكان معنا المهندس سيد مرعى، والسيد حافظ إسماعيل وآخرون، وفى الطائرة أخذ الرئيس السادات يستشف آراءنا حول الموقف فى المنطقة، والوضع العربى بشكل عام.

وجاء دورى فقلت : إن منطقة الخليج ستصبح مهمة جدا للاستراتيجية العالمية، لغناها بالبترول، وأنها تحوى ٧٠٪ من احتياطيات النفط فى العالم. ومن المهم أن يكون لنا علاقات وثيقة مع دول المنطقة ولا نفعل ما فعلته ليبيا التى قطعت علاقتها مع دول الخليج. وإذا كنا نريد تدعيم الجناح الشرقى للعالم العربى فعلينا أن يكون هدفنا الأول تدعيم علاقاتنا مع دول الخليج . ولكن فى نفس الوقت لا أستطيع أن أذهب إلى دول الخليج كمصر وحدها بوضعها الاقتصادى الذى انهكته الحروب حتى لا أتعامل معهم من موقف الضعف ، ولابد أن أكون مدعما بليبيا ومعى العقيد معمر القذافى، حتى نستطيع أن نكون فى مركز أقوى، كما أن هذا الوضع يؤهلنى أن أقوم فيما بعد بمهمة الوساطة بين دول الخليج وليبيا لإعادة العلاقات بينهم ومهدئا لثورة ليبيا على هذه الدول بدعوى أنها دول رجعية.

عندئذ ضرب الرئيس السادات المنضدة بقبضة يده وقال: هذه هى السياسة التى أريد تنفيذها.

فما رأيك فيمن يستطيع تنفيذها؟

قلت: هناك كثيرون يستطيعون ذلك.

قال: لا... لا... أنت صاحب الفكرة. أنت الذى ستقوم بالمهمة.

واقترح الرئيس أن أكون وزيرا للوحدة مع ليبيا فى مجلس الوزراء الليبى.

وأوصى الرئيس السادات، كلا من سيد مرعى وحافظ إسماعيل، وكلاهما صديقان عزيزان لى، بأن يقنعانى بقبول هذا المنصب، وعُينت فعلا فيه، بحيث أصبحت عضوا فى مجلس الوزراء فى كل من مصر وليبيا، وعينت ليبيا وزيرا لها فى مجلس الوزراء المصرى، وقرر الرئيس تعيين الدكتور أشرف غربال مسئولا عن الإعلام.

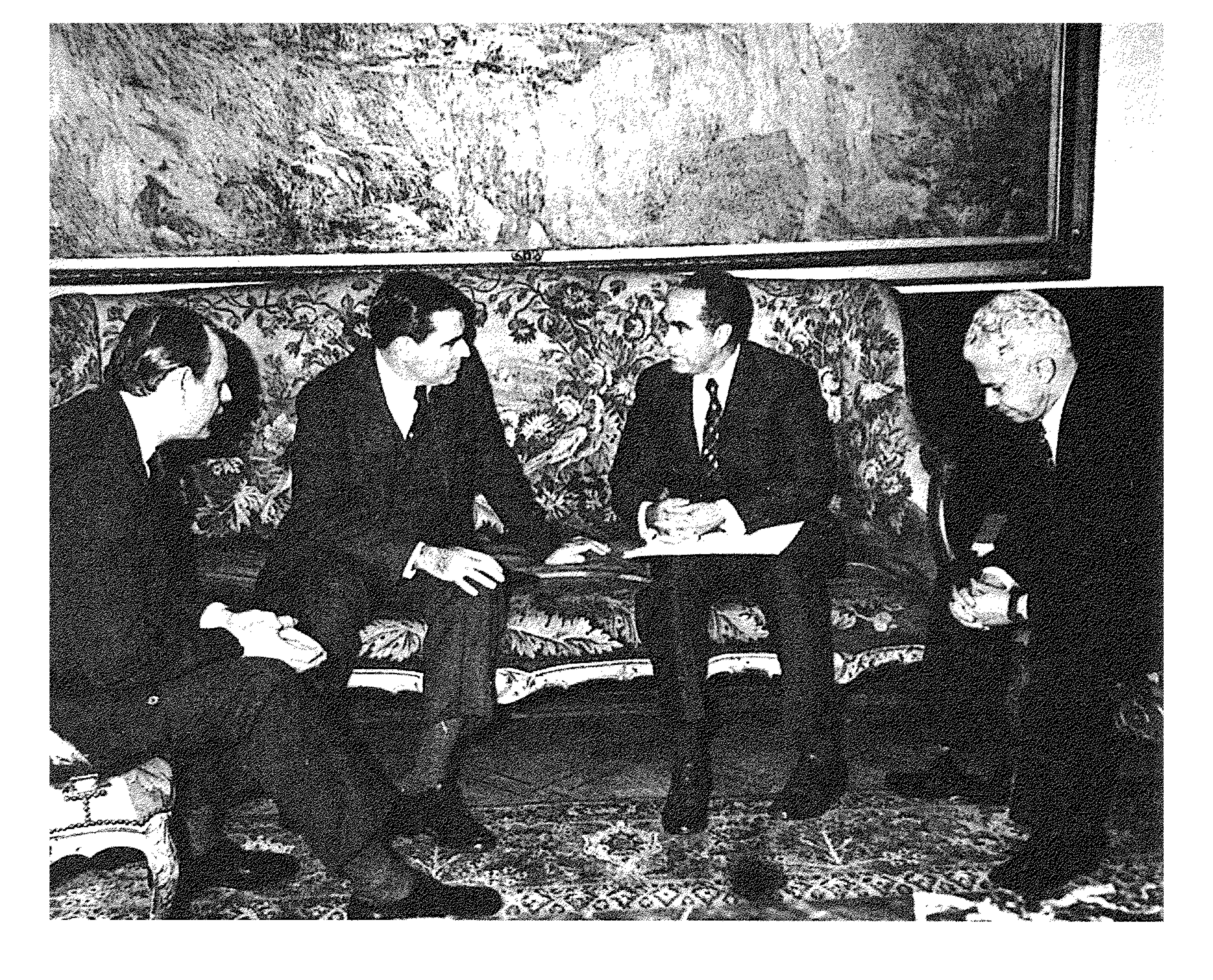
والحقيقة أننى كنت أنظر إلى ليبيا على أنها مكملة لمصر، وأن مصر وليبيا يمكن أن تشكلا كيانا مهما يسيطر على نصف الساحل الجنوبى للبحر المتوسط ومقدمة للمثلث الذهبى بين مصر وليبيا والسودان.

وفى تقديرى أن هذا المثلث يمكن أن يصبح القوة الحقيقية ورأس الحربة للأمة العربية كلها.

ذهبت إلى ليبيا فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣، وكانت الحرب قد بدأت الساعة الثانية بعد الظهر، ولم تكن هناك وسائل للانتقال إلى ليبيا، فأبلغنى زميلى الوزير المختص، أنهم سيقومون بتهريب بعض طائراتنا إلى ليبيا لحمايتها هناك ودعانى للإفطار معه فقد كنا فى رمضان «العاشر منه». وقال وإذا استطعنا أن نحصل على إذن من دفاعاتنا الجوية فستقلع الطائرات من مطارنا الدولى ، وعليك أن تبقى معى لحين تصفية كل هذه الأمور. وأردف قائلا أود أن أنبهك إلى أن هناك احتمالا لضرب هذه الطائرات أثناء طيرانها إلى ليبيا أو حتى وهى واقفة الآن على أرض المطار. ولكنى أصررت على السفر إلى ليبيا هذه الليلة وليكن ما يكون، فهناك رجال لنا يموتون فى هذه اللحظة على ضفاف القناة ولست أحسن منهم. وأقلعت الطائرات بعد فترة ووصلت إلى ليبيا، وكان المسئولون الليبيون فى انتظارى. ووصلتنا أنباء عظيمة عن عبور قواتنا قناة السويس، وفوجئت بموقف القيادة الليبية، التى وصفت هذه الحرب بأنها تمثيلية متفق عليها مع الولايات المتحدة، وأنهم لم يُبَلّغُوا بها مقدما رغم وجود مشروع وحدة بين مصر وليبيا، وأنهم يؤيدون هذه الحرب.

لكن فى الوقت نفسه وقف الإخوة الليبيون موقفا قوميا مشرفا، حين لَبُّوا جميع طلباتنا من أدوية إلى مواد غذائية، وسلع تموينية مهمة للغاية لمصر. وكانت الأرض الليبية معبرا للقوات المسلحة الآتية من تونس والمغرب والجزائر.

كانت تربطنى بالقيادة الليبية صداقات وثيقة، وكانوا يتصرفون معى كأخ لهم، ويزوروننى فى بيتى بلا موعد أو استئذان، وكنت سعيدا بهذه العلاقة، وكثيرا ما كنا نجلس ونتناول الطعام سويا. وكان لدينا فى ليبيا محطة إرسال لاسلكية قوية تمكننا من الاتصال بكل الوزراء فى القاهرة مباشرة للتعرف على طلبات وزاراتهم. وكانت هذه الطلبات تستلزم تلبيتها بسرعة نظرا لظروف الحرب التى استمرت حتى يوم ٢٢ أكتوبر وتصاعدت احتياجاتنا لجميع مرافق الدولة. وكنت ألجأ للإخوة الليبيين الذين كانوا يلبون كافة هذه الطلبات. وحدث أن تدفقت أعداد كبيرة من المصريين على ليبيا أتوا من



مقابلة مع رئيس جمهورية أوروجواى سبتمبر ١٩٧٢

جميع أنحاء العالم يريدون أن يصلوا إلى القاهرة عن طريق البر. وحدثت مشاكل كثيرة مع الإخوة الليبيين فى المطار ومع سائقى السيارات... الخ. وهذا أمر طبيعى ورافق ذلك انتقاد حاد للسلطات الليبية فى مجلس الوزراء المصرى. والحقيقة أن أعداد المصريين كانت كبيرة مما أرهق المسئولين الليبيين سواء فى المطار أو فى وسائل النقل البرى إلى مصر، كذلك كانوا فى حاجة إلى الطعام والراحة من عناء السفر وكان من الصعب توفير كل هذه الطلبات.

ولكن سرعان ما توترت العلاقة بين الرئيس السادات والعقيد القذافى، وترتب على هذا سحبى من ليبيا، وعدت إلى القاهرة وزيرا فى مجلس الوزراء المصرى، دون أن يكون لى اختصاص معين.

بعدها بفترة تحسنت العلاقات مرة ثانية وأصبحت طبيعية، وزار العقيد القذافى مصر، وكنت مرافقا له وحضر اجتماعا كبيرا بمجلس الشعب احتفالا بحرب أكتوبر ٧٣. واشترك فى تقليد القيادات العسكرية المصرية النياشين والأوسمة.

أضواء على حرب أكتوبر ١٩٧٣

كان عبور قواتنا المسلحة لقناة السويس وتغلبنا على الساتر الترابى الذى أقامته إسرائيل فى الجانب الشرقى واقتحام خط « بارليف»، ملحمة عسكرية رائعة وفريدة فى تاريخ الحروب وعلينا أن نفتخر بها وبإنجازاتها.

وكان هذا العمل مصريا صميما فى تجهيزه والتدريب عليه ووضع الخطط. فقد كان السوفيت يرددون أن مصر تحتاج لقنبلة ذرية لاقتحام خط بارليف والساتر الترابى الذى كان بارتفاع عمارة تزيد على خمسة أدوار. وكان بعض العسكريين السوفيت يرون الحل فى عملية برمائية عن طريق شمال خليج السويس لا تستطيع تنفيذها إلا قوة عظمى.

ولكن قواتنا المسلحة نجحت فى عبور قناة السويس بتيارات مياهها العجيبة، واختلاف المد والجزر فى شمالها وجنوبها وشواطئها المرتفعة والمبطنة بالحجر وفتحات «النابالم» الذى كان من المفروض أن تفرش القناة بالنيران. واقتحمت قواتنا الساتر الترابى مستخدمة تجربتنا فى السد العالى بالنسبة لقناة التحويل وبعض تدريبات شاقة على ساتر ترابى مثل الذى أقامه الإسرائيليون والفكر الرائع فى الاستطلاع والتمويه... الخ.

وهنا يجب أن نكون أمناء ونذكر فى هذا المكان ما قام به عبد الناصر ونفذه الفريق محمد فوزى من بناء وتقديم حائط الصواريخ إلى ضفاف القناة ومنع الطيران الإسرائيلى من الاقتراب من منطقة العبور. وقد حاول ذلك مرة واحدة فى بداية الحرب ولكنه منى بخسائر فادحة. ولولا تقديم هذا الحائط لما كان هناك عبور ولما كان من الممكن تنفيذ الخطة المصرية الرائعة التى أصابت العدو بصدمة قاسية وكان على وشك الهزيمة ، لولا أمريكا التى أسرعت بمساعدته.

تساؤلات حول سير العمليات بعد العبور

١- إذا كانت حرب ٧٣ تستهدف تحريك القضية وليس احتلال سيناء أو حتى

المضايق فلم لم نطلب وقف إطلاق النيران والدخول فى مفاوضات فورا بعد أن ثبتت القوات المسلحة المصرية فى مواقعها شرق القناة ؟

٢- لماذا رفضنا يوم ٨ أكتوبر ٧٣ اقتراح أدوارد هيث رئيس وزراء بريطانيا بوقف إطلاق النيران والبدء فى محادثات وكل القوات فى مكانها كما جاء فى الصانداى تيمز بعنوان «النصر الذى فُقد» «Lost Victory» وذلك لأننا لو بدأنا المحادثات وقواتنا شرق قناة السويس وبعد إنزال هزيمة ساحقة بالإسرائيليين لكانت نتائجها غير المحادثات التى مع وجود الثغرة وجيشنا الثالث محاصر من الإسرائيليين... الخ.

٣- إن حشد القوات المسلحة فى جبهة طولها أكثر من ١٢٠ ميلا دون عمق كاف وإمدادات لوجستية تدعمها يجعلها عرضة للاختراق فى أى نقطة، خصوصا أننا لا ننوى تحويلها أبعد من ذلك.

٤- لماذا رفضت القيادة السياسية ضرب مطار العريش. وكان من الواضح والمعروف أنه المركز الرئيسى لنجدة إسرائيل وأن الطائرات الأمريكية العملاقة تهبط فيه بدبابات ومصفحات وطائرات هليكوبتر صائدة الدبابات عن بعد مثل الأباتشى... الخ. إلى درجة أن أول دبابة وقعت فى أيدى جيشنا لم تقطع سوى المسافة بين مطار العريش وغرب القناة حسب عداداتها وهى حوالى ١٨٠ كيلو مترا.

٥- حضر «كاسيجين» رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى ومعه المارشال كوليكوف رئيس أركان القوات السوفيتية يوم ١٦ أكتوبر وقد أطلع كاسيجين الرئيس السادات على صور أُخذت بالأقمار الصناعية للقوات الإسرائيلية وهى تحمل معها معدات لعبور القناة، مما يؤكد أنهم يخططون لذلك. وطلب كوليكوف بضرب مطار العريش وحشد المدفعية المصرية وتسليطها على المنطقة التى بدا وكأنهم يريدون إقامة رأس كوبرى عليها.

وللمرة الثانية يطلب «كاسيجين» من السادات وقف إطلاق النيران وإجراء محادثات فورية لتفويت الفرصة على إسرائيل لإحداث الثغرة وإنقاذ هيبتها ولكنه رفض أيضا.

٦- ولكن أخطر أحداث هذه المرحلة هى الرسالة التى بعث بها السادات إلى «كيسنجر» ثانى يوم المعركة، ٧ أكتوبر٧٣، ليؤكد له فيها أنه لا يريد توسيع العمليات العسكرية شرق القناة وبذلك كشف بنفسه عن الخطة

المصرية وأهداف حرب أكتوبر وأتاح الفرصة كاملة لتخطيط مضاد من إسرائيل وأمريكا لإهدار انتصار حرب أكتوبر العظيم.

والآن كيف نفسر كل ماحدث من تطورات بعد العبور الرائع لقواتنا المسلحة.

قال السادات إنه لم يوافق على ضرب مطار العريش لوقف الإمدادات العسكرية الأمريكية بأطقمها لأنه لا يريد استفزاز أمريكا والمواجهة معها. ولكن معنى ذلك أنه أعطى الفرصة لإسرائيل أن تُحدث أكبر الخسائر بقواتنا المسلحة وتقوم بإحداث الثغرة وتطويق الجيش الثالث والوجود غرب القناة من جنوب الاسماعيلية إلى السويس.

وتحويل الانتصار إلى موقف غاية فى التعقيد وخلق علاقات قوى جديدة حول قناة السويس يسهل لأمريكا أن تكون هى القوة المسيطرة والحاسمة فى الموقف وتصبح أوراق اللعبة فى يد أمريكا كما كان يردد.

كيف نفسر رفض السادات لضرب مطار العريش، ورأس الكوبرى ومبادرة «هيث» ونصائح كاسيجين... الخ.

كذلك فى سؤالنا له عن ضرورة تصفية الجيش الإسرائيلى غرب قناة السويس قال إن أمريكا أنذرت مصر إذا فعلت هذا فإن أمريكا سوف تتدخل.

وفى نظرى أن الثغرة لم تكن عسكرية فقط ولكنها كانت ثغرة سياسية نفذت منها أمريكا لبدء سيطرتها على مقدرات الصراع بل مقدرات المنطقة.

وجدير بالذكر أن «كيسنجر» كان يعتنق مذهب أستاذه فى التاريخ « ميترنيخ» والذى كان يؤمن بخلق علاقات جديدة يحدث فيها توازن قوى، وهذا ما حدث حول قناة السويس. وأعود فأقول إن العبور كان من أعظم العمليات العسكرية فى التاريخ الحديث وإنه فخر لمصر وقواتها المسلحة.

والآن بعد هذه التساؤلات والوقائع التى ذكرتها علينا أن نعطى الجانب الآخر حقه فى الرد عليها. فقد قيل إن «السادات» أنذر كيسنجر بأنه سيصفى الجيب الإسرائيلى الذى نتج عن الثغرة إذ لم تسرع الولايات المتحدة بعلاج هذا الموقف الذى نشأ أساسا من مساعداتها، وقال له السادات إنه يملك الوسائل لتنفيذ ذلك. ولكن من المسئول عن هذه الثغرة وماتبعها.

وقد أخبرنى المشير أحمد إسماعيل، وكنت وزيرا فى مجلس الوزراء، أن خطط تصفية الجيب الإسرائيلى جاهزة ونحن واثقون منها. ولكن أمريكا «كيسنجر» أنذرت

مصر إن هى نفذت ذلك فإن الولايات المتحدة ستتدخل. ولست من أنصار اتهام أنور السادات بالتواطؤ مع أمريكا ولكنه بالقطع كان حسن الظن بها. ويقال إن هناك دولا عربية معينة كانت تؤكد له أن الولايات المتحدة جادة فى الحل وهذا كلام معاد.

لقد كان السادات مستعدا لتصديق ذلك. فقد جاء إلى الحكم وهم يحلم بأن أمريكا ستساعده وتقف بجانبه إذا اتخذ من الإجراءات والخطوات العملية لطرد الوجود السوفيتى وضم مصر إلى المعسكر الأمريكى. وسيطر ذلك على تفكيره بل ونفسيته مما حكم فكره وأعماله وجعله يعطى الفرصة لإسرائيل لاستعادة هيبتها.

وترتب على ثمن اعتماده على أمريكا وأمانيه فى أنها ستحل الموقف بعد العبور، إبلاغها أنه لن يوسع عملياته العسكرية أبعد من العبور، ورفضه ضرب مطار العريش وعدم تنفيذ توصيات المارشال كوليكوف وعدم قبوله وقف اطلاق النيران كما اقترح هيث وكاسيجين. وكان الثمن أن إسرائيل أوقعت بنا أفدح الخسائر وطوقت الجيش الثالث ووجدت فى جيب كبير يمتد من جنوب الاسماعيلية إلى السويس غرب القناة، ودمرت قواعد الصواريخ التى كانت لا تسمح للطيران الإسرائيلى بأن يقترب من منطقة القناة وأضاعت علينا المجد الذى حققناه بالعبور وأصبحنا خاضعين لأمريكا وكان هذا بداية الصلح مع إسرائيل.

الدور الأمريكى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣

لاشك أن الدور الأمريكى يصبح أكثر وضوحا من خلال تحليل مسيرة حرب أكتوبر وما تبعها من جهود دبلوماسية وما كشفت عنه المصادر السوفيتية.

كانت الولايات المتحدة على اتصال وثيق ومباشر بطرفى النزاع. وهذا يقتصر على مصر وإسرائيل فقط ولا ينطبق على سوريا بطبيعة الحال. ويكتب تيودور دراير فى إبريل ١٩٧٥ الآتى:

«فى الواقع لقد أتاحت حرب أكتوبر لوزير الخارجية كيسنجر الفرصة لتقديم نفسه كمنقذ لكل من مصر وإسرائيل. وعندما كان الإسرائيليون فى مأزق كانت المساعدات الأمريكية تتدفق عليهم لكى يتمكنوا من مواصلة المعركة بالحجم الذى يتفق مع مصالحهم».

«وعندما وقع المصريون فى مأزق أتاح الضغط الأمريكى على إسرائيل فرصة منع هزيمة للقوات المسلحة المصرية كانت ستؤدى إلى تحطيمها وتهز نظام السادات.»

هذا القول ليس صحيحا تماما فى كل مفرداته فإن الذى أنقذ القوات المسلحة المصرية كان الاتحاد السوفيتى، وفى هذا يقول كلٌ من السفير السوفيتى والإسرائيلى إيفرون.

يقول السفير السوفيتى:

لقد تجاهلت إسرائيل قرار وقف إطلاق النيران يوم ٢٢ أكتوبر واستمرت قواتها فى التقدم إلى جنوب مدينة السويس. واتصل السادات بالسفير السوفيتى وطلب منه الآتى:

«إننى أطلب منكم وبشكل رسمى أن يرسل الاتحاد السوفيتى اليوم ليلا قوات ومراقبين سوفيت»

وفى نفس الوقت أرسل للولايات المتحدة نفس الطلب. ولكن أمريكا أخذت تناور ولم تجاوب إجابة واضحة. ونفد صبر الرئيس السادات عندما وجد أن إسرائيل مستمرة فى التقدم جنوب السويس وأمريكا لا تعير طلبه اهتماما. فتقدم برجاء للاتحاد السوفيتى للقيام بمفرده بهذا العمل. وهنا أبلغ الاتحاد السوفيتى أمريكا بأنهم جاهزون للتدخل بمفردهم لوقف تدخل إسرائيل. وعندما وجدت الولايات المتحدة أن تهديد السوفيت جاد دعت إسرائيل فورا ورضى كيسنجر تحت الضغط أن تتوقف إسرائيل خلال ١٢ ساعة وكان يطالب بـ ٤٨ ساعة.

وقال «إيفرون» السفير الإسرائيلى للسفير فينوجرادوف : «هل فهم المصريون أن الاتحاد السوفيتى هو الذى انقذهم فعلا من الهزيمة فى الأيام الأخيرة من حرب أكتوبر».

أضواء على الثغرة فى حرب أكتوبر

بعد أن نجحت سوريا فى استرداد كل أراضيها بعد معركة دامية غاية فى العنف، استطاعت إسرائيل بفضل الإمدادات الأمريكية المتدفقة من كافة قواعدها فى حلف الأطلنطى وبأحدث أنواع الأسلحة من دبابات وطائرات هليكوبتر بصواريخها النافذة للدروع، أن تصد الهجوم السورى وتعيد احتلال مرتفعات الجولان والأراضى التى انسحبت منها. ولم تتوقف إلا بعد إنذار سوفيتى منع بعض قادتها من التفكير فى احتلال دمشق.

كان الضغط على سوريا هائلا ولكن الرئيس السادات لم يهتم به فى أول الأمر، ولكن بناء على إلحاح من سوريا قام بهجوم غرب القناة استخدم فيه الاحتياطى المتبقى

لحماية العمق. وللأسف كان هذا قرارا سياسيا خاطئا، فلم تستفد منه سوريا وأوقعت بنا خسائر تزيد أكثر بكثير على خسائرنا فى معركة العبور العظيمة.

وكانت إسرائيل وأمريكا تنتظران هذا الخطأ الفادح. وهنا قرر الإسرائيليون تنفيذ الثغرة. وقال موشى ديان لـ «شارون»، الذى عُين قائدا لجبهة قناة السويس تفضل بالهجوم فالمعركة أصبحت مضمونة ولقد ولدتك أمك وفى فمك ملعقة من الذهب. وفى ١٦ أكتوبر تمكنت ٥ أو ٦ دبابات إسرائيلية من العبور إلى الضفة الغربية.

والغريب أن قبل هذا الحدث وجَّه المستشارون السوفيت بعض الملاحظات عن وضع قواتنا المسلحة فى الضفة الغربية ووجود ثغرات ملحوظة وواضحة بين أجنحة القوات المصرية. وقد وصف السادات الخرق الذى حدث بالدبابات الإسرائيلية الخمس أو الست بأنه لا يتعدى أن يكون «مناورة سياسية». فى نفس الليلة ١٦ أكتوبر وصل كاسيجين رئيس الوزراء السوفيتى كما سبق ذكره، وسأله كاسيجين عن اختراق الدبابات الإسرائيلية فأجاب بعناد أنه لا يوجد أى شىء يدعو للقلق بالنسبة لسير العمليات العسكرية. وكرر أن الاختراق ما هو إلاَّ «مناورة سياسية» وعُلم فيما بعد أنه أمر قواتنا المسلحة بألا تتخذ أى إجراء ضد هذه الدبابات!!

طلب السادات من كاسيجين ضمانات إذا ما طورت إسرائيل عملياتها ووسعتها كما صرح بأنه مستعد لوقف إطلاق النيران إذا أعلنت إسرائيل تنفيذها لقرار مجلس الأمن ٢٤٢ وانسحبت من جميع الأراضى العربية المحتلة.

ثم زاد عدد الدبابات الإسرائيلية إلى أكثر من ١٥٠ دبابة وتطورت الأمور كما هو معروف وسبق ذكره.

هذا وقد أطلعه «كاسيجين» على صور مأخوذة بالأقمار الصناعية تبين بوضوح مصاحبة القوات الإسرائيلية لمعدات عبور خاصة بها لتوسيع رأس جسرها.

وبعد كل هذه المعلومات وازدياد حجم الدبابات الإسرائيلية المتدفقة وتوسيع رأس الكوبرى سُئل السادات عن هذه التطورات الخطيرة الجديدة، فأجاب « أن ما حدث لا يشكل تهديدا عسكريا إلا أنه يعتبره مهما من الناحية السياسية !! وعلى الأصدقاء السوفيت أن يهدأوا ولا يكونوا قلقين».

وتطورت الأمور كما هو معروف وطفقت أمريكا تستعمل الخداع والتمويه وعدم الرد على استغاثة السادات ردا واضحا إلى أن طلب التدخل السوفيتى منفردا كما سبق ذكره.

سفيرا فى يوجوسلافيا

بقيت فى القاهرة بعد العودة من ليبيا، إلى أن قرر الرئيس السادات تعيينى سفيرا فى يوجوسلافيا عام ١٩٧٤، وفى نفس الوقت عين السيد حافظ إسماعيل سفيرا فى الاتحاد السوفيتى، وصدرت لى أوامر بأن أتحرك فى وسط أوروبا أيضا، ولم يكن لدى ميل لهذا لأن لى زملاء سفراء موجودين فى هذه الدول.

تسلمت عملى بين أصدقاء كثيرين من اليوجوسلاف، فقد استقبلنى من قبل الرئيس تيتو أثناء زيارة لى وكنت وزيرا للخارجية، وقابلته فى زياراته المختلفة لمصر، كما رافقت الرئيس عبد الناصر فى بعض زياراته ليوجوسلافيا. فنشأت علاقات طيبة لى مع اليوجوسلاف، وقبل تعيينى كان الرئيس السادات قد التقى بالرئيس تيتو وقال له: سأرسل لك سفيرا صديقا لكم.

فى عام ١٩٧٥، زار الرئيس السادات يوجوسلافيا، وكانت علاقتنا بالسوفيت فى أسوأ حالاتها. وفى جلسة المباحثات بينه وبين تيتو، أراد الرئيس اليوجوسلافى أن يوضح ما يراه السياسة المثلى فى العلاقات الدولية، وفى تناول المشكلات مع الدولتين الكبيرتين، فقال له: نحن لنا علاقات طيبة مع الولايات المتحدة. كما أن لنا علاقات طيبة مع الاتحاد السوفيتى، ونحن نعلم جيدا أن السوفيت حاولوا أن ينشئوا فى يوجوسلافيا تنظيما سياسيا شيوعيا سريا، إلى درجة أنهم عينوا أعضاء اللجنة المركزية لهذا التنظيم وأن سفيرك د. غالب يعرف هذا جيدا.

ومع ذلك فنحن نقول إن علاقتنا مع السوفيت طيبة جدا (وكنت أعرف من وزير الدفاع اليوجوسلافى أن معظم أسلحتهم من الاتحاد السوفيتى وأنهم يطورون الكثير منها، فضلا عن تطوير صناعاتهم العسكرية، والتى تنتج صواريخ مضادة للدبابات والطائرات).

لكن العلاقات بين مصر ويوجوسلافيا لم تعد ممزوجة بالحب والحماس مثلما كانت أيام الرئيس عبد الناصر، لاختلاف اليوجوسلاف مع الرئيس السادات فى سياساته. فقد أدركوا أنه رسم سياساته على أساس الوفاق التام مع الولايات المتحدة حتى قبل أن يأتى إلى الحكم. وفى اعتقادى أنه فعل هذا لأنه كان يعتقد أن فى هذا مصلحة لمصر، وأن الأمريكان هم الأقوى والمؤهلون لحل القضية مع إسرائيل لنفوذهم الكبير عليها، وإن تغاضى عن النفوذ اليهودى على الولايات المتحدة.

اتفاق سوفيتى أمريكى للحل

وفى أول أكتوبر ١٩٧٧ نجح الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة فى الاتفاق حول مشروع لحل قضية النزاع العربى الإسرائيلى، وكان مشروعا متوازنا يراعى مصالح جميع الأطراف . وكان من ضمن المشروع فقرات خاصة بالفلسطينيين مفادها أن الفلسطينيين لهم الحق فى وطن Home Land وأنه لابد من تحقيق الحقوق المشروعة للفلسطينيين وأن يشاركوا فى أية مفاوضات قادمة. وفى الحال طار موشى ديان وزير خارجية إسرائيل إلى واشنطون وقابل الرئيس كارتر وضغط ومعه اللوبى اليهودى عليه ثم قام ١٥٠ عضوا من رجال الكونجرس بإرسال خطاب إلى الرئيس كارتر وقعوه جميعا وانتقدوا فيه الاتفاق مع السوفيت.

فتراجعت الولايات المتحدة عن موقفها وأعلنت رفضها للاتفاق وأرسل كارتر خطابه الشهير بخط يده إلى الرئيس السادات يبلغه فيه أنه استنفد كل جهوده وطالب الرئيس السادات أن يتحرك.

وافق الفلسطينيون فى الحال على اتفاق أول أكتوبر ولكن للأسف تراجعت عنه الولايات المتحدة كما سبق ذكره، أما مصر فقد تلكأت فى قبوله.

ولكن لماذا تلكأت مصر وما هى الأسباب والدوافع؟؟

الحقيقة أن الرئيس السادات كان قد تحرك منذ يوليو ١٩٧٧ فى اتجاه آخر. ففى هذا الشهر وصلت معلومات إلى « بيجين» من المخابرات الإسرائيلية أن ليبيا تخطط لاغتيال الرئيس السادات. ولأول مرة يرسل بيجين رجل مخابراته إلى المغرب فى زيارة سرية ليبلغ نظيره المصرى بذلك. وكانت العادة أن ترسل إسرائيل هذه المعلومات مباشرة إلى أمريكا وأمريكا تبلغها لمصر.

أما ما نتج عن إبلاغ السادات بخطة ليبيا لاغتياله، فهو هجوم القوات المسلحة على شرق ليبيا وتحطيم طائراتها ودفاعاتها الجوية. ولجأت ليبيا إلى دول عدم الانحياز واحتجت يوجوسلافيا على هذا الهجوم. ودعانى نائب وزير الخارجية اليوجوسلافى وأبلغنى هذا الاحتجاج وقال إن ما حدث هو هجوم سافر على دولة من دول عدم الانحياز.

وظلت الاتصالات مستمرة بين مصر وإسرائيل طوال شهر يوليو إلى أن تقابل

موشى ديان فى المغرب مع السيد حسن التهامى فى شهر سبتمبر ١٩٧٧ لترتيب زيارة السادات.

أما الرئيس السادات فقد رتب رحلة إلى كل من يوجوسلافيا ورومانيا، ولم تتم رحلة يوجوسلافيا، أما زيارته لتشاوتشيسكو فقد تمت وصرح بعدها بأن تشاوتشيسكو أقنعه بأن بيجين رجل سلام وسيعمل من أجل ذلك.

وفى ٨ نوفمبر ١٩٧٧ صرح السادات فى مجلس الشعب أنه على استعداد للذهاب للكنيست الإسرائيلى نفسه لمناقشة قضية السلام.

وفى ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ وصلت طائرة السادات إلى مطار بن جوريون واستُقبل استقبالا حافلا.

الاستقالة

وصعقنا لهذا الخبر. وجهزت استقالتى من منصبى، لكنى لم أعلنها فى أول يوم، وانتظرت يومين قبل إرسالها إلى القاهرة. لأننى تصورت أن السادات قد أقدم بهذه الخطوة على عمل سيصيب العالم كله بهزة شديدة، ويصيب منزلته هو أيضا بهزة مماثلة، وأنه لكى يفعل هذا فلابد أنه كان قد توصل مسبقا إلى اتفاق مع إسرائيل لإزالة آثار العدوان الذى وقع فى عام ١٩٦٧، وأن ذهابه إلى إسرائيل هو لوضع اللمسات الأخيرة على الاتفاق.

لكننى وجدت أن هذا كله كان محض خيال واتضح أننا سنبدأ المحادثات بعد هذه الزيارة. ودعا السادات إلى مؤتمر فى ميناهاوس بمصر، ورفعت أعلام فلسطين والأردن وسوريا، وأدركت ما سيحدث فى مفاوضات تبدأ مع إسرائيل المشهورة بالتعنت والمناورة وعدم الجدية فى السلام، وهنا أرسلت الاستقالة ببرقية مفتوحة وطويلة شرحت فيها كيف أننى لم أعد أستطيع أن أمثله سفيرا.

كان هناك من يظن أننى سألجأ إلى ليبيا أو أى دولة أخرى، وملأوا مصر بالشائعات بهذا المعنى، لكننى صرحت بأننى سأعود إلى القاهرة، فأمر السادات بالقبض على بمجرد نزولى من الطائرة.

ولكن السيد ممدوح سالم أقنعه بأن ذلك سيجعل منى بطلا، وأن الأفضل أن تدعه يأتى إلى مصر، ويسدل الستار على من يسمى مراد غالب.

وعدت إلى القاهرة، ولم يقبض على، وتم اسدال الستار فعلا على.

وهنا، أود أن أوضح هذه الحقائق:

أولا: يجب أن أذكر أن قرار السادات بزيارة إسرائيل كان قرارا شجاعا فى حد ذاته، فقد كان ضد الإجماع وضد التيار الجارف فى العالم العربى. وأحدثت زيارته زلزالا ليس فقط فى مصر والعالم العربى، لكن فى العالم ككل، بصرف النظر عن تأييده أو معارضته، ولقد تعرضت شخصيا لتساؤلات كثيرة وسئلت عما إذا كنت الآن نادما على هذه الاستقالة وأننى كنت مخطأ فى تقديرى، وأن الرئيس السادات كان بعيد النظر والرؤيا؟ وأود أن أقول مبدئيا أننا لن نستطيع الآن فى سنة ٢٠٠١ أن نحكم على موقف حدث عام ٧٧. فقد تغير العالم تغييرا كاد يكون كليا. فقد انهار الاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى وانهار معه النظام الدولى ثنائى القطبية، وجاء نظام تحكمه فى الواقع أمريكا، واكتسحت الثورة العلمية والتكنولوجية وثورة الاتصالات والمعلومات العالم وهزته بعنف. كما أن العالم العربى غرق فى إقليميته وقطريته وانحسر إلى حد كبير زخم وحركة القومية العربية إلى آخره من المتغيرات.

ثانيا : لابد أن نسلط الأضواء على الاستراتيجية الإسرائيلية والتى كانت ترمى دائما إلى عزل مصر، عن عالمها العربى، أو على الأقل تحييدها وشل فاعليتها من الناحية العسكرية بالنسبة لإسرائيل، حتى لا تستطيع أن تشن حرب عليها أو تشارك فى هجوم جماعى مع دول عربية أخرى. وقد تكفلت كامب ديفيد بتنفيذ ذلك على الأرض «أرض سيناء».

ثالثا : أن اسرائيل والعالم يعرف أنه لن تقوم حرب ضد إسرائيل دون مصر كذلك لن يقوم سلام حقيقى إلا باقتناع مصر.

وأنه إذا حيدت مصر فلن تحارب دولة عربية أخرى.

وإذا رصدنا ما حدث فى العالم العربى بعد أن حيدت مصر، نجد أن إسرائيل (بيجين) أعلنت الآتى بعد كامب ديفيد :

١ـ ضم الضفة الغربية وقطاع غزة وسماها يهودا والسامرا.

وإعلان أن القدس العربية والقدس الموحدة عاصمة إسرائيل .

٢- الإسراع ببناء المستوطنات فى الضفة والقطاع وتمزيقهما بالطرق الموصلة للمستوطنات ومراكز الرقابة والتفتيش.

٣- تدمير المفاعل الذرى العراقى «أزوريك».

٤- ضم مرتفعات الجولان إلى إسرائيل، وهذا يعنى مصادرة المياه من المرتفعات السورية واللبنانية.

٥- وأخيرا غزو لبنان وبيروت وطرد الفلسطينيين منهما.

أما تحييد مصر فقد تكفلت به كامب ديفيد، كما ذكر من قبل بمنع القوات المسلحة المصرية من الوجود فى سيناء، إلا فى أضيق الحدود فى غربها فقط. أما الأجزاء الأخرى من سيناء فهى منزوعة السلاح، وكذلك وجدت القوات الأمريكية أساسا وغيرها فى سيناء.

وهناك من يقول لو أن الفلسطينيين والعرب كانوا قد حضروا اجتماع ميناهاوس، لأخذت المسألة وضعا آخر. والحقيقة أن بيجين «إسرائيل» أصر على أنه لن يحضر الاجتماع إلا إذا أزيلت الأعلام العربية وخصوصا علم فلسطين فلم يكن يعترف بهم ويصفهم دائما بالإرهابيين، ولكن لا شك أنه من الناحية السياسية فقد أخطأ العرب والفلسطينيون. فلو كانوا قد حضروا لفشل الاجتماع لأن اسرائيل لن تقبل الجلوس مع منظمة التحرير الفلسطينية، ولكن راهن السادات وبيجين على عدم حضورهم وهذا صحيح.

الحقيقة أن المساجلة بين وجهات النظر المؤيدة والمعارضة لزيارة السادات للقدس وكامب ديفيد هى مساجلة بين اتجاهين أساسيين : أولا الاتجاه القطرى ويعنى أن كل دولة تتصرف حسب مصالحها الخاصة والقطرية، والاتجاه القومى فى ظل وحدة الصف العربى.

ولقد انقسم الشعب فى مصر حول مؤيد ومعارض لهذه الخطوة المفاجئة بين اتجاهين رئيسيين:

١- اتجاه قطرى ينادى بأن مصلحة مصر أولا وأن انسحاب إسرائيل من كل سيناء

هو الهدف الوطنى الذى يعلو فوق كل الأهداف والمصالح.

٢ـ الاتجاه القومى العربى والذى يرى أن مجابهة إسرائيل فى ظل وحدة الصف العربى واستمرار تدعيم الجبهات العربية الثلاث سوريا ومصر والأردن هو الطريق الأفضل والأصح والأضمن للمحافظة على مصالح الأمة العربية وضمان تحرير الأرض العربية التى تم احتلالها أثناء حرب ٦٧.

الاتجاه القطرى فى مصر: «مصر أولا»

كان الاتجاه القطرى شعار «مصر أولا» يحظى بتأييد قطاع ملحوظ من الشعب المصرى ولم يكن محصورا بين بعض المثقفين. كذلك كانت تسانده الطبقات الجديدة التى تكونت أثناء حكم السادات وأرست لنفسها مصالح قوية وجنت ثروات هائلة.

كما كان السادات بارعا فى استنهاض الشعب لتأييد هذه الخطوة بالضرب على وتر أن الرخاء على الأبواب والمساعدات ستتدفق على مصر، وسيتحول إنفاق التسليح إلى تنمية شاملة للشعب المصرى الذى أنهكته الحروب ومن بينها حرب اليمن.

أما التأييد العربى والمشاركة العربية فى الحروب فكانت موضع شك كبير وتثير الإحباط واليأس. وكان قطاع كبير من الشعب يردد أن العرب يريدون الحرب لآخر جندى مصرى!! هذا وكانت الخيانة التى حدثت فى أول حرب مع إسرائيل ١٩٤٨ لاتزال ماثلة أمامهم.

وكان السادات قد حاول قبل ذهابه للقدس أن يحصل على مساعدات من العرب. فقد كان الوضع الاقتصادى المصرى بعد حرب ١٩٧٣ فى الحضيض، وأرسل وفودا على مستوى عال كان يرأس بعضها رجال بارزون مثل المهندس سيد مرعى والدكتور مصطفى خليل، ولكنها لم تعد إلا بوعود هلامية لا تنفذ. والأدهى أن بعضها اشترط شروطا مهينة مثل تسليم المساعدات إلى الشركات التى ستتولى المشاريع مباشرة وليس للدولة بدعوى تفشى الفساد.

أما سلوك العرب بعد الزيارة والتى كنا نعتقد أنهم أصيبوا بصدمة هائلة وأنهم ولاشك سيسارعون بتكوين جبهة جديدة ـ تعوض خروج مصر ـ مكونة من العراق وسوريا وفلسطين وتساندها الدائرة العربية كلها من الخليج إلى المحيط، فقد اكتفوا بالكلام والصياح والثورة الإعلامية. ولم تتمخض ثورتهم إلا عن مؤتمر هزيل فى بغداد،

مؤتمر الصمود والتصدى، والذى اكتفى بطرد مصر من الجامعة العربية ونقل الجامعة إلى تونس، واستقال السيد محمود رياض أمين عام الجامعة. واستمرت الحملة على السادات ومصر ووصفوها بالخيانة وهدم التضامن والوحدة العربية ومعاداة القومية.

ولقد ساند اتجاه السادات فى مصر الكثير من العاملين المصريين الذين كانوا يعملون فى دول الجزيرة العربية والخليج وتعرضوا للكثير من المهانة والاستعلاء والتمييز مما ولد فيهم الشعور المضاد للعرب.

أما الاتجاه القومى، وكان يحظى بالأكثرية فى مصر خصوصا بين المثقفين، وكان اقتناعه السياسى والفكرى يعتمد على الآتى:

١- أن الاستراتيجية الإسرائيلية هدفها الرئيسى عزل مصر بصلح منفرد. ومعروف أن خروج مصر من الجبهة العربية يعنى أنه لن تكون هناك حروب مع إسرائيل فلا يمكن أن تقوم حرب دون مصر ولاسلام دون مصر. وهكذا حققت كامب ديفيد الحلم الإسرائيلى بعزل مصر.

٢- أن إسرائيل ستنفرد بالعرب بعد خروج مصر وتحقق أهدافها الاستراتيجية وتعربد فى المنطقة كما تريد.

واتخذت إسرائيل قرارا بغزو لبنان فى يونيو ١٩٨٢، وقام شارون بتنفيذ هذا الغزو وكان يسانده الكسندر هيج وزير الخارجية الأمريكى وكان يرمى إلى:

ا - إنهاء الوجود الفلسطينى قيادة وشعبا فى لبنان ليتخلص كما كان يتصور من اعتداءاتهم واستعداء الشعب اللبنانى عليهم.

ب - إقامة حكومة يحكمها الأقلية المارونية المتعصبة والتى كانت تشكل الجناح الإرهابى المتطرف بين المارونيين.

جـ - كان موشى ديان يقول « نحن نريد ضابطا لبنانيا ولو صغيرا من غلاة المارونيين يقوم بانقلاب ويطلب مساعدة إسرائيل ثم تصبح لبنان تحت سيطرتنا » وقد وجدوه فى شخص سعد حداد.

وبعد تأمين إسرائيل لغزوها لبنان أسرعت بتشكيل حكومة برئاسة بشير الجميل، وكان مارونيا من الجناح الحاقد المتعطش للدماء، ووقعت بمساعدة الإسرائيليين مذابح صبرا وشاتيلا، وكان الإسرائيليون يضيئون المكان بأنوارهم الكشافة ليلا لسرعة

إنجاز هذه المذبحة الكبرى ضد الفلسطينيين العزل فى هذه المخيمات وقتل من فيها من رجال ونساء وأطفال وعجائز حتى تكون عبرة وتحذيرا لكل من يعارض إسرائيل.

وقام تحالف استراتيجى بين إسرائيل والعناصر المارونية أحكم السيطرة على لبنان ووضعه تحت الحماية الإسرائيلية.

ولكن فشلت هذه الحملة على لبنان وأصيب بيجين بأزمة نفسية حادة قضت عليه فى النهاية. وأسرعت أمريكا بالانسحاب من لبنان بعد عملية فدائية قتل فيها ٢٠٠ جندى أمريكى.

أمن مصر: أين يبدأ

نعود مرة ثانية إلى الاتجاه القومى لنطرح تساؤلا مهما وهو « أين يبدأ أمن مصر؟» هل يبدأ داخل حدودها؟ أو فى مناطق حولها وقبلها والتى تشكل الخط الأول للدفاع عنها ؟ أى أن المشرق العربى الذى تركناه لعربدة إسرائيل هو خطنا الدفاعى والاستراتيجى الأول وقد سلمناه لقمة سائغة لها.

يرد القِطريون «مصر أولا»، أن مصر المتحررة من الاحتلال الإسرائيلى أقدر على حفظ مصالحها وأمنها من مصر المحتلة. وقد يبدو هذا منطقيا ولكن الحقيقة أن مصر بعد تقييد وجودها العسكرى فى سيناء، وتوقيعها اتفاقية كامب ديفيد بالتزاماتها الواجبة التنفيذ ليست لها الحرية فى تناول ما يحدث فى المشرق العربى؟ وأنا هنا لا أوافق على اشتراك مصر فى حرب شاملة مع إسرائيل ولكن فى نفس الوقت يجب ألا استبعدها كلية.

لكنى أعترف بأنى أصبت بخيبة أمل كبيرة من السلوك العربى بعد كامب ديفيد ولجوئهم إلى الصياح والاتهامات بالخيانة والألفاظ الفخمة الضخمة التى اكتفوا بها دون عمل فعال وتكوين جبهة بديلة لمصر، والوقوف بحزم ضد إسرائيل والمساندة الأمريكية لها فى استمرار احتلالها الأرض العربية وزيادة المساعدة الأمريكية عسكريا وماديا وتشجيع إسرائيل على بناء المستوطنات... الخ.

ومما كشف الشلل العربى استهتاره بالمصالح الحيوية العربية، السلوك الشائن بالنسبة للانتفاضة الفلسطينية، بل أقول حرب التحرير التى يقوم بها الفلسطينيون الآن تحت حصار إسرائيلى يدمر البشر نساء وأطفالا، ويدمر مزارعه وقوته ومأواه وسكنه

وبنيته التحتية بل ويسعى إلى تدميره نفسيا وتدمير مستقبل حياته. ويتلكأ العرب فى مساعدتهم ويعدون بالبلايين ثم يضعون لصرفها شروطا تنفى فائدتها العاجلة وتلغى أهدافها وتترك الشعب الفلسطينى البطل وحيدا يواجه مصيره المؤلم.

الفصل الحادى عشر

مؤسسة الرئاسة في عهد السادات

عهد السادات فى نظرى بعد ١٥ مايو ١٩٧١. فقبل ذلك كانت الرئاسة تعمل **يبدأ** بالشكل الذى أقام نظامه جمال عبد الناصر ورجاله ، بل إن الرئيس السادات بعد توليه أصدر قرارات بترقية سامى شرف ليكون وزيرا لشئون الرياسة، وإن ظل مسئولا عن المعلومات، كما عين على صبرى نائبا لرئيس الجمهورية وعبد المحسن أبو النور أمينا عاما للاتحاد الاشتراكى وظل كل وزراء عبد الناصر فى أماكنهم.

وبعد ١٥ مايو أصبح الاستاذ فوزى عبد الحافظ سكرتيره الخاص الذى يعرض عليه جميع التقارير التى تأتى من مختلف المصادر. وأصبح الفريق محمد صادق قائدا عاما للقوات المسلحة ووزيرا للدفاع والسيد ممدوح سالم وزيرا للداخلية، وعين حافظ إسماعيل رئيسا للمخابرات والمهندس سيد مرعى أمينا عاما للاتحاد الاشتراكى. ولعب العميد طه زكى دورا مهما عندما سلم جميع الأشرطة المسجلة على مكالمات رجال عبد الناصر للرئيس السادات. ثم عين السادات الدكتور عزيز صدقى رئيسا للوزراء بعد وزارة الدكتور محمود فوزى، والمهندس سيد مرعى أمينا عاما للاتحاد الاشتراكى. ولكن لم تأخذ مؤسسة الرئاسة شكلها التنظيمى السليم إلا بعد تعيين حافظ إسماعيل رئيسا لديوان رئيس الجمهورية.

عينت وزيرا للخارجية فى وزارة الدكتور عزيز صدقى وكان فى الوزارة من زملائى الدكتور فؤاد مرسى والدكتور إسماعيل صبرى عبد الله وكان ثلاثتنا محسوبين على اليسار. وقد زارنى سفير تشيكوسلوفاكيا متحمسا معتقدا أن الوزارة يسارية وتميل إلى المعسكر الاشتراكى، خاصة أن الدكتور عزيز تربطه صلات طيبة مع الاتحاد السوفيتى بحكم عملية التصنيع الكبيرة التى أشرف عليها ، ولكنه لم يكن محسوبا على اليسار.

تعجبت لسذاجة السفير التشيكى ، وقابلت كلامه ببرود ودون حماس لأنى أعلم جيدا توجهات الرئيس السادات ، وهى أساسا تميل نحو الولايات المتحدة وكل ما يريده من السوفيت هو السلاح الذى لا يمكن أن تزوده به أمريكا. وكان دورنا بالنسبة له نحن الثلاثة فؤاد مرسى وإسماعيل صبرى وأنا هو مغازلة الاتحاد السوفيتى، فكان

يظن أن سياسة الدول العظمى إنما تعتمد على أشخاص فى دولة ما وليس على مجمل سياسة الدولة.

ثم شُكلت لجنة من حافظ إسماعيل رئيس الديوان والمشير أحمد إسماعيل رئيس المخابرات العامة والفريق محمد صادق وأنا، وكنا نجتمع بشكل دورى لمناقشة تطورات الموقف العسكرى والسياسى والموقف الدولى بشكل عام، وموقف الاتحاد السوفيتى وأمريكا بشكل خاص.

كان محمد صادق مثار تعليقات منا نحن الثلاثة الباقين، فلم يكن مقنعا فى عرضه لتطورات الموقف العسكرى. وفجأة سحبه السادات من هذه اللجنة وأظن أنه شكا من تعاملنا معه.

أما حافظ إسماعيل فأخذ ينظم ديوان الرئاسة كما هو معروف عنه من الدقة وحسن الإدارة وملكة التنظيم، واستعان بمجموعة من خيرة الدبلوماسيين فى وزارة الخارجية وكذلك من مراكز أخرى. وأخذ ديوان الرئاسة يلعب دورا مهما فى رسم السياسة العامة للدولة واكتسب مصداقية وثقة.

وظلت المخابرات العامة كأحد المراكز الرئيسية فى الدولة. والحقيقة أن تعاملى مع جهاز المخابرات برئاسة المشير أحمد إسماعيل كان إيجابيا للغاية، وكنت أطلب منه الكثير من التقارير. كانت ميزة هذا الجهاز الكبيرة هى أن القائمين على فروعه المختلفة (إفريقيا - الدول العربية - القضايا الاقتصادية - الأمم المتحدة... الخ) ثابتون لا تنالهم حركة تنقلات، فكانوا حقيقة على معرفة متعمقة فى دائرة اختصاصهم.

وكانت الوزارة برئاسة الدكتور عزيز صدقى تعمل بشكل جماعى، وكان هو الذى يعرض على السادات قرارات الوزارة، ولكن هذا لم يكن يعنى أن السادات لم يكن يتصل بالوزراء. فقد كان من وقت لآخر يستدعيهم لمناقشة شخصية وأحيانا يتلقون منه توجيهات معينة، خصوصا ما يتعلق بالقروض والصفقات وسير عمليات البحث عن البترول... الخ.

ولكنه كان يعتبر أن وزارة الداخلية لها وضع خاص كأنها تتبعه شخصيا. وعندما قامت مظاهرات الجامعة، وكان أغلب المشاركين فيها من الناصريين والشيوعيين، أطلق ضدهم أعضاء الجماعات الدينية الذين تسلحوا بالسلاسل والسنج. ورغم تحذير ممدوح سالم له بأن اللعب بالورقة الدينية لعبة خطيرة ومن الصعب السيطرة عليها مستقبلا، فإنه لم يستمع إليه. وكانت بعض الدول العربية تمول الحملة ضد الناصريين والشيوعيين وتشجع السادات على ذلك.

كذلك كانت وزارة الدفاع والقائد العام الفريق محمد صادق يتبعان السادات مباشرة. وهنا لابد أن نشير إلى إنه كان من الطبيعى أن يحدث احتكاك وكراهية بالنسبة لأى مستشارين عسكريين أجانب لأى قوات مسلحة.

وعندما جاء الخبراء والمستشارون السوفيت استقبلتهم قواتنا المسلحة استقبالا حسنا. فقد كنا قد خرجنا توا من هزيمة مهينة وكان وجودهم على مستوى الكتيبة. وحدثت فى أوائل وجودهم بعض المشادات وعدم الرضا. وجاءت استقالة الفريق مدكور أبو العز قائد سلاح الطيران وقتئذ فى مقدمة الأحداث التى تعبر عن ذلك.

وظل الخبراء السوفيت موجودين من ٦٧ حتى يوليو ٧٢ أى حوالى خمس سنوات. وكانت أهم مراحل وجودهم فى شهرى مارس وإبريل ١٩٧٠ مع قدوم فرقة كاملة سوفيتية صاروخية، وحوالى ٨٥ طائرة ميج ٢١ معدلة بأطقمها ومعداتها من رادارات متطورة إلى أجهزة إلكترونية خاصة للإنذار والتتبع، وذلك نتيجة لزيارة الرئيس عبد الناصر السرية لموسكو أواخر يناير ١٩٧٠. وكان وجود الخبراء السوفيت مطلوبا فعلا ولم يعترض عليهم أحد. فقد قاموا بحماية مصر تماما ومنعوا الطيران الإسرائيلى من العربدة فى سماء مصر وضرب البنية الأساسية العسكرية، بعد أن ضربوا أهدافا مدنية مثل مدرسة بحر البقر ومصنع الحديد والصلب فى أبو زعبل. وكان الهدف من هذه الغارات إظهار العجز التام للنظام المصرى عن حماية مصر وسمائها وشعبها، وإثارة الشعب ضد جمال عبد الناصر وإلحاق هزيمة مُهينة أخرى به تفقد الشعب ثقته نهائيا فى نظام الحكم وتجبره على الاستسلام والرضوخ إلى شروط إسرائيل وإخراج أكبر الدول العربية من المواجهة معها.

وعندما بدأ الطيارون الإسرائيليون يلتقطون أثناء طلعاتهم على مصر لغة التخاطب بين طيارى الميج ووجدوها روسية أوقفوا هجماتهم فى العمق حوالى منتصف إبريل وإن استمروا فى غاراتهم على ضفاف قناة السويس لمنع بناء قواعد الصواريخ. ولكنهم بدأوا يستشعرون الخطر من خسائرهم المتزايدة فى طائراتهم وطياريهم مما أجبر أبا إيبان على التصريح بأن سلاحهم الجوى أخذ يتآكل.

نعود مرة ثانية إلى الخبراء السوفيت وزيادة عددهم حتى وصلوا إلى عدة آلاف. وعندما أصبح الرئيس السادات رئيسا دون منازع بعد ١٥ مايو ١٩٧١، وعين الفريق محمد صادق وزيرا للدفاع وقائدا عاما للقوات المسلحة بدأت حملة ضد الخبراء السوفيت. كان رأس الحربة لهذه الحملة الفريق محمد صادق وأيده جميع المستشارين

المحيطين بالسادات. ثم أصدر مجموعة من كبار رجال الدولة السابقين وأعضاء من مجلس الثورة بيانا يحذرون فيه السادات من خطر الوجود السوفيتي وأشاروا إلى احتمال انقلاب شيوعي وأن أمن مصر في خطر.

لم يكن السادات في حاجة إلى هذا التحذير. فقد أكد لي هو شخصيا أن «الولاد إياهم كانوا يتآمرون مع السفير السوفيتي فلاديمير فينوجرادوف»، وأنه طلب نقل السفير ولم يجب إلى طلبه وأن الأمن المصري كان في خطر!! وأنه اعتقل رجال عبد الناصر لهذا السبب، لكن لم يكن في استطاعة الخبراء السوفيت القيام بأي انقلاب عسكري لأنهم منتشرون وموزعون بين أسلحة متعددة، والأمر المهم هو أنهم لم يكونوا مقبولين من القوات المسلحة المصرية. وكانت العلاقات بين الطرفين تكاد تكون عدائية، والدليل على ذلك أنه عندما طلب السادات ترحيل الخبراء السوفيت وأمرهم بالرحيل في موعد غايته ٨ يوليو ١٩٧٢ نفذوا أوامره ورحلوا قبل هذا التاريخ دون أي مقاومة أو تعويق أو اختلاق أعذار للبقاء.

واستمر الفريق محمد صادق في حملته ضد الخبراء السوفيت إلى أن خرجوا وقدم نفسه على أنه الرجل الذي يحمي الوطن من السيطرة السوفيتية، وكان يردد دائما في اجتماعات اللجنة الرباعية السابق ذكرها «حافظ إسماعيل - أحمد إسماعيل - محمد صادق وأنا» أنه يتصرف كرجل وطني، مما أثار حافظ إسماعيل وصاح فيه « يعني أنت اللي وطني بس وإحنا يا أخي غير وطنيين !! لا خد بالك من كلامك».

أما كبار المستشارين حول أنور السادات فقد أيدوا محمد صادق في موقعه وأقنعوه بأنه الرجل الذي يحمي أمن مصر واستقلالها.

هناك خلفية تاريخية في غاية الأهمية بالنسبة للوجود العسكري السوفيتي وللأسف لم تكن معروفة. فقد كان هناك تفاهم بين عبد الناصر والرئيس «تيتو» يعطي للرئيس اليوجوسلافي الحق في الاتصال بالرئيس الأمريكي جونسون ومن بعده نيكسون لإقناعهما بمقايضة الوجود العسكري السوفيتي وإنهائه في مقابل انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية التي احتلت ١٩٦٧.

ولكن للأسف طرد الرئيس السادات الخبراء السوفيت وأنهى الوجود العسكري السوفيتي دون أي مقابل، ودفع الثمن مقدما على أمل أن تسرع أمريكا إلى مساعدته وحل قضية الاحتلال الإسرائيلي للأراضي المصرية على الأقل. ولكن كما ذكرت من

قبل، تغلب اللوبى اليهودى والكونجرس الأمريكى ورفضوا مساعدة السادات بل أنهم أكدوا أنه أصبح الآن معزولا وسيأتى راكعا وسيقبل أى شروط تفرض عليه.

هل كان للأستاذ هيكل دور فى طرد الخبراء السوفيت؟ وهل كان ضمن المجموعة المحيطة بالسادات التى أيدت طردهم؟ إن هيكل أذكى من أن ينضم إلى مجموعة من المجموعات. حقيقية أنه استقطب الفريق محمد صادق، ولكنه فى نفس الوقت حافظ على علاقته بجميع الأطراف فكان على علاقة طيبة ووثيقة بالسفير السوفيتى فلاديمير فينوجرادوف. فالأستاذ هيكل لايرضى إلا بأن يكون هو شخصيا مجموعة بذاته.

وكما هو معروف جمع السادات اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى وأعلن طرد الخبراء السوفيت وسحب بذلك السجادة من تحت أقدام الفريق محمد صادق فلا يمكن أن يقبل السادات أن ينصب أحد نفسه حاميا للوطنية ويتزعم القوات المسلحة ويصبح بطلا قوميا بجانبه.

وبعد انتهاء اجتماع اللجنة المركزية جاءنى الفريق محمد صادق وقالى « أنا علىَّ الدور فى الخروج من الوزارة فأنت رجل ذكى وتعرف السادات جيدا». وفعلا أقال السادات محمد صادق ولكنه أقالنى قبله!! وكان للشاعر الكبير محمود درويش تعليق على إقالتى وهو «أن الرئيس السادات طرد آخر الخبراء السوفيت !!»

السادات ومجلس الوزراء

فى حوالى شهر فبراير ١٩٧٢، فاجأنا الرئيس السادات ومعه سيادة النائب حسين الشافعى، والسيد حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى بحضور جلسة مجلس الوزراء الذى كان يرأسه وقتئذ الدكتور عزيز صدقى. ولم يكن هناك جدول أعمال خاص برئاسة الرئيس السادات لهذه الجلسة. وافتتح السادات الاجتماع وكان الغرض منه ابلاغنا بأنه قطع العلاقات مع الملك حسين تماشيا مع قرار العقيد القذافى الذى قطع علاقته هو الآخر مع الأردن. وفوجئنا جميعا بالقرار، وأخذ السيد حسين الشافعى الكلمة بعد أن سمعنا قرار السادات وقال موجها الكلام للسادات « هل أتيت لإبلاغنا بما قررته أم أنك تريد أن نناقش هذا الموضوع؟ فإذا كنت قد اتخذت القرار وقطعت العلاقات فعلا ودون علمنا جميعا فلماذا تجمعنا؟ كان يكفيك إصدار بيان بذلك أما إذا كنت تريد مناقشة هذا الموضوع فأنا لا أوافق على قطع العلاقات مع الأردن!!» واحتدت المناقشة وتوتر الاجتماع ولكن فى نهاية الأمر هدأ الجميع.

أما موقفى كوزير للخارجية فكان حرجا ومؤسفا، فلم أسمع بهذا القرار إلا فى هذه الجلسة. ولم يبلغنى السادات به قبل الجلسة حتى من باب الشكل!! وظلت تراودنى رغبة فى التعليق وإبداء رأيى. وكنت أرى أن قطع العلاقات مع الأردن لمجرد أن العقيد القذافى قطع علاقته معه، ليس منطقيا ولا مبرر له أصلا. ولكنى لزمت الصمت فى آخر الأمر لأنى لم أرغب فى أن يظهر موقفى وكأنى فى كفة واحدة أو على اتفاق مسبق مع السيد حسين الشافعى. ولكنى أعترف بأنى لم يكن لدى الشجاعة الكافية لذلك خصوصا وقد رأيت مدى التوتر الذى حدث نتيجة لتدخل النائب حسين الشافعى ومدى انفعال الرئيس السادات.

عموما كان هذا يحدث أيضا فى زمن الرئيس عبد الناصر. فقد قطع علاقته مع شاه إيران ١٩٦٠ أثناء خطاب له على الهواء مباشرة، ولكن كانت هناك أسباب منطقية لهذا القرار. فقد كان الشاه يزود إسرائيل بالبترول الإيرانى عن طريق إيلات، وعندما انكشف الشاه هاج العرب جميعا خصوصا أن هذا التصرف جاء من دولة إسلامية يتشدق إمبراطورها بالقوة والشجاعة وحماية الدين. فكانت خطوة الرئيس عبد الناصر منطقية بل وأساسية.

ثم ترأس السادات الوزارة بنفسه بعد وزارة الدكتور عزيز صدقى، وعين الدكتور عبد القادر حاتم نائبا لرئيس الوزراء وترك رئاسة مجلس الوزراء عمليا للدكتور حاتم. ولم يحضر لرياسة المجلس سوى مرات معدودات مثل الاجتماع الموسع الذى طلب فيه من المجلس أن يعبر كل عضو فيه عن رأيه فى المعركة مع إسرائيل. وكان الوزراء جميعا مع المعركة وإن اختلفوا فى درجة الحماس والاقتناع بضرورتها. وارتاح السادات لهذا القرار واعتبره قرارا إجماعيا. وكان قد اقتنع بأن أمريكا لن تخطو خطوة واحدة للضغط على إسرائيل. وهو ما تبين بعد فى مقابلة حافظ إسماعيل لكيسنجر فى باريس، والذى تبنى فيها كيسنجر الموقف الإسرائيلى وأصر على المحادثات المباشرة بين العرب وإسرائيل. كما كان السادات قد قدم كل ما كانت تحلم به الولايات المتحدة من طرد الخبراء السوفيت والقضاء على الوجود العسكرى السوفيتى وقاعدتهم العسكرية البحرية والجوية فى مرسى مطروح، فلماذا تبذل الولايات المتحدة أى مجهود جاد لحل الصراع العربى الإسرائيلى أو حتى الصراع المصرى الإسرائيلى.

وأخذ السادات يستعد للمعركة بشكل جاد. ولحسن الحظ تمكن المشير أحمد إسماعيل من عقد صفقة الأسلحة المتطورة مع السوفيت والتى دخلنا بها حرب أكتوبر وفى مقدمتها صواريخ موجهة ضد الدبابات يحملها جنود المشاة «مالوتكا». وكانت

مفاجأة تامة للإسرائيليين، بل للعالم كله، كذلك المدفعية الصاروخية الموجهة بالرادار، وصاروخ «استريلا» المحمول على الكتف ضد الطيران المنخفض والصاروخ أرض - أرض الذى وعدنا به السوفيت وكان فى الأصل يحمل رؤوسا نووية وإن ظل فى أيدى الخبراء السوفيت ولكنه كان خاضعا لقرار القيادة العليا المصرية.

والحق يقال أن السادات كان شجاعا فى اتخاذ قرار الحرب وكان شجاعا فى الذهاب إلى القدس فقد كان التيار المضاد لهذه الزيارة جارفا عنيفا تحداه السادات وأقول هذا رغم أنى كنت ضد هذه الزيارة.

أسلوبا عبد الناصر والسادات

كانت هناك فروق عديدة بين طريقة السادات وطريقة عبد الناصر فى التعامل مع الوزراء ومجلس الوزراء.

فقد كان عبد الناصر حريصا على حضور مجلس الوزراء عندما كان يرأس هذا المجلس. وكان يأتى بجدول أعمال واضح ومحدد ويطرحه للمناقشة وكان مستمعا جيدا كما سبق أن ذكرت، ويعطى الفرصة للوزراء لمناقشة القضية المطروحة أمامهم. وكان كل وزير فى اختصاصه يدلى بتقرير عن سير العمل فى وزارته. كان عبد الناصر لا يقتصر على العرض العام أو الخطوط العريضة فقط ولكنه كان مغرما بتفاصيل المشكلة وله جلد على الاستماع والمناقشة مهما طالت.

أما أنور السادات فكانت شخصيته مختلفة تماما عن شخصية عبد الناصر. فمصاحبة السادات فى زياراته للخارج أو العمل معه فى مجلس الوزراء أو فى مقابلاته الشخصية أكثر استرخاء وفى جو بعيد عن الرسميات والتوتر. والحق أنه عندما يكون طبيعيا وليس مهموما يصبح شخصية خفيفة الظل سهلة التعامل وتشعر معه كأنك مع صديق. ولكنه قابل للغضب والانفعال الشديد إذا لم يرقه تعليق أو طريقة عرض للقضية أو إذا شعر بأنك تنقد تصرفاته.

كان عبد الناصر واضحا ومباشرا وتعرف منه الطريق المحدد لتناول القضايا والمشاكل. ولكن السادات كان له اتجاهه الخاص يخفيه عن معاونيه ومستشاريه. وقد حدث معى هذا عدة مرات وحدث أيضا مع الوزير محمد إبراهيم كامل وزير الخارجية الأسبق والدكتور بطرس غالى وهو ما كتبوا عنه فى مذكراتهم.

فعندما كنت سفيرا فى موسكو زارنى السفير الفرنسى «روجيه سيدو» فى مارس

١٩٧١. وكان سفيرا ممتازا وأطلعنى على خطة مقترحة من الرئيس السادات لانسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء وذلك بتقسيمها إلى ثلاث مناطق على أن يكون الانسحاب على مراحل من كل منطقة على حدة. وذكر أن هذه الخطة وصلته من السفير الفرنسى فى القاهرة والتى ناقشها السادات معه وسألنى عن معلوماتى حول هذا الموضوع وهل وصلتنى أى تفاصيل عنها وهل بلغت شيئا للسوفيت بشأنها.

ولم يكن قد وصلنى أى شىء عن هذه الخطة، ولكنى تظاهرت بأنى أعرف أن هناك خطة ولو لم أكن على علم بتفاصيلها ولم تصلنى تعليمات من السادات بأن أبلغ السوفيت أى شىء بخصوصها.

وأرسلت خطابا خاصا للأستاذ سامى شرف يحمله أحد أفراد مكتب المشتريات العسكرية، وكان قد تم استدعاؤه لمهمة فى القاهرة. وشرحت فى الخطاب حديث السفير الفرنسى وطلبت منه أن يوافينى بأية معلومات عن هذا الموضوع، وهل علم هو وزملاؤه عن اقتراح السادات أو أنه أخفاه عنهم. وقد وقع هذا الخطاب فى يد الأستاذ هيكل عند جرد خزينة المعلومات وملفاتها بعد ١٥ مايو ١٩٧١، وأبلغنى هيكل أنه لم يعرضه على السادات حتى لا يسبب لى أية متاعب أو أى إجراء عنيف ضدى. وقد شكرته على هذا العمل فقد كان السادات فى قمة غضبه وعنفه فى أحداث ١٥ مايو ١٩٧١ وكان هذا الخطاب كافيا لانفجاره.

وبعد عشرة أيام من مقابلتى السفير الفرنسى فى موسكو عدت إلى القاهرة وقابلت محمود رياض وزير الخارجية و سامى شرف ووجدتهما لا يعلمان شيئا عن خطة السادات وتقسيم الانسحاب من سيناء على ثلاث مراحل، والعجيب فى الأمر أن هذا التقسيم هو الذى اتفق عليه بيجين والسادات فى كامب ديفيد.

حقيقة كان لعبد الناصر أسراره واتصالاته ولكنه لا يعمد إلى تضليلك أو التمويه عليك.

ولم يكن السادات يهتم كثيرا بتقارير وزارة الخارجية فكان يعتقد أنهم حرفيون وليست لديهم النظرة الاستراتيجية المستقبلية الواسعة وأكثر ما يعنيهم هى الشرعية الدولية والقانون الدولى. وكان دائما يصرح بأنه رجل استراتيجى ولا تعنيه التفاصيل التافهة. وفى كتاب ألفه أحد الإسرائيليين عن المحادثات السرية بين كيسنجر والسادات، روى أن جولدا مائير كانت تبلغ كيسنجر باقتراح منها تطلب أن يعرضه على السادات. وكان كيسنجر يرى فى هذا الاقتراح مبالغة فى الطلبات،

فكانت جولدا مائير تقول له « عليك أن تبلغه للسادات وأنت لست مسئولا عنه». ويندهش كيسنجر لقبول السادات لهذا الاقتراح الذى كان كيسنجر يراه متطرفا ولا يمكن للسادات أن يقبله!!

وكان يتعامل بنفس الأسلوب مع بطرس غالى وإبراهيم كامل مما أدى إلى استقالة ابراهيم كامل وهو وزير للخارجية فى كامب ديفيد.

لا أريد أن أشكك فى وطنية أنور السادات فكان وطنيا ويريد استرجاع سيناء بالكامل، وكان صلبا فى استرجاع الأرض كاملة. كان يريد حل القضية بأسرع ما يمكن والتفرغ إلى مشاكل أساسية تواجهه وأهمها حالة الاقتصاد المصرى الذى أنهكته الحروب وعدم الاستقرار الاجتماعى والسياسى الذى صاحب عملية السلام واسترجاع سيناء، والغضب العارم الذى شمل العالم العربى من الخليج إلى المحيط نتيجة لاتجاهاته القُطرية.

حقيقة أنه قبل السيادة على سيناء منقوصة، ولكنه كان مقتنعا بأن حرب أكتوبر هى آخر الحروب مع إسرائيل وأنه ليس فى حاجة إلى ادخال قوات مسلحة بأحجام كبيرة ومعدات متطورة فى سيناء.

وفى آخر أيامه تعرض لضغوط هائلة من المعارضين لسياسته وتوجهاته من الانفتاح الاقتصادى الذى لم يكن له أى ضوابط، والثراء الفاحش الذى ظهر على طبقة معينة من المجتمع واستقطاب الفقر والغنى بشكل مستفز، وقطع المعونات العربية عن مصر وعدم وفاء الولايات المتحدة بتعهداتها فى تقديم المساعدات التى التزمت بها. وقد أثرت هذه الضغوط على السادات تأثيرا نفسيا شديدا مما أدى إلى توجهه نحو الغيبيات والإيحاءات وكان يتصرف حسب ترجمته لها!!

أما ما حدث بعد ذلك فهو معروف للجميع ومن أهمه القبض على خيرة المثقفين والسياسيين والصحفيين وإيداعهم السجون كما هو معروف.

السادات والمخابرات الأمريكية

نشرت صحيفة الهيرالد تريبيون بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٧٧ على صفحتها الأولى وبشكل بارز وواضح، وبعرض الصفحة الأولى وبعنوان بارز «أعمال وكالة المخابرات المركزية فى الشرق الأوسط» وركزت فى الموضوع على ثلاث شخصيات مهمة فى المنطقة وهم الرئيس السادات والملك حسين ومهدى تاجر سفير الإمارات فى لندن.

وقد تعجبنا من نشر هذه المعلومات على أساس أن المتهمين من أصدقاء الولايات المتحدة المقربين فما الغرض إذن من تشويه سمعتهم.

أما الملك حسين فقد اعترف بأنه تسلم مساعدات من المخابرات المركزية ولكنه صرفها على جهاز مخابراته وتدعيمه بالأجهزة والمعدات المتطورة.

أما الرئيس السادات فتجاهل الاتهام تماما رغم أنه كان اتهاما قاسيا فقد كتب عنه أنه استقطب المخابرات المركزية بواسطة الشيخ كمال أدهم شقيق حرم الملك فيصل والذى كان مسئولا عن نشاط هذه المخابرات فى الشرق الأوسط، وكان الاستقطاب أثناء حرب اليمن وأنه كان فى فترة ما يتقاضى مرتبا شهريا ثابتا.

وقيل عن الرئيس السادات أنه أثناء زيارته لأمريكا وهو نائب لرئيس الجمهورية ١٩٦٦، أنه اختفى عن الوفد المرافق له بضع ساعات قضاها فى مقابلات سرية ثم قابل الرئيس جونسون وخرج من المقابلة وهو يكيل المديح للرئيس الأمريكى.

كنت سفيرا فى يوجوسلافيا عند نشر هذا الخبر الذى ألقى بظلال كثيفة حول الرئيس السادات، خصوصا أنه جاء بعد الانتفاضة الشعبية المشهورة فى ١٨و١٩ يناير ١٩٧٧ولم أتصور أن تتهم المخابرات المركزية أنور السادات وهو صديق للولايات المتحدة فما هو الدافع إذن!!

كما أننى لا أتصور أن يحدث هذا فى عهد عبد الناصر، الذى يتابع جميع نشاطات رجاله خصوصا أنور السادات وإذا حدث ذلك فلابد أن يعرف عبد الناصر تفاصيله.

أقول صراحة إننى لا أملك دليلا واحدا ماديا لهذا الاتهام، ولكنى أرجح أن الذى أوحى بنشر هذا الخبر هو الموساد الإسرائيلى واللوبى الصهيونى الأمريكى خصوصا ونحن نعرف الصلة الوثيقة بين الموساد والمخابرات المركزية.

وأن الغرض من تشويه سمعة السادات هو التقليل من حجمه والنيل من مركزه فى الداخل، خصوصا بعد أحداث ١٨و١٩ يناير وإثارة الشعب المصرى ضده وإحداث فتنة داخلية أعنف من ١٨و١٩، حتى يصبح السادات ضعيفا قابلا للضغط عليه وأكثر قبولا لشروط الصلح مع إسرائيل.

هذا ولم يكن السادات فى حاجة إلى المال فقد كان له ما يريد وكثيرا ما كان يرعاه المشير عبد الحكيم عامر.

دور السيدة جيهان السادات ونشاطها

ترددت كثير من الشائعات بشأن تدخل السيدة جيهان السادات فى تعيين بعض الوزراء وكبار المسئولين بالدولة. ومن ناحيتى أستطيع أن أؤكد أنها لم تتدخل فى شئون الوزارة التى كنت أشغلها فلم توص على أحد فى الوزارة أو تطلب تعيين دبلوماسى فى مكان معين أو نقل آخرين إلى مناصب وسفارات يرغبون فيها.

ولكن كانت من وقت لآخر تطلب منى المشاركة فى اجتماعات عامة خاصة بالمرأة ونشاطها ولإلقاء كلمة عن الموقف السياسى وجهود مصر من أجل حل قضية إزالة آثار العدوان الإسرائيلى وموقف الدول المختلفة من هذه القضية. وأتذكر أنه فى أحد هذه الاجتماعات نشرت صحيفة الأهرام فى مكان بارز فى الصفحة الأولى أقوالا نسبت لى وشوهت ما قلته تماما. فقد كتب حمدى فؤاد إنى اقترحت تكوين جبهة من الدول التقدمية العربية لمواجهة إسرائيل. والحقيقة أننى قلت إننا فى حاجة إلى جبهة قومية واسعة تضم جناحى الأمة العربية فى المشرق والمغرب، كما ذكرت أننا فى معركة شرسة ولابد من مشاركة كل جهد عربى فى هذه المعركة ولم أصنف الدول العربية إلى تقدمية وغير تقدمية.

نعود للسيدة جيهان السادات فهى لم تكن فى حاجة إلى التدخل المباشر مع الوزراء، فهناك وسائل غير مباشرة كثيرة ولكنها كانت مُدرسة فى الجامعة ولها اتصالات واسعة فى المجتمع، كما تعرفت على كثيرين من أساتذة الجامعات والمعاهد وقابلت مع زوجها العديد من رجال الدولة والمتخصصين والعلماء، ومن البديهى أنها كانت تزكى بعضهم وتقدمهم للرئيس السادات وهو الذى كان يتخذ القرارات بشأنهم وليس هى.

كانت السيدة جيهان السادات تلعب دورا مهما فى تهدئة السادات وعاملا ملطفا لانفعالاته. كانت تفصل بين غضب زوجها على أحد وبين علاقتها هى شخصيا معه. والحقيقة أنها لم تبتعد عن زيارتنا والاتصال بنا عندما أقالنى السادات من الوزارة، فقد ظلت علاقتها طبيعية ومجاملة. وحتى عندما استقلت احتجاجا على زيارة زوجها للقدس فى نوفمبر ١٩٧٧ وكان خطاب استقالتى عنيفا وهجوميا، فإنها لم تغير من سلوكها أو مجاملاتها.

لاشك أنه عندما تكون السيدة الأولى واسعة النشاط وتغطى فعاليات كثيرة فى المجتمع، فلابد أن يكون لها دور مساعد ومهم بالنسبة لزوجها ومن السهولة توجيه الاتهام إليها بالتدخل فى شئون الدولة ولكن القرار النهائى هو قرار رئيس الجمهورية.

علاقة السادات بالمهندس سيد مرعى

كان سيد مرعى شخصية مختلفة تماما عن شخصية عثمان أحمد عثمان. حقيقة كانا هما الإثنان من أقرب مستشارى السادات، ولكنهما كان يختلفان فى الشخصية والأسلوب والنظرة إلى الحياة وطريقة التعامل.

كان سيد مرعى رجلا مصقولا ينتمى إلى طبقة كبار المزارعين ولا أقول الاقطاعيين. وكان أستاذا للعلاقات العامة والانتشار الاجتماعى، يجيد التعامل ومخاطبة أصدقائه ومعارفه وكان فى نفس الوقت يستطيع مخاطبة الفلاحين والقاعدة الشعبية ويُحَببهم إليه.

كان كريما مضيافا وجعل من منزله مركزا لتجميع المثقفين وكبار الكتاب والفنانين وكبار الصحفيين، كما كان يحتفى بضيوف مصر من الأجانب ويطلب منه الكثيرون منهم ترتيب مقابلات مع السادات وكان يقوم بذلك وكأنه يؤدى واجبا وطنيا.

قابلته أول مرة عام ١٩٦٠ فى اجتماع للجنة الاقتصادية التى كان يرأسها نائب الرئيس عبد اللطيف البغدادى، وكان من أعضائها الدكتور القيسونى والمهندس الشرباصى، وكانوا جميعا قمة فى اختصاصاتهم ولهم حضور وشخصية. كنت ممثلا لوزارة الخارجية، نيابة عن السيد حسين ذو الفقار صبرى نائب وزير الخارجية وكنت وكيلا للوزارة. كانت المناقشات على مستوى عال وطرحت عدة قضايا مهمة مست علاقاتنا الخارجية، وكان البغدادى على درجة كبيرة من الكفاءة وأدار اللجنة الاقتصادية إدارة قادرة. فكان يذاكر ملفاته ويدرسها بكل دقة وكان يعرف مشاكل وقضايا كل عضو فى اللجنة، وكان متزنا وعاقلا فى مناقشاته ويعطى الحرية لكل عضو فى عرض مشكلته دون مقاطعة.

عرفت سيد مرعى منذ هذا الاجتماع فكان رجلا أنيقا يهتم بهندامه ويجيد عرض المشكلة الزراعية عرض خبير زراعى متمرس وكان يجيد الحديث سهل العبارة.

ثم استمرت مقابلاتنا عندما كنت أحضر إلى القاهرة أثناء عملى فى موسكو، وكنت حريصا على زيارته وكان يسألنى كثيرا عن المشكلة الزراعية فى الاتحاد السوفيتى وعن الميكنة الزراعية وصعوبة تطبيقها فى مصر لتفتت الملكية.

هذه مقدمة عن شخصية المهندس سيد مرعى، أما عن علاقته بالرئيس السادات فقد كانت قديمة منذ حقبة جمال عبد الناصر وعندما كان السادات نائبا للرئيس ورئيسا لمجلس الشعب.

كان الدكتور عزيز صدقى قد اختير رئيسا للوزراء، وكان المهندس سيد مرعى رئيسا للاتحاد الاشتراكى وترك السادات العلاقة بين الطرفين غير واضحة وبها الكثير من التداخل.

كان سيد مرعى يتفق مع السادات فى التوجه العام من الناحية السياسية. فكان لا يرحب كثيرا بعلاقاتنا مع الاتحاد السوفيتى، ووصولها إلى هذه الدرجة من التوسع ولكن رد فعله إزاء هذا لم يكن عنيفا أو عصبيا. كان يخشى التورط فى حرب لا نضمن كسبها، وكان يميل إلى حل سلمى لقضية الصراع العربى الإسرائيلى، خصوصا بالنسبة لمصر.

وعندما جاء تشاوتشيسكو لزيارة مصر فى ١٩٧٢ واقترح أن يتوسط بيننا وبين إسرائيل كما سبق ذكره وتأكيده أن بيجين رجل يريد السلام ويستطيع تحقيقه رحب سيد مرعى بهذه المساعى. وكنا فى وداع الرئيس الرومانى فى المطار وكان هو موجودا فى توديعه، فانتحى بى جانبا وقال لى « عليك أن تكون رجلا وطنيا وتساعد فى هذا الاتجاه وأظنك تعلم عرض تشاوتشيسكو » حقيقة كنت أعلم ولكن ليس من أنور السادات ولكن من مانسكيو وزير خارجية رومانيا. كان سيد مرعى يعتبر أن حل قضية احتلال سيناء يجب أن يتم عن طريق المفاوضات وليس الحرب.

كان من الذين يرون أن وجود الخبراء العسكريين السوفيت فيه خطر على أمن مصر واحتمالات تآمرهم على الحكم.

ولم يكن على علاقة طيبة مع رجال عبد الناصر. ولكنه فى نفس الوقت لم يكن معاديا لهم. إذ أيد السادات فى الإجراءات التى اتخذها فى ١٥ مايو لاقتناعه بأنهم كانوا يريدون التخلص من السادات والرجال المحيطين به. كذلك أيد اللواء الليثى ناصف قائد الحرس الجمهورى فى القبض على معارضى أنور السادات. وكان اللواء الليثى من أصدقاء رجال عبد الناصر ولكنه كان مخلصا للشرعية وأمينا على قسمه على الجمهورية بالمحافظة والدفاع عن وجودها، ولذلك وقف مع السادات بصفته رئيس الجمهورية الشرعى.

كان سيد مرعى يخشى من زيادة الخبراء العسكريين السوفيت كما سبق ذكره، واستقطب الفريق محمد صادق الذى حمل لواء الدفاع عن الوطنية وحماية مصر من وجودهم العسكرى السوفيتى، وكان يتمنى أن يُبعدوا عن مصر وإزالة الوجود العسكرى السوفيتى كله، ولكنه لم يكن عنيفا متشنجا فى الهجوم عليهم أو محبذا لاستخدام كلمة طردهم.

وعندما عاد الرئيس السادات من إسرائيل وخطب خطبته الشهيرة من شرفة قصر عابدين، كان فى قمة التوتر والتشنج، وكان سيد مرعى بجانبه وأخذ ينصحه بأن يكون هادئا للحفاظ على صحته وعدم التمادى فى التوتر والهياج خصوصا عندما صرخ السادات بأن العرب أقزام وأخذ يردد ذلك عدة مرات.

كان لسيد مرعى تجربة مع العرب، منذ أن قام بجولة مع الدكتور مصطفى خليل لاستكشاف مدى استعدادهم لمساعدة مصر، فقد كانت حالتها الاقتصادية متدهورة بعد حرب أكتوبر والحروب الكثيرة التى خاضتها، وكانت النتيجة مخيبة للآمال وكان حقيقة يؤيد السادات فى زيارته لإسرائيل.

كذلك كان سيد مرعى يرجو أن تتدخل الولايات المتحدة وتتولى التوسط لحل القضية بيننا وبين إسرائيل. وكان مع الاتجاه القطرى أى «مصر أولا» واسترجاع كل شبر من أرض مصر حتى ولو كان هناك قيود على سيادتها المهم ارجاع سيناء كاملة.

توثقت علاقات سيد مرعى بالسادات حتى وصلت إلى درجة المصاهرة، ولكنه لم يفرض نفسه عليه وفى نفس الوقت كان قريبا جدا منه وموجودا باستمرار بجانبه.

عثمان أحمد عثمان والسادات

لاشك أن المهندس عثمان أحمد عثمان إنسان على جانب كبير من الذكاء وحسن الإدارة. فقد كانت شركاته من أنجح الشركات، وقامت بأعمال إنشائية ضخمة ومعقدة ليس فقط فى مصر ولكن فى كثير من الدول العربية. وكان يعتمد فى مشاريعه الضخمة على المهندس الكبير الدكتور أحمد محرم وزير الإسكان الأسبق، الذى يعد من أقدر مهندسى الإنشاءات فى مصر والعالم العربى.

كان عثمان أحمد عثمان يعرف تماما كيف يحافظ على مصالحه فى أى عهد من العهود. وكان يراهن على أنه إذا قابل أى أحد حتى من أعدائه فهو يستطيع أن يخرج من عنده وهو صديق أو على الأقل يُحيده.

لم تبدأ شهرة عثمان أحمد عثمان مع الرئيس السادات فقط ، ولكن حتى فى أيام عبد الناصر كان وثيق الصلة بكثيرين من رجال عبد الناصر. وقدم لبعضهم الكثير من الخدمات. وقد توسط لهم عندما جاء السادات إلى الحكم، وكان قد وثق علاقته بالسادات حتى وصلت إلى المصاهرة وأصبحا صديقين حميمين.

كانت معرفتى به قد بدأت من السد العالى، وكنت سفيرا فى موسكو وكانت معظم، إن لم يكن كل، المعدات تأتى من هناك.

سألت «الكسندروف» كبير الخبراء السوفيت عن أحسن شركة تعمل فى السد العالى فقال لى المقاولون العرب وعثمان أحمد عثمان. ولم تكن المعدات السوفيتية على درجة عالية من الكفاءة وكثيرا ما يحتاج العمل لمعدات من دول غربية. وعلى سبيل المثال كانت آلات الحفر الروسية اللازمة لفتح ثقوب فى صخور الجرانيت الصلبة كبيرة الحجم جدا يبلغ طولها ٤ أمتار وكفاءتها ضئيلة. وكانت هذه الآلات مهمة جدا لأنها كانت تحشى الصخور بالديناميت، وبتفجيره تتفتت الصخور ويسهل نقلها وبالتالى تسهل عملية الحفر وبدونها تصبح عملية تعميق المجرى وحفر قناة التحويل عملية مستحيلة. فاستوردنا حفارات من السويد لايزيد طولها على المتر ونصف المتر أو أقل، وكفاءتها عالية للغاية وساعدتنا كثيرا على تخطى مشاكل الحفر.

كذلك الحال بالنسبة للوريات القلابة والبولدوزرات وغيرها من المعدات.

وكان عثمان أحمد عثمان خبيرا فى المعدات الغربية للإنشاء نظرا لأعماله الكثيرة فى الدول العربية.

كانت مساهمة عثمان فى بناء السد العالى مساهمة كبيرة وفعالة بشهادة السوفيت أنفسهم. وعندما زار خروشوف السد العالى فى مايو ١٩٦٤ وزع على العاملين نياشين وكان ممن نالوا نيشانا سوفيتيا عثمان أحمد عثمان، وهو نفس النيشان الذى حصلت عليه أنا، وكان اسمه «نيشان بطل العمل الاشتراكى». وكانت مفارقة عجيبة أن ينال عثمان وساما اشتراكيا، وهو المعروف بعدم اشتراكيته وأظن أنه لم يتحل به فى يوم من الأيام، بل لم يأت ذكره على لسانه مطلقا.

وعندما عينت وزيرا للوحدة فى ليبيا، وجدت هناك المهندس حسين عثمان شقيق عثمان على رأس شركات عثمان أحمد عثمان. وتناولت معه طعام الأفطار وكان ذلك أثناء معركة العاشر من رمضان وقضينا ليلة مصرية، وخطبت فيهم مشجعا ومؤيدا وجودهم فى أى بلد عربى. والحقيقة أنهم كانوا ينفذون مشاريع إنشائية ضخمة ومنها مشاريع إسكان وطرق... الخ.

كانت العلاقات بين السادات وعثمان كما سبق أن قلت علاقات مصاهرة وصداقة ثم أصبحت وثيقة لكثير من التطابق فى التوجه العام للسياسة وبرامج الإنشاء والتعمير. وكان هذا هو بيت القصيد بالنسبة لعثمان ومصالحه وشركاته. ولاشك أن

عثمان أحمد عثمان كان شخصية مرحة وكان أسلوبه فى الحياة وطريقته فى الحديث أقرب ما تكون إلى شخصية السادات.

وقد عينه السادات فيما بعد وزيرا للإنشاء والتعمير فى وزارة كان يرأسها السادات. وكنت مازلت وزيرا للوحدة فى ليبيا ثم وزيرا فى مجلس الوزراء. وحدث أثناء نظر المجلس للميزانية والخطة أن قال عثمان هذه أمور سهلة وأستطيع أنا القيام بها فرد عليه الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله بطريقة لا تخلو من السخرية «طيب خلاص بقى ياعثمان بك احنا حنديلك كل حاجة وانت تحلها»، ثم رقاه السادات إلى نائب لرئيس الوزراء وزاد التصاقا بالسادات وبالسلطة وبرسم السياسة.

حدث أن قابلت السادات قبل سفرى لليبيا وتحادثنا فى كيفية تناول علاقاتنا معها، وفى آخر المقابلة قال لى «خد بالك سنقيم على الحدود مع ليبيا محافظة تسمى محافظة الوحدة نصفها على الأراضى المصرية والنصف الآخر على الأراضى الليبية ، سيكون عثمان أحمد عثمان مسئولا عن جميع إنشاءاتها وأنتما الاثنان مسئولان أمامى عن ذلك.

والحقيقة أننى دهشت من قول السادات هذا، وأظنه قد تسرع فى إبلاغى بهذا الخبر الذى كشف عن مشروع هائل يتكلف مئات الملايين من الدولارات ومعروف طبعا من الذى سيكسب هذه المكافأة الكبيرة. عموما لم يقدر للمشروع أن يرى النور. وقد أحس السادات أننى لم أتحمس له، بل إننى لم أعلق على ما قاله بكلمة واحدة. ثم ساءت العلاقات بين السادات ومعمر القذافى أى بين مصر وليبيا، واعتبر الليبيون أن حرب أكتوبر ما هى إلا تمثيلية مع الولايات المتحدة الأمريكية. وبدأت حملة شخصية بين الرئيسين وتوترت العلاقات إلى درجة تنذر بالخطر. عرضت أن أذهب إلى ليبيا لأصفى مستلزماتى هناك وأحاول فى نفس الوقت تهدئة الموقف بين البلدين ولكن لدهشتى أمر السادات ألا أذهب إلى ليبيا تحت أى ستار.

أصبح عثمان لا يفارق الرئيس السادات ويقضى السهرة معه. وكان السادات يشعر بالاسترخاء والرضا معه. وأصبح عثمان ألصق مستشارى الرئيس وأكثرهم تأثيرا عليه، كما أصبح الرجل الثانى فى الدولة بل أصبح دولة داخل الدولة.

وقد ركز السادات على سيناء بعد اتفاقية كامب ديفيد وجلاء الإسرائيليين عنها. وكان يقوم برحلات كثيرة بالهليكوبتر يصاحبه فيها عثمان أحمد عثمان ويأمر بهبوط الطائرة على الأماكن التى يختارها من الطائرة. وكان يستشير عثمان فى المنشآت

المناسبة فى هذه الأماكن وكيفية تحويل سيناء إلى منطقة سياحية عالمية. وكان كل ذلك يصب فى النهاية فى مصلحة عثمان أحمد عثمان وشركاته وأرباحه.

لست ضد هذا لأن عثمان مشهود له بالكفاءة والقدرة الكبيرة على التنفيذ. ولكن كنت أرى أن مشروعا هائلا كتحويل سيناء إلى منطقة سياحية عالمية لا يتم باتفاقات ثنائية بين السادات وعثمان أحمد عثمان، ولكن بعملية تخطيطية شاملة ومدروسة وتقسيم سيناء إلى مناطق حسب أوضاعها الجغرافية والطبوغرافية ورؤية واضحة للطرق اللازمة للوصول إليها وأوضاع المطارات... الخ.

كنا قد وضعنا رؤية لمستقبل سيناء فى اجتماعات لجنة الرئاسة قبل عدوان ١٩٦٧. وكان التركيز فى هذه الرؤية على الناحية الأمنية والدفاعية عن مصر كخط أول لأى هجوم يأتى من إسرائيل. ويتلخص المشروع فى إقامة مستوطنات محمية بدفاعات محكمة وفى أماكن محصنهة طبيعيا على أن يكون بها زراعة وصناعات عسكرية صغيرة على شكل ورش ميكانيكية تصلح لإنتاج أنواع من الذخيرة... الخ. ولكن لم نسمع من السادات أى مشروع يماثل ما كنا نأمله بالنسبة لسيناء لأنه فى نظره كانت حرب أكتوبر آخر الحروب. لكن والحق يقال أننا لم نلتفت كثيرا للسياحة أو الترفيه وكان كل همنا دفاعيا عسكريا. وأعترف بأن سيناء الآن أكثر حيوية وحياة ومملوءة بالمشروعات السياحية.

ونعود إلى عثمان أحمد عثمان ومعاونته للرئيس السادات فقد بدأ بعد وقف إطلاق النيران فى ١٩٧٣ وفك الاشتباك الأول، عملية تشييد وبناء هائلة شملت جميع مدن القناة التى خربتها الحرب، وكان عثمان المشرف والمنفذ لهذه العملية، وكانت تشمل الإسكان والمرافق والطرق والبنية التحتية الأساسية... الخ. والكثير منها تم تشييده فى زمن قياسى، إذ كان السادات يسابق الزمن لكى يؤكد أنه رجل الحرب والسلام، وكان عثمان أحمد عثمان مساعده الأيمن فى كل هذا. وهذا أيضا يترجم إلى أرباح.

والحقيقة أن عثمان كان مخلصا للسادات، وأصبح الأكثر تأثيرا عليه كما سبق أن ذكرت، ووقف بجانبه فى جميع الأوقات العصيبة التى واجهت السادات ولم يتركه يذهب إلى إسرائيل دون مصاحبته وكان الرجل الأكثر قبولا لديه.

كان عثمان أحمد عثمان يقدم نفسه باستمرار، ولا ينتظر استدعاء السادات أو طلبا لحضوره. وكان الكثيرون من مستشارى السادات وعلى رأسهم حافظ إسماعيل لا يفرضون أنفسهم على الرئيس ولا يرضون أن يذهبوا إليه لمجرد صحبته أو مؤانسته

فى سهراته. وظل عثمان وفيا للسادات ومواظبا على مصاحبته والترفيه عنه حتى توفى السادات كما نعرف جميعا.

كان عثمان يعرف أين مصلحته وكيف يحقق أهدافه بطريقة ناعمة، وأرى أنه يجيد فهم نفسية البشر. وكان يلعب على هذا الوتر، يقترب من كل من يملك مصلحة له ثم يبتعد عنه بعد أن تتحقق هذه المصلحة، ولكنه لا يقطع علاقته به. وهذا يفسر علاقاته الوثيقة مع بعض رجال عبد الناصر الذين كانوا يساعدونه ويبعدون عنه أعداءه ومن يريد النيل منه ويقومون بحمايته. كذلك يفسر كيف أصبح أقرب رجل إلى السادات، وكان هذا راجعا لفهمه العميق لنفسية السادات وأهدافه وطموحاته وكيمياء العلاقات البشرية بين الطرفين.

وعندما جنح السادات إلى الروحانيات فى حل القضايا وفى تأملاته لتجميع الأديان وما أطلق عليه مجمع الأديان وميله إلى التفرد بالصحراء ووادى التيه فى سيناء وسانت كاترين وجبل موسى، وقف عثمان بجانبه يلبى أى طلب يطلبه السادات ويسرع فى تنفيذه فكان حقيقة مخلصا له.

رقم الإيداع
٢٠٠١/١٣٥١٩

مطابع التجارية ـ قليوب ـ مصر

مراد غالب من الشخصيات التى شاركت فى صنع أحداث مهمة شكلت مرحلة فاصلة فى تاريخ مصر المعاصرة، منذ نشاطات العمل الوطنى قبل ١٩٥٢، وبعد قيام ثورة يوليو وطوال فترة امتدت خمسين عاما.

فقد شارك فى الخلايا السرية التى ضمت بعض الضباط الأحرار. وبعد نجاح الثورة عمل مستشارا للرئيس عبد الناصر ثم سفيرا فى الكونجو حيث ربطته علاقة وثيقة بزعيمها لومومبا ودبر تهريب أسرته وحاول إنقاذه، وبعد ذلك عين سفيرا فى موسكو فى مرحلة بلغ فيها التعاون المصرى السوفيتى ذروته، وارتبط بعلاقات شخصية قوية بالزعماء هناك وظفها لمصلحة مصر. وبعد رحيل عبد الناصر، عينه السادات وزير دولة للشئون الخارجية، ووزيرا للإعلام، ثم وزيرا للوحدة مع ليبيا، فمبعوثا له للتوسط فى الخلاف بين العراق والكويت، وأخيرا سفيرا فى يوجوسلافيا.

وفى كل هذا لم يكن مراد غالب مجرد مشاهد، بل كان مشاركا فى تشكيل المسار العام لسياسة مصر فى فترة من أزهى فترات تاريخها وأكثرها تألقا، ومن ثم تضمن هذا الكتاب كثيرا من الوقائع والحقائق التى لم تعلن من قبل، أسهم فيها المؤلف بجهده وفكره بشكل مباشر.

الناشر



مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام
التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر